

أنوار البيان

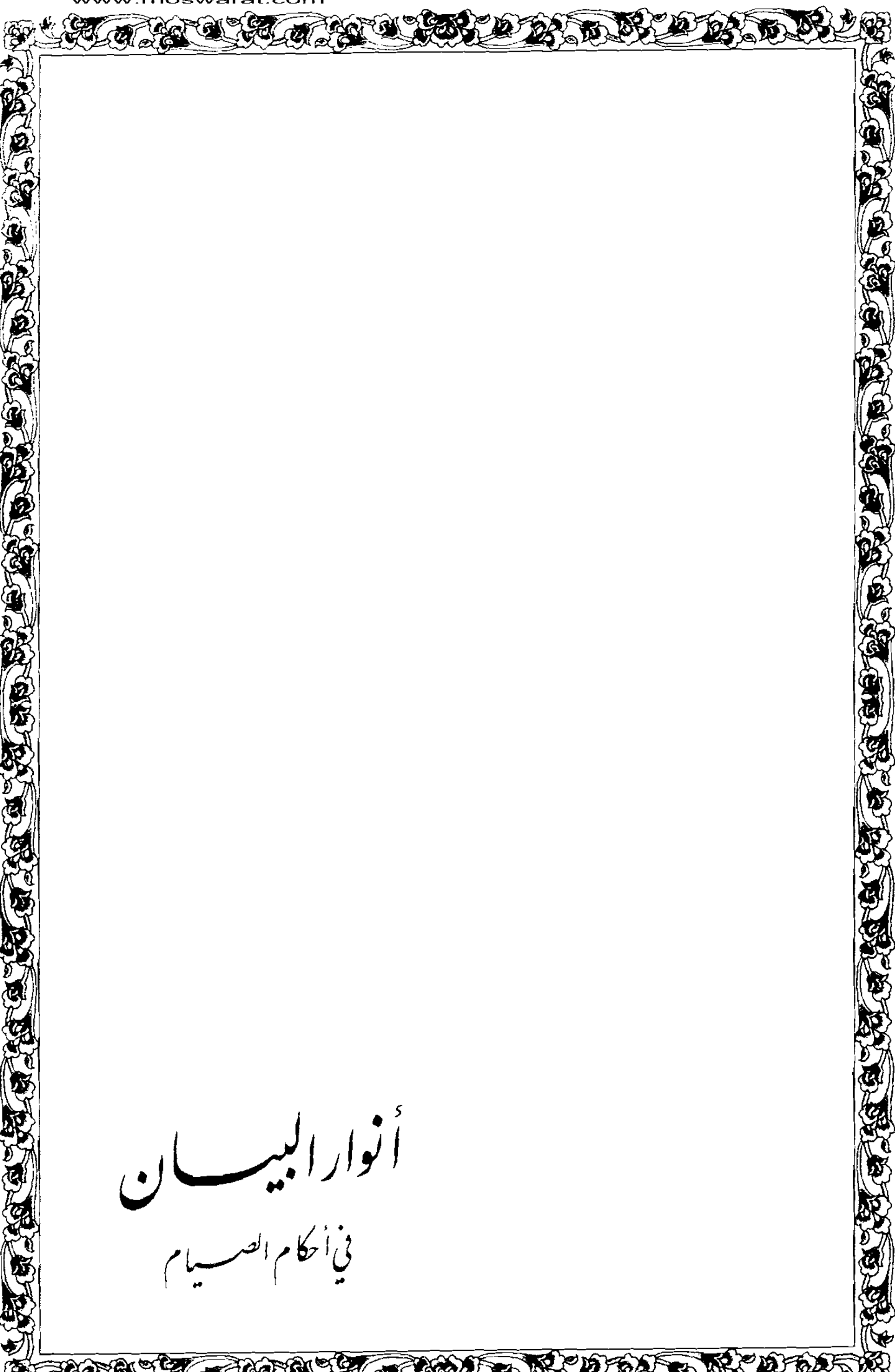
في أحكام الصيام

تأليف

حمد بن إبراهيم العثمان

الدار الأثرية


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



أنوار البيان

في أحكام الصيام

الطبعة الأولى

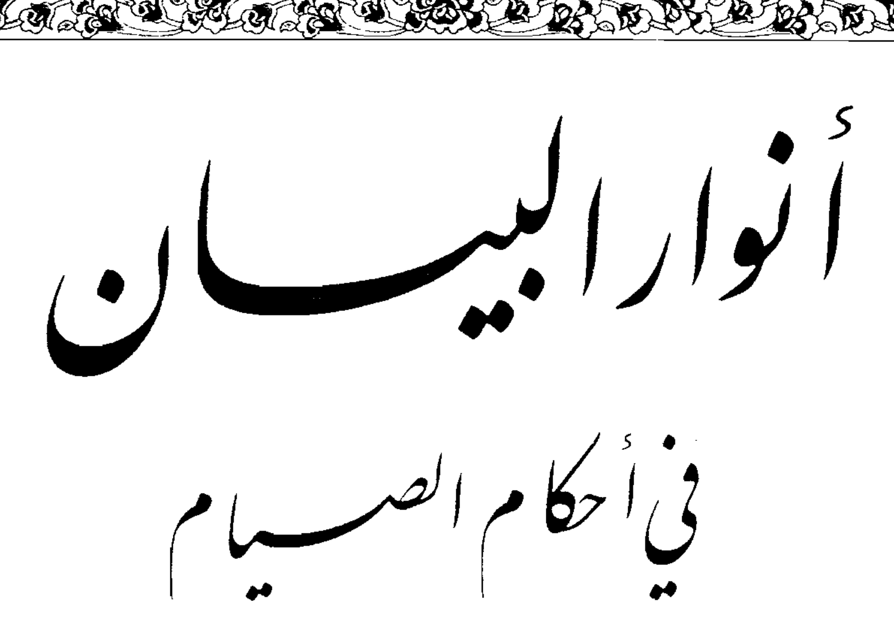
١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م



عمان - الأردن - تلفاكس : ٠٠٩٦٢ / ٦٥٦٥٨٠٤٥

خلوي : ٠٠٩٦٢ / ٧٩٥٩٤٣٤٥٦ - ص.ب : ٩٢٥٥٩٥ - الرمز البريدي : ١١١٩٠

الرمز الإلكتروني : alatharya1423@yahoo.com

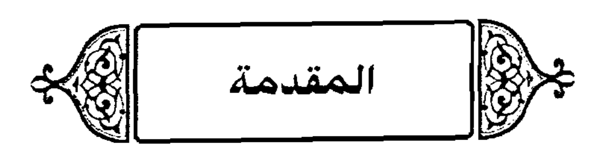


تأليف
حمد بن إبراهيم العثمان

الدار الأثرية


بسم الله الرحمن الرحيم





المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فشهر رمضان موسم طاعة تجتمع فيه أنواع من العبادات والطاعات لا تكاد تجتمع في غيره من مواسم السنة: صيام، واجتماع على القيام، تلاوة قرآن، اعتكاف، زكاة فطر، زكاة مال، عمرة فيه تعدل حجة، وليلة القدر فيه خير من ألف شهر مما سواه مما ليس فيه ليلة القدر.

ابتداء نزول القرآن كان في شهر رمضان، القيام جماعة كان في رمضان بالقرآن، معارضة جبريل القرآن للنبي ﷺ كان في رمضان، فخصوصية القرآن بشهر رمضان واضحة جداً.

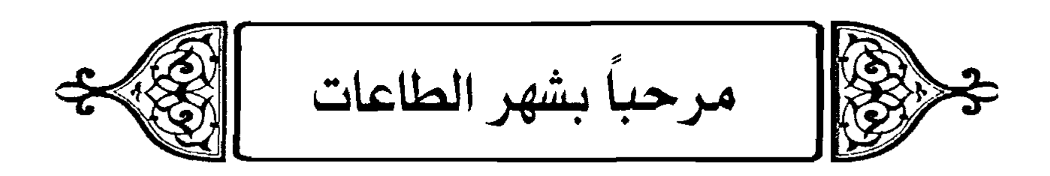
شهر رمضان شهر الصبر، ففيه صبر على الجوع والعطش وصبر عن الشهوات، وصبر على أقدار الله، وصبر لقيام وصيام أيام الشهر كله.

شهر رمضان شهر جهاد، يجاهد فيه العبد نفسه وهواه، ووقعت فيه وقائع جهادية كبيرة كانت حاسمة في ظهور الإسلام وسيادته وانتشاره كغزوة بدر، وفتح مكة.

شهر رمضان فيه تكفير السيئات، وفيه تضييق مجاري الدم على الشيطان، فيكفّ العبد نفسه عن فضول الطعام والكلام والنظر والنوم، فتعتدل أحوال العبد، ويخبت قلبه وتنبعث جوارحه إلى طاعة الله.

شهر رمضان ترتاض فيه النفوس على بذل الندى وكفّ الأذى، ولزوم العبادات، وتلك هي التقوى التي هي المقصود الأعظم من الصيام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، من أجل هذا نتدارس جميعاً دروس رمضان وهي أكثر مما ذكرت، لكن حسبي أن أشير إلى أمهاتها. والله الموفق.

الدرس الأول



مرحباً بشهر الطاعات

لا شك أن أهل الخير يفرحون بمواسم الطاعات إذا أقبلت، وذلك لما يجتنونه من حلاوة الإيمان بفعل الطاعات، وما يحصل لهم من تحقيق العبودية لله والتأله له، وقرة العين والفرح بإتيان الطاعات وأنواع القربات.

فموسم رمضان موسم طاعات وخيرات: صوم، وقيام، واعتكاف، وزكاة، وصدقة فطر، وعمرة فيه تعدل حجة، وتلاوة قرآن.

فباغي الخير يتحرّاه وينتظر قدومه ويسأل الله أن يبلغه رمضان، لأنه يعلم ما في هذا الشهر من الخير والفضائل، فالمؤمن يفرح بالطاعات وتقرّ عينه بها، قال النبي ﷺ: «**وجُعلت قرة عيني في الصلاة**»(١).

وقال تعالى في شأن نزول القرآن: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

---

(١) رواه أحمد (٣/١٢٨)، والنسائي، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء (ص٤٦٩ ـ رقم ٣٣٩١ ـ ٣٣٩٢).

قال معلى بن الفضل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانوا يدعون الله تعالى ستة أشهر أن يبلّغهم رمضان، ثم يدعونه ستة أشهر أن يتقبل منهم»، وقال يحيى بن أبي كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان من دعائهم: اللهم سلّمني إلى رمضان، وسلم لي رمضان، وتسلمه مني متقبلاً»(١).

والتابعي إذا قال «كانوا» فإنما يريد الصحابة الذين يُقتدى بهم، فهكذا كان هدي سلفنا الصالح، تحرٍّ لشهر رمضان وانتظاره، والتهيؤ له، ثم اغتنامه بالأعمال الصالحة.

ومع ما في هذا الشهر من الفضائل والطاعات فإنه شهر تُقسم فيه أرزاق الخلق، وتُقدّر فيه مقادير سنتهم كاملة كما قال تعالى عن ليلة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٣ ـ ٤] فتُفرق وتُقدّر مقادير الخلق في ليلة القدر لحول كامل، فلذلك يحرص أهل الخير على الاستقامة والطاعة والدعاء الشهر كله، وفي ليلة القدر أكثر وأحرص.

فإن من نجح وصلح في هذا الشهر حفظه الله في سائر السنة، ومن ضيّع هذا الشهر فتراه يجد الخسران في عامه كله إلا أن يتوب الله عليه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما يجتنيه العبد إذا صلحت له جمعته ورمضانه وحجه: «فالله سبحانه جعل لأهل كل ملة يوماً يتفرغون فيه للعبادة، ويتخلّون فيه عن أشغال الدنيا، فيوم الجمعة يومُ عبادة، وهو في الأيام كشهر رمضان في الشهور، وساعة الإجابة فيه كليلة القدر

(١) لطائف المعارف (ص١٥٦).

في رمضان، ولهذا من صح له يومُ جمعته وسلِم، سلمت له سائر جمعته، ومن صحّ له رمضان وسلم، سلمت له سائر سنته، ومن صحّت له حجته وسلمت له، صحّ له سائر عمره، فيوم الجمعة ميزان الأسبوع، ورمضان ميزان العام، والحج ميزان العمر»[١].

ولذلك يفرح أهل الخير بقدوم شهر الخير والطاعة، ويُهنىء بعضهم بعضاً بقدوم شهر رمضان، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «كان النبي ﷺ يُبشر أصحابه بقدوم رمضان كما خرجه الإمام أحمد والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يُبشر أصحابه يقول: «**قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك، كتب الله عليكم صيامه، فيه تُفتح أبواب الجنان، وتُغلق فيه أبواب الجحيم، وتُغلّ فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر من حُرم خيرها فقد حُرم**».

قال بعض العلماء: هذا الحديث أصل في تهنئة الناس بعضهم بعضاً بشهر رمضان.

كيف لا يُبشر المؤمن بفتح أبواب الجنان؟!

كيف لا يُبشر المذنب بغلق أبواب النيران؟!

كيف لا يُبشر العاقل بوقت يُغلّ فيه الشيطان؟!

من أين يشبه هذا الزمان زمان؟!

وفي حديث آخر «**أتاكم رمضان سيد الشهور**» فمرحباً به وأهلاً،

---

(١) زاد المعاد (١/٣٩٨).

جاء شهر الصيام بالبركات، فأكرم به من زائر هو آت، وروي أن النبي ﷺ كان يدعو ببلوغ رمضان، فكان إذا دخل رجب يقول: «**اللهم بارك لنا في رجب وشعبان، وبلّغنا رمضان**». أخرجه الطبراني وغيره(١).

فهذا شهر يحبّه ويفرح ويبتهج به أهل الخير، وأما أهل الشر فينفرون منه لما ألفوه من ترك الواجبات وركوب المحرمات، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «وهؤلاء السفهاء يستثقلون رمضان لاستثقالهم العبادات فيه من الصلاة والصيام، فكثير من هؤلاء الجهال لا يُصلي إلا في رمضان، وكثير منهم لا يجتنب كبائر الذنوب إلا في رمضان، فيطول عليه ويشقّ على نفسه مفارقتها لمألوفها، فهو يعدُّ الليالي والأيام ليعود إلى المعصية، وهؤلاء مصرُون على ما فعلوا وهم يعلمون، فهم هلكى، ومنهم من لا يصبر على المعاصي فهو يواقعها في رمضان»(٢).

فالقلوب القاسية، والقلوب اللاهية، والقلوب التي غمرتها الشهوات المحرمة، واللهو المحرم والمعاصي تُعرض عن الله ولا تُقبل إليه، تُدبر في وقت يُقبل فيه الناس، تُصرّ فيه على الذنوب في وقت يُقلع فيه الناس. قلوب لا تتعرض لرحمة الله التي وسعت كل شيء، قلوب مريضة، قد أظلها شهر تتنزل فيه الرحمات وتغفر فيه الـزلات ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

---

(١) لطائف المعارف ص١٥٥ ـ ١٥٦.
(٢) لطائف المعارف ص١٥٤.

يا ذا الذي ما كفاه الذنب في رجب حتى عصى ربه في شهر شعبانِ
لقد أظلّك شهر الصوم بعدهما فلا تصيّره أيضاً شهر عصيانِ

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يخبر تعالى بمنّته على عباده المؤمنين بفرضه عليهم الصيام كما فرضه على الأمم السابقة، لأنه من الشرائع الكبار التي هي مصلحة للخلق في كل زمان، وفي هذا حثّ للأمة أن ينافسوا الأمم في المسارعة إليه وتكميله وبيان عموم مصلحته وثمراته التي لا تستغني عنها جميع الأمم، ثم ذكر حكمته بقوله ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى، لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه، فالصيام هو الطريق الأعظم للوصول إلى هذه الغاية التي فيها سعادة العبد في دينه ودنياه وآخرته، فالصائم يتقرب إلى الله بترك المشتهيات تقديماً لمحبة ربه على محبة نفسه، ولهذا اختصّه الله من بين الأعمال حيث أضافه إلى نفسه في الحديث الصحيح، وهو من أعظم أصول التقوى، فإن الإسلام والإيمان لا يتم بدونه.

وفيه من حصول زيادة الإيمان والتمرن على الصبر والمشقات المقربة إلى رب العالمين، وأنه سبب لكثرة الطاعات من صلاة وقراءة وذكر وصدقة وغيرها ما يحقق التقوى، وفيه من ردع النفس عن الأمور المحرمة من أقوال وأفعال ما هو من أصول التقوى.

ومنها: أن في الصيام من مراقبة الله بترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه، لعلمه باطّلاع ربه عليه ما ليس في غيره، ولا ريب أن هذا من

أعظم عون على التقوى ومنها أن الصيام يضيق مجاري الشيطان «فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم». فبالصيام يضعف نفوذه وتقلّ معاصي العبد. ومنها أن الغني إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك وحمله على مواساة الفقراء المعدمين، وهذا كله من خصال التقوى.

ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام أخبر أنها أيام معدودات، أي قليلة سهلة، ومن سهولتها أنها في شهر معين يشترك فيه جميع المسلمين، ولا ريب أن الاشتراك هذا من المهونات المسهلات ومن ألطاف المولى ومعونته للصائمين، ثم سهل تسهيلاً آخر، فقال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، وذلك للمشقة غالباً رخص الله لهما في الفطر، ولما كان لا بد من تحصيل العبد لمصلحة الصيام أمرهما أن يقضياه في أيام أُخر إذا زال المرض وانقضى السفر وحصلت الراحة.

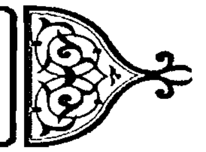
وفي قوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ دليل على أنه يقضي عدد أيام رمضان كاملاً كان أو ناقصاً، وعلى أنه يجوز أن يقضي أياماً قصيرة باردة، عن أيام طويلة حارة كالعكس»(١).

۞ ۞ ۞

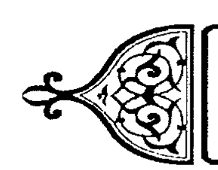
(١) تيسير اللطيف المنان، ص٧٣ ـ ٧٤.



الدرس الثاني



شهر الطاعات



رمضان شهر مبارك اجتمعت فيه أنواع العبادات والطاعات التي لا تكاد تجتمع جميعاً في غيره من الأوقات، صيام وقيام واعتكاف وزكاة وصدقة فطر، وتلاوة قرآن، وعمرة في رمضان تعدل حجة كما جاء في صحيحي البخاري ومسلم.

وهذه العبادات والطاعات قلما تجتمع في شخص واحد في غير رمضان، فإن النبي ﷺ سأل أصحابه يوماً: «**من أصبح منكم اليوم صائماً؟**» قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أنا يا رسول الله، قال النبي ﷺ: من إتبع منكم اليوم جنازة؟ قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أنا يا رسول الله، قال النبي ﷺ: «**من عاد منكم اليوم مريضاً؟**» قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أنا يا رسول الله، قال: فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً؟ قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، فقال النبي ﷺ: «**ما اجتمعن في امرىء إلا دخل من أبواب الجنة الثمانية كيف شاء**»[١].

---

(١) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (ص١٠٥١ ـ رقم ٦١٨١).

فهذا الحديث دالٌّ على اجتماع الفضائل كلها في أبي بكر الصديق ﷺ، وعلى استباقه للخيرات ﷺ، ولم يشارك أحد أبا بكر الصديق ﷺ يومها فيما كان متلبساً به من الطاعات والعبادات.

والناس طبقات في عباداتهم وطاعاتهم، بحسب ما هيّأهم الله له، وبحسب ما يزاولونه من مجاهدة أنفسهم لحملها على أصناف العبادات، والسعيد من ضرب من كل عبادة بسهم.

وهذا الإمام مالك رحمه الله إمام دار الهجرة الذي كتب الله له هذا القبول العظيم لم يكن مشهوراً بكثير صيام ولا صلاة، ولكنه قد بذل نفسه للتدريس ونشر العلم، فكتب إليه عبد الله العمري العابد الزاهد يعظه وينصحه في ذلك ويحثّه على العبادة، فكتب إليه الإمام مالك رحمه الله: إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرب رجل فُتح له في الصدقة ولم يُفتح له في الصلاة، ورب رجل فُتح له في الصلاة ولم يُفتح له في الصدقة، ورُب رجل فُتح له في الصوم ولم يُفتح له في الصلاة والصدقة، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه. انتهى كلامه رحمه الله.

وما قاله الإمام مالك رحمه الله هو عين الواقع والصواب، فالله عز وجل قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فكما أننا نجد في الواقع فلاناً غنياً وفلاناً فقيراً، كذلك الله عز وجل طبع بعض خلقه على حب العبادات البدنية كالصلاة والصيام، فتجدها يسيرةً عليه يُقبل عليها ما لا يُقبل على بذل المال وإنفاقه في وجوه البر، ومن الناس من هو بضد ذلك تماماً ترى يده منبسطة جداً ببذل المال يُبادر إلى بذل المال في وجوه الخير، كلما علم بحاجة مسلم بادر إلى قضائها وهو طيب النفس منشرح الصدر بهذه النفقة، وربما لا تجد له هذا النشاط في نوافل الصيام والصلاة، فهذه منح إلهية.

فأورد الإمام مالك رحمه الله هذه الحقيقة لنُقيّم الناس وفق معيار العدل والإنصاف ونعرف لكل صاحب طاعة فضله.

ثم قال الإمام مالك للعمري «وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه» وهذا الذي قاله الإمام مالك رحمه الله قاله على سبيل التواضع، وإلا فلا شك أن ما عليه الإمام مالك رحمه الله من نشر العلم أفضل من تأله العمري في نفسه، فعبادات العمري وطاعاته ثمرتها وعائدتها خاصة بالعمري نفسه، ونشر العلم الذي مارسه الإمام مالك ثمرته ومصلحته متعدية لكل المسلمين، بل ما زال المسلمون يستفيدون من علوم الإمام مالك رحمه الله التي نشرها وتوارثتها الأمة إلى يومنا هذا.

رمضان مدرسة في التربية على القيام بأنواع العبادات والطاعات، ومداومة فعلها شهراً كاملاً لا شك أنها دربة مهمة ومناسبة للزومها بعد ذلك بحيث تكون سجيةً للمسلم من صيام وقيام وتلاوة قرآن.

قال رجل لحماد بن سلمة رحمه الله: الرجل يُحبَّب إليه الصلاة، وآخر يُحبَّب إليه الجهاد، وعدَّد خصالاً من خصال الخير، فقال: هذه كلها طرقٌ إلى الله أحبَّ أن تُعْمَر(١).

ولعل من أعظم أسباب إدراك هذه الطاعات هو دعاء الله أن يجعله من السابقين للخيرات، ومن المقيمين لأنواع الطاعات، وصدق الالتجاء إلى الله يفتح ما انغلق من الأبواب ويُيسر العسير ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

كما أن أداء العبادات على وجه التلذذ بها، وتحقيق العبودية والشكر لله لا على سبيل إبراء الذمة فقط هو من أعظم أسرار لزوم

(١) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا (٣/ ٤٣٦ ـ رقم ٤٥)، موسوعة ابن أبي الدنيا.

أنواع الطاعات، ولذلك قال النبي ﷺ: «**وجُعلت قرة عيني في الصلاة**»، وكان يأمر مؤذنه أن يُنادي بالصلاة، ويقول ﷺ: «**أرحنا بالصلاة يا بلال**»(١).

وكان صلوات الله وسلامه عليه يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، وهو الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ويقول: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»(٢).

ولذلك قال ابن القيم رحمه الله: «ومن كانت قرة عينه في الصلاة لم يجد لها مشقة وكلفة»(٣).

والعبادة والطاعة لو لم تكن من سجاياك، فمع الدربة والمزاولة لها والصبر عليها يُيسّرها الله بعد ذلك حتى تألفها وتقرّ عينك بها، لذلك قال بعض الزهاد: «عالجت قيام الليل سنة، وتنعمت به عشرين سنة»(٤).

فالحاصل أن الجوارح تنطبع بما عوّدتها عليه، قال سليمان ابن طرخان التيمي رحمه الله: «إن العين إذا عوّدتها النوم اعتادت، وإذا عوّدتها السهر اعتادت».

والناس في الحقيقة عندنا فيهم حُبّ للخير، لكن الكسل وما استروحوا إليه من الدعة والراحة قطع عليهم أبواباً من الطاعات والعبادات.

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٦٤، ٣٧١)، وصحّحه الألباني رحمه الله.
(٢) رواه البخاري، كتاب باب قوله ﴿ليغفر لك الله ما تَقَدَّمَ من ذنبك وما تأخَّر﴾ (ص٨٥٦ ـ رقم ٤٨٣٧)، ومسلم، كتاب صفة المنافقين (ص١٢٢٧ ـ رقم ٧١٢٤).
(٣) عدة الصابرين ص٨٣.
(٤) عدة الصابرين ص١٩١.

فالبعض إنما يُؤتى من همته الضعيفة، ولذلك كان النبي ﷺ يتعوّذ من العجز والكسل كما في صحيح البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، لأن العجز والكسل قاطع عن كل خير، كما أن العزيمة جالبة لكل خير.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «فالعزم والثبات هما السبب الأكبر لنيل المطالب المتنوعة، ومن دعاء النبي ﷺ: «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة في الرشد**»، لأن بالأمرين يحصل الكمال للعبد.

العزيمة على الرشد التي هي أمور الخير كلها، ثم الثبات على ذلك، والنقص إما من عدم العزيمة، أو العزيمة على ما ليس برشد، وهي الأمور التي لا نفع فيها في الدين ولا في الدنيا، أو عدم الثبات الذي سببه التردد وعدم التصميم، فعلى من شرع في عمل رشد نافع أن يُوطّن نفسه على تكميله من كل وجه، ويُوجه له وجهته الظاهرة والباطنة، ولا يستبطىء النتيجة النافعة، بل يُثابر عليه مثابرة الجازم الذي لا مثنوية عنده ولا تلوّم»[(١)].

وليحذر المسلم من الصوارف التي تصدّه عن طاعة الله، وكثير منها يرجع إلى التوسع في المباحات، والفضول من كل شيء، قال ابن القيم رحمه الله: «وأكثر المعاصي إنما تولدها من فضول الكلام والنظر، وهما أوسع مداخل الشيطان، فإن جارحتيهما لا يملّان ولا يسأمان، بخلاف شهوة البطن، فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام، وأما العين واللسان فلو تُركا لم يفترا من النظر والكلام، فجنايتهما

(١) مجموع الفوائد واقتناص الأوابد ص١٦٦.

مُتسعة الأطراف، كثيرة الشعب، عظيمة الآفات، وكان السلف يُحذرون من فضول النظر، كما يُحذرون من فضول الكلام، وكانوا يقولون: «ما شيء أحوج إلى طول السجن من اللسان». وأما فضول الطعام فهو داع إلى أنواع كثيرة من الشر، فإنه يُحرّك الجوارح إلى المعاصي، ويُثقلها عن الطاعات، وحسبك بهذين شر!

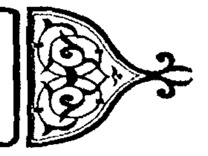
فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام، وكم من طاعة حال دونها، فمن وُقي شرَّ بطنه فقد وقي شراً عظيماً، والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام، ولهذا جاء في بعض الآثار: «ضيِّقوا مجاري الشيطان بالصوم»، وقال النبي ﷺ: **«ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطن»**، ولو لم يكن في التملي من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله عز وجل، وإذا غفل القلب عن ذكر الله ساعة واحدة جثم عليه الشيطان ووعده ومنّاه وشهّاه، وهام به في كل واد، فإن النفس إذا شبعت تحركت وجالت وطافت على أبواب الشهوات، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلّت.

وأما فضول المخالطة فهي الداء العضال الجالب لكل شر، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة، وكم غرست في القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات وهي في القلوب لا تزول، ففضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة، وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بقدر الحاجة»[1].

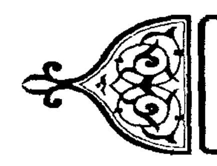
---

(١) بدائع الفوائد: ١/ ٨٢٠ ـ ٨٢١.

الدرس الثالث



مدرسة في الإخلاص



رمضان مدرسة في الإخلاص، فالصيام سرٌّ بين العبد وربه لا يطّلع عليه إلا الله عز وجل، كما أن النبي ﷺ قال: «**من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه**»(١)، وقال عليه الصلاة والسلام «**من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه**»(٢).

والعمل الصالح له شرطان: الإخلاص لله عز وجل، والمتابعة للنبي ﷺ كما قال تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، قال الفضيل رحمه الله: «أخلصه وأصوبه». وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، فقوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ هذا شرط الإخلاص، وقوله ﴿حُنَفَآءَ﴾ هذا شرط المتابعة، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان (ص٩ ـ رقم ٣٨)، ورواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان (ص٣٠٨ ـ رقم ١٧٨١).

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب تطوع قيام رمضان من الإيمان (ص٩ ـ رقم ٣٧)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان (ص٣٠٨ ـ رقم ١٧٧٩).

أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥] فقوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ هذا شرط الإخلاص، وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ هذا شرط المتابعة.

والنية شأنها عظيم، فهي أصل العمل وروحه، قال النبي ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**»، ونوح عليه السلام لما أراده قومه أن يطرد من آمن به لأنهم فقراء، فرأى الملأ الكفار من قومه في ذلك مدخلاً للطعن في نياتهم، فأجابهم نوح عليه السلام بقوله كما ذكر الله عنه ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٣١]، وفي صحيح مسلم من حديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهنَّ أن النبي ﷺ لما ذكر الجيش الذي يغزو الكعبة فيُخسف به، فقالت أمهات المؤمنين: كيف يُخسف بهم، وفيهم من ليس منهم، قال: «**يُبعثون على نياتهم**».

والنية الصالحة تُنمي العمل كما قال النبي ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية**» رواه البخاري ومسلم، وقال عبد الله ابن المبارك رحمه الله: «رب عمل صغير تُعظمه النية، ورب عمل كبير تُصغره النية»(١).

والإخلاص يُنمي العمل الصالح لصاحبه حتى بعد وفاته، فهذا الإمام البغوي رحمه الله قال عنه الحافظ الذهبي رحمه الله: «بُورك له في تصانيفه لقصده الصالح»(٢).

وهذا الإمام مالك رحمه الله لما صنّف كتابه «الموطأ» صنّف غيره نظير

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٠٠.
(٢) تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٢٥٨.

كتابه من بعض الوجوه فأُخبر الإمام مالك بذلك، فقال: «يبقى ما كان لله»، قال أبو موسى المديني رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقاً: «فصار كتاب مالك مثل الشمس في الشهرة وكثرة النسخ، وكتاب غيره قلَّ من يعرفه، ويعزّ وجوده»[(١)].

والنية مفتاح لكل خير فإنها تُصيّر العادات عبادات وطاعات، فينقلب العبد بذلك بإذن الله بحسنات كالجبال، لذلك قال داود الطائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رأيت الخير كله إنما يجمعه حُسن النية».

والنبي ﷺ أرشد أمته إلى أهمية استحضار احتساب النية فيما يزاوله الإنسان من أموره المعيشية وحياته الضرورية، وأنه بذلك يصير عبادة بعد أن كان صاحبه غافلاً عن ذلك، فالنبي ﷺ لما زار سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في مرضه قال له: «**حتى ما تجعل في فيّ امرأتك صدقة**»[(٢)].

والإنسان الصالح نيته صالحة، فظاهره وباطنه سواء، قال مطرف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن العبد إذا استوت سريرته وعلانيته، قال الله: هذا عبدي حقاً»[(٣)].

والناس طبقات باعتبار توافق الظاهر والباطن: صنف ظاهره وباطنه سواء، وهؤلاء هم المؤمنون المتقون، وصنف ظاهرهم الإيمان وبواطنهم تنطوي على الكفر، فهؤلاء هم المنافقون حقاً، وصنف ظاهرهم وباطنهم سواء في الغالب، إلا أنه تقوم بهم أحياناً، بعض

---

(١) إتحاف السالك ص١٤٢.
(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحِسْبة (ص١٣ ـ رقم ٥٦).
(٣) رواه وكيع في الزهد: ٢/ ٨٤٨.

شعب النفاق العملي لا الاعتقادي، فهؤلاء خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

والسلف الصالح كانوا حريصين على تجريد الإخلاص لله وحده، وإخفاء العمل طلباً لصيانته عما يفسده من الرياء والسمعة، قال محمد بن واسع رحمه الله: «لقد أدركت رجالاً كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة قد بلّ ما تحت خده من دموعه، لا تشعر به امرأته»[١].

وقال أيضاً: «إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم به».

وقال أبو حازم سلمة بن دينار: «اكتم حسناتك كما تكتم **سيئاتك**»[٢].

ولشدة حرص السلف على إخفاء أعمالهم وإيهام عدم القيام بالطاعة أصلاً، فقد كان أيوب السختياني يقوم الليل كله، فيخفي ذلك، فإذا كان عند الصبح رفع صوته، كأنه قام تلك الساعة[٣].

والتحديث بالطاعة قد لا يدلّ على فساد النية إذا سلم من آفة الكبر والعجب والفخر، وقصد غرضاً صحيحاً كالتحدث بنعمة الله، فالنبي ﷺ قال لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «**ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار**» متفق عليه، وقال عمرو بن ميمون الأودي رحمه الله: «من قام لورده من الليل فلا بأس أن يُحدث به الثقة من إخوانه»[٤].

(١) حلية الأولياء: ٢/ ٣٤٧.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٦/ ١٠٠.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٦/ ١٧.
(٤) تفسير القرآن للسمعاني: ٦/ ٢٤٦.

وأحياناً قد يُظهر العبدُ العملَ لغرض صالح وهو حمل الناس وتنشيطهم على هذا الفعل فهذا حسن، قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]، والصحابي الذي تصدّق بصرة من مال على قبيلة مضر لما نزلت بهم الفاقة فلما رآه الصحابة تتابعوا في الصّدقة عليهم فقال النبي ﷺ: «**من سنَّ سنة حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها من دون أن ينقص من أجورهم شيئاً**»(١).

وقد يتحدث المسلم بطاعته من باب إظهار نعمة الله، فهذا ابن المنكدر كان يقوم في جوف الليل فيقول: كم من عين الآن ساهرة في رزق، وكان يتوضأ من الليل فيرفع صوته بذكر الله، فيقول أهله أو غيرهم: لِمَ ترفع صوتك؟ فقال: جاري هذا يرفع صوته بالبلاء، وأنا أرفع صوتي بالنعمة والعافية(٢).

والإنسان أبصر بسريرته من غيره، فإذا تعبّد لله وقصد وجهه، فإن الشيطان يُوسوس له ليبطل عبادته من جهة القصد فيوقعه في الرياء، أو يُوسوس للمخلص أنه مرائي حتى يدع العمل، فالمؤمن في جهد وبلاء مع شيطانه، فليجرد العمل لله وليدحر وساوس الشيطان ولا يدع العمل.

قال عبد الرحمن بن شريح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن قام إلى شيء من الخير لا يريد به إلا الله ثم عرض له من يريد أن يرائيه بذلك أعطاه الله بالأصل ووضع عنه الفزع، ومَن قام إلى شيء من الخير لا يريد به إلا المراءاة ثم فكَّر أو بدا له يحول آخر ذلك لله أعطاه الله الفزع ووضع عنه الأصل»(٣).

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب الحثّ على الصدقة (ص٤١٠ ـ رقم ٢٣٥١).
(٢) تاريخ ابن أبي خيثمة: ٢/ ٢٦٢.
(٣) قيام الليل لابن أبي الدنيا (١/ ٣٠٢ ـ رقم ٢٧٨) موسوعة ابن أبي الدنيا.

وهنا لا بد من توضيح الإشكال في أحاديث ربما توهم البعض أنها تنافي الإخلاص، منها حديث أنس ﷺ أن رجلاً سأل النبي ﷺ غنماً بين جبلين فأعطاه إياه، فأتى قومه، فقال: يا قوم أسلموا، فوالله إن محمداً يُعطي عطاءً ما يخاف الفقر، فقال أنس ﷺ: «إن كان الرجلُ ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يُسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها»[(١)].

قال الوزير ابن هبيرة رحمه الله: «وفي هذا الحديث أيضاً النهي عن التنقير عن مقاصد التائبين والاقتناع منهم بما يُظهرونه، ثم التلطف في غرس الإخلاص في قلوبهم بالتدريج والتعليم رجاء أن يصيروا إلى ما يُحب المؤمن، وقد لا يفطن إبليس لإفساد هذا التوصل الحسن، لأن الشيطان يرى إسلام من يُسلم أو توبة من يتوب لملاحظة حال من الدنيا يوهن إسلام المسلم وتوبة التائب، فلا يحرص على إغواء المسلم أو التائب عن هذا الإسلام والتوبة المعروفين، ويرى العالم أن يغش حصولهما في قربهما منه بحيث تنالهما سهام الموعظة، وتبلغهما قوارع تذكيره، وتبصيرهما الحق بعينه، فإذا بدا لهما الحق في كمال صورته وصباحة وجوهه، عاد كل واحد منهما خصماً للشيطان مخلصاً في خصومته له، فحينئذ يرى الشيطان خسران صفقته في كونه رضي منهما بذلك الإسلام والتوبة الموسومين، راجياً أن يهلكهما بما جعله الله عز وجل سبب فلاحهما، فهذا معنى قولنا: وقد لا يفطن إبليس لإفساد هذا التوصل الحسن، وهذا دليل على أن إسلام المسلم لعاجل الدنيا يُسمى مسلماً، ومثل هذا إن مات في مهلة النظر فإن له ما للمسلمين»[(٢)].

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب في سخائه ﷺ (ص١٠٢١ ـ رقم ٦٠٢١).
(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح: ٥/٣٣٧.

وكما أن النبي ﷺ تألّف الأعرابي بما أعطاه من غنم فإن الأنبياء من قبله كانوا يُحركون الناس بالدنيا إلى الدين، قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢]، قال قتادة رحمه الله: «علم أن القوم أصحاب دنيا فحرّكهم بها ليؤمنوا»[١].

وتجوز إضافة أعمال البر إلى أربابها، وليس ذلك بقادح في إخلاصهم، ففي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: وفيه قوله «مسجد بني زريق»، وبوّب عليه البخاري باب جواز قول مسجد بني فلان، وقال الحافظ ابن الملقن رحمه الله: «وليس إضافة المسجد إلى بني زريق إضافة تمليك وإنما هي إضافة تمييز»[٢].

وتحسين العمل كذلك إن قصد به إتقان العمل لا الرياء كان طاعةً وقربة.

فالنبي ﷺ لما أخبر أبا موسى الأشعري رضي الله عنه بسروره وإعجابه بقراءته، قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «لو أعلم أنك تستمع لقراءتي لحبّرته لك تحبيراً»[٣]، وكذلك جودة التحضير للدروس إذا كان الشيخ محتسباً على أنها عبادة ويبذل أقصى جهده لتبليغ شرع الله ورفع الجهل عن المسلمين فهذا عمل صالح، وإن قصد الرياء وأن

(١) تفسير القرآن للسمعاني: ٦/٥٦.
(٢) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام: ١٠/٣٥٩.
(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن (ص٩٠٣ - رقم ٥٠٤٨)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن (ص٣٢١ - رقم ١٨٥٢).

يُقال: «عالم» فهذا أول من تسعّر بهم النار يوم القيامة كما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ.

ولكن مع هذا فينبغي للعبد أن يتحفظ ويسدّ كل طريق قد يفسد النية، فإن القلب قد يكون صحيحاً فلا تزال ترد عليه الواردات والخواطر حتى ربما شاب النية شائبة خفية، فالسعيد من احتاط لدينه.

قال أبو عبد الله الأنطاكي: «اجتمع الفضيل والثوري، فتذاكروا، فرَّق سفيان وبكى، ثم قال: أرجو أن يكون هذا المجلس علينا رحمة وبركة، فقال له الفضيل: لكني يا أبا عبد الله أخاف أن لا يكون أضرَّ علينا منه، ألست تخلصت إلى أحسن حديثك، وتخلصت أنا إلى أحسن حديثي، فتزينت لي، وتزينت لك؟

فبكى سفيان، وقال: أحييتني أحياك الله[(١)].

وقال الربيع بن صبيح: «كنا عند الحسن، فوعظ فانتحب رجل، فقال الحسن: أما والله ليسألنك الله يوم القيامة ما أردت بهذا»[(٢)].

وعن الحسن البصري قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من عبد يخطب خطبة إلا والله عز وجل سائله عنها يوم القيامة ما أراد بها»**[(٣)]، فكان مالك إذا حدّث بهذا الحديث بكى، حتى ينقطع، ثم يقول: تحسبون أن عينيَّ تقرُّ بكلامي عليكم، وأنا أعلم أن الله سائلي عنه يوم القيامة ما أردت به.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٨/ ٤٣٩.
(٢) رموز الكنوز: ١/ ٥٨٨.
(٣) رموز الكنوز (١/ ٥٨٨).

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «البكاء عشرة أجزاء، جزء لله وتسعة لغير الله، فإذا جاء الذي لله في العام مرة فهو كثير»[(١)].

وأحياناً قد يشعر الإنسان ببعض من يراه ويشاهده أنه يتكلف في تحسين ظاهره مما قد لا يتوافق مع باطنه، وقد تكلّم الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ في شأن من يتعاطى الخشوع ظاهراً مجرد صورةً دون حصوله حقيقةً، فقال: «ومتى تكلف الإنسان تعاطي الخشوع في جوارحه وأطرافه مع فراغ قلبه من الخشوع وخلوه منه، كان ذلك خشوع النفاق، وهو الذي كان السلف يستعيذون منه، كما قال بعضهم: «استعيذوا بالله من خشوع النفاق، قالوا: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع، فمن أظهر خشوعاً غير ما في قلبه فإنما هو نفاق على نفاق»[(٢)].

والنية قد يحتفّ بها من القرائن ما قد يُفصح عنها، فهذا النبي ﷺ لما اعتكف بادرت إحدى نسائه فضربت لها خباءً في المسجد لتعتكف، فتبعتها سائر نساء النبي ﷺ فضربن أخبيةً لهن، فقال النبي ﷺ: **«آلبر أردتن؟»**[(٣)].

والسلف مع صلاح بواطنهم كانوا يتهمون نياتهم، قال شعبة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما شيء أخوف عندي من أن يُدخلني النار من الحديث»، قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ معلقاً: «كل من حاقق نفسه في

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٧/ ٢٥٨.
(٢) الخشوع في الصلاة ص١٣ ـ ١٤.
(٣) رواه البخاري، كتاب الاعتكاف، باب الأخبية في المسجد (ص٣٢٦ ـ رقم ٢٠٣٤)، ومسلم، كتاب الاعتكاف، باب متى يدخل مَن أراد الاعتكاف معتكفه (ص٤٨٣ ـ رقم ٢٧٨٥).

صحة نيته في طلب العلم يخاف من مثل هذا، ويودُّ أن ينجو كفافاً»(١).

وإصلاح النية أمر شاق ليس باليسير، لذلك قال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما عالجت شيئاً أشد عليَّ من نيتي لأنها تتقلب عليَّ»، وقال يوسف بن أسباط «تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد»(٢).

ولا يعارض هذا ما جاء عن بعض السلف أن تجريد الإخلاص لله وحده أيسر من مصانعة المخلوقين، قال أبو حازم سلمة ابن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يُحسن عبد فيما بينه وبين الله، إلا أحسن الله فيما بينه وبين العباد، لمصانعة وجه واحد أيسر من مصانعة الوجوه كلها، إنك إذا صانعته مالت الوجوه كلها إليك، وإذا استفسدت ما بينه شنئتك الوجوه كلها»(٣).

فتجريد الإخلاص لله يسير باعتبار أنك تصانع وجهاً واحداً لا شريك له، تعرف ماذا يريد منك، والمشقة في ذلك ظاهرة لمجاهدة الخواطر الشيطانية التي ترد على القلب، وأما مراءاة الناس فهي أشق لأن الناس لا يرضيهم شيء، وما يرضيهم اليوم يُسخطهم غداً، وأهواءهم كثيرة متقلبة، فمن جعل قصده ونيته تبعاً لأهواء الخلق أصابه الشقاء الدنيوي والأخروي، فهذا المراد بالمشقة، وضدّه اليسر في إرضاء الواحد الأحد الذي لا شريك له. والعبد معان على الإخلاص والنية الصالحة ثمراتها عظيمة، فقد روى أبو نعيم في

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٧/ ٢١٣.
(٢) جامع العلوم والحكم: ١/ ٧٠.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٦/ ١٠٠.

الحلية والخطيب في تاريخ بغداد من حديث النواس بن سمعان مرفوعاً: «نية المؤمن خير من عمله، ونية الفاجر شرّ من عمله»، وروى القضاعي كما في مسند الشهاب من حديث أنس مرفوعاً بلفظ «نية المرء أبلغ من عمله».

وقال يحيى بن أبي كثير رحمه الله: «تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل»[(١)].

قال في معناه الحافظ العلائي رحمه الله: «فُسر ذلك بأن المؤمن يُخلّد في الجنة وإن كان مدة عمله الصالح متناهية، لأن نيته كانت أنه لو بقي أبد الآباد مستمراً على الإيمان، فجوزي على ذلك بالخلود في الجنة، كما أن الكافر مخلد في النار، مقابلة لنيته أنه لو عاش ما عاش مستمراً على الكفر»[(٢)].

من أجل هذا يرى بعض العلماء أن تجريد الإخلاص لله عز وجل أجلّ الطاعات وأفضلها، قال يوسف بن أسباط رحمه الله: «إيثار الله عز وجل أفضل من القتل في سبيله»[(٣)].

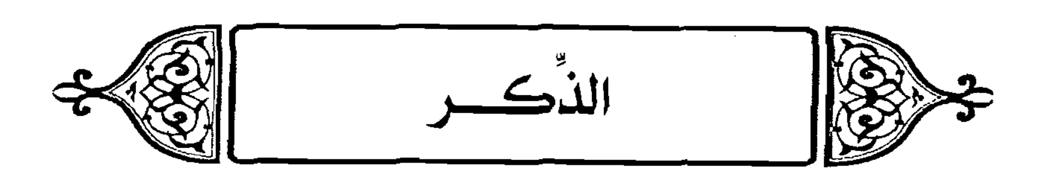
ومن ثمرات حسن النية أنها تكفيك عدوان الظالمين والباغين، قال أبو حازم المديني رحمه الله: «لا تعادين رجلاً ولا تناصبه حتى تنظر إلى سريرته بينه وبين الله، فإن يكن له سريرة حسنة، فإن الله لم يكن ليخذله بعداوتك، وإن كانت له سريرة رديئة فقد كفاك مساوئه، ولو أردت أن تعمل به أكثر من معاصي الله لم تقدر»[(٤)].

---

(١) جامع العلوم والحكم: ١/ ٧٠.
(٢) المجموع المذهب: ١/ ٧٠.
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «الإخلاص».
(٤) سير أعلام النبلاء: ٦/ ٩٨.



الدرس الرابع



الذكــر

ذكر الله حياة القلوب كما قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وهو من أسباب طمأنينة القلوب وانشراح الصدور، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وذكر الله أكبر من كل شيء كما قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله «فإن ذكر الله عبادةٌ لله، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها»(١).

وذكر الله من أجلّ الطاعات وأفضل العبادات، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما عمل آدميٌّ عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله تعالى**»(٢).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم**

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٠/ ١٨٨.
(٢) رواه أحمد (٥/ ٢٣٩)، وصحّحه الألباني.

من إعطاء الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **ذكر الله**»[(١)].

والذاكرون الله هم السابقون، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**سبق المُفرِّدون**، قالوا: وما المُفرِّدون يا رسول الله؟ قال: **الذاكرون الله كثيراً، والذاكرات**»[(٢)].

ومن يذكر الله يذكره الله وكفى بذلك فضلاً ونعمة لمن يعقل ذلك، قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربِّه: «**إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**»[(٣)]، وذكر الله يُكفِّر الذنوب ويحط الخطايا حطّاً، ففي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حُطَّت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر**»[(٤)].

والله عز وجل أمر موسى وهو كليمه أن لا يفتر عن ذكره هو وأخوه هارون، قال تعالى مخاطباً إياهم: ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ [طه: ٤٢]، أي: لا تفترا عن ذكري.

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٤٤٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والاستغفار، باب الحثّ على ذكر الله (ص١١٦٦ ـ رقم ٦٨٠٨).

(٣) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب ويحذركم الله نفسه (ص١٢٧٣ ـ رقم ٧٤٠٥)، ورواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل ذكر الله (ص١١٦٩ ـ رقم ٦٨٣٢).

(٤) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح (ص١١١٢ ـ رقم ٦٤٠٥)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح (ص١١٧١ ـ رقم ٦٨٤٢).

ولا أحد يستغني عن ذكر الله، فهذا زكريا عليه السلام جعل الله آيته أن لا يكلم الناس ثلاثة أيام إلا بالإشارة، فصمت لسانه عن كل شيء إلا عن ذكر الله، قال محمد بن كعب القرظي رحمه الله: «لو كان أحد يستغني عن الذكر لكان زكريا عليه السلام، قال الله عنه: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ٣١].

وذكر الله من أسباب الثبات أمام أعداء الله إنسيهم وجنيهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

قال ابن القيم رحمه الله في أثر الذكر في مواجهة الأعداء: «ويُفرِّق أيضاً ما اجتمع على حربه من جند الشيطان، فإن إبليس لا يزال يبعث له سريَّة، وكلما كان أقوى طلباً لله سبحانه وتعالى، وأشد تعلقاً به وإرادة له كانت السَّريَّة أكثف وأعظم شوكة، بحسب ما عند العبد من مواد الخير والإرادة، ولا سبيل إلى تفريق هذا الجمع إلا بدوام الذكر»(١).

والعبد يجتهد أن يلازم ذكر الله على كل أحواله، قالت عائشة رضي الله عنها إن النبي ﷺ: يذكر الله على كل أحواله(٢).

وذكر الله عز وجل من صفات عباده المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

---

(١) الوابل الصيب ص١٥٦.
(٢) رواه مسلم، كتاب الحيض، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها (ص١٦٠ ـ رقم ٨٢٦)..

ومع هذا ينبغي للمسلم أن لا يغفل عن ذكر أول النهار وآخره لئلا يُكتب من الغافلين، قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [طه: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥]، والإبكار: أول النهار، والعشي: آخره.

ولهذا كان السلف لا يعدلون بذكر الله بعد الفجر بشيء أبداً، قال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان السلف إذا صدع الفجر أو قبله كأنما على رؤوسهم الطير، مقبلين على أنفسهم حتى لو أن حميماً لأحدهم غاب عنه حيناً ثم قدم ما التفت إليه، فلا يزالون كذلك حتى يكون قريباً من طلوع الشمس، ثم يقوم بعضهم إلى بعض فيتحلّقون، وأول ما يفيضون فيه أمر معادهم وما هم صائرون إليه، ثم يتحلقون إلى الفقه والقرآن»[(١)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن المكروه عندهم ـ أي عند السابقين بالخيرات ـ النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس فإنه وقت غنيمة، وللسير في ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيمة، حتى لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود ذلك الوقت حتى تطلع الشمس، فإنه أول النهار ومفتاحه، ووقت نزول الأرزاق، وحصول القسم، وحلول البركة، ومنه ينشأ النهار وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصة، فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطر»[(٢)].

وكذلك يجب الاعتناء بآخر النهار قبل غروب الشمس لأنه به يُختم عمل الإنسان، فليُختم بعمل صالح وبذكر الله حتى لا يُكتب

(١) إنارة الفكر ص٩٥.
(٢) تهذيب مدارج السالكين ص٢٤٨.

العبد من الغافلين، قال ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ: «بلغنا أنه من ختم نهاره بذكر الله كُتب نهاره كله ذكراً».

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «وهذه من الآداب التي ينبغي للعبد أن يراعيها حق رعايتها، وهي الإكثار من ذكر الله آناء الليل والنهار، خصوصاً طرفي النهار، مخلصاً خاشعاً متضرعاً، متذللاً، ساكناً، متواطئاً عليه قلبه ولسانه بأدب ووقار، وإقبال على الدعاء والذكر، وإحضار له بقلبه، وعدم غفلة، فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه»[1].

وذكر الله هو عبودية القلب، وهو مفتاح الخير كله، فإن العبد إذا ذكر الله استنار قلبه بذكر الله، وذهبت عنه الغفلة، ورحلت عنه الوساوس، وأصبح القلب حياً صالحاً، فتبعث الجوارح على الإتيان بطاعة الله وعبادته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «إن الذكر شجرة تُثمر المعارف والأحوال التي شمَّر إليها السالكون، فلا سبيل إلى نيل ثمارها إلا من شجرة الذكر، وكلما عظمت تلك الشجرة ورسخ أصلها كان أعظم لثمرتها، فالذكر يثمر المقامات كلها، من اليقظة إلى التوحيد، وهو أصل كل مقام، وقاعدته التي ينبني ذلك المقام عليها، كما يُبنى الحائط على أُسِّه، وكما يقوم السقف على حائطه، وذلك أن العبد إن لم يستيقظ لم يُمكنه قطع منازل السير، ولا يستيقظ إلا بالذكر كما تقدم، فالغفلة نوم القلب أو موته»[2].

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٢٩٢.
(٢) الوابل الصيب ص ١٥٧.

والذكر من أيسر العبادات وأسهلها فليس فيها مال يُبذل ولا أعناق تُضرب ولا مشقة تُكابد، بل هي كما قال النبي ﷺ: «**كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم**»(١).

ومع أن هذه العبادة خفيفة ميسرة إلا أنها ثقيلة في الميزان كما قال النبي ﷺ: «**والحمد لله تملأ الميزان**» رواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ.

فالحقيقة: المغبون من أجهد نفسه فيما يلهيه عن ذكر الله ونسي ذكر الله الذي يسّره لعباده، فمن رغب عن الخير فهو الذي أبعد نفسه، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

وذكر الله براءة من النفاق، فإن المنافقين كما نعتهم الله ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، قال كعب: «من أكثر ذكر الله برئ من النفاق».

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «فمن أكثر ذكر الله فقد باينهم في أوصافهم، ولهذا خُتمت سورة المنافقين بالأمر بذكر الله، وأن لا يُلهي المؤمن عن ذلك مال ولا ولد، وأن من ألهاه ذلك عن ذكر الله فهو من الخاسرين.

قال الربيع بن أنس عن بعض أصحابه: علامة حب الله كثرة ذكره، فإنك لن تحب شيئاً إلا أكثرت ذكره»(٢).

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾ (ص١٣٠٥ ـ رقم ٧٥٦٣).
(٢) جامع العلوم والحكم: ٢/٥١٦.

والإنسان لو تزاحمت عليه الطاعات أو تشعبت فذكر الله جماع الخير كله، فعن عبد الله بن بسر ﷺ قال: «أتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثُرت علينا، فأخبرني بشيء أتشبث به؟ قال: «**لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله عز وجل**»[(١)].

ونحن قد ذكرنا أن العبد لو تشعبت عليه الطاعات فإن الذكر جماعها، والذكر أنواع، فأفضلها كلمة التوحيد، والحمد يجمع كل أنواع الذكر لأنه وصف المحمود بصفات الكمال محبةً وتعظيماً وإجلالاً، ويدخل في ذلك كلمة التوحيد دخولاً أولياً.

ومن الأذكار ما هو أولى بحق بعض الناس لحاجته إليه أكثر من غيره، فقد سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله «أيهما أنفع للعبد التسبيح أو الاستغفار؟

فقال: إذا كان الثوب نقياً فالبخور وماء الورد أنفع له، وإن كان دنساً فالصابون والماء الحار أنفع له، فكيف والثياب لا تزال دنسة؟!»[(٢)].

وكذلك قال العلماء: الذكر المضاعف أفضل من المذكر المفرد، قال ابن القيم رحمه الله: «تفضيل «سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته» على مجرد الذكر بـ«سبحان الله» أضعافاً مضاعفة، فإن ما يقوم بقلب الذاكر حين يقول: «سبحان الله وبحمده عدد خلقه» من معرفته وتنزيهه وتعظيمه لله بهذا القدر

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٨٨)، والترمذي، كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الذكر (ص٧٧١ ـ رقم ٣٣٧٥)، وصحّحه ابن حبان (٢/ ٩٢).
(٢) الوابل الصيب ص٢٣٣.

المذكور من العدد أعظمُ مما يقوم بقلب القائل: «سبحان الله» فقط، وهذا يُسمَّى: الذكر المضاعف، وهو أعظم ثناءً من الذكر المفرد»[(١)].

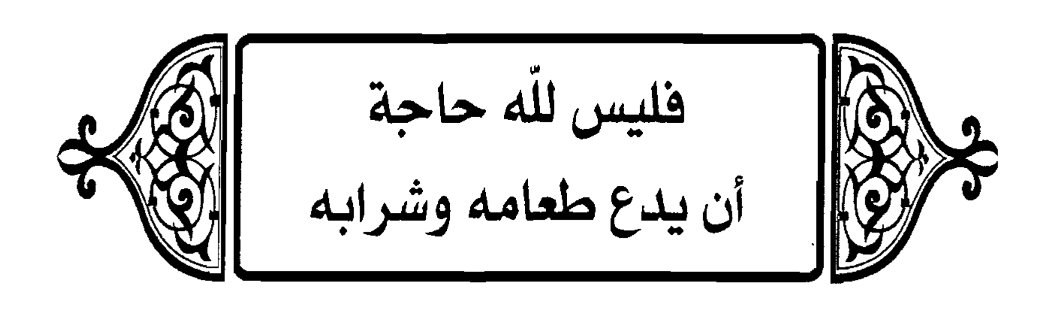
ومن اللافت جداً أن ننبّه أن الأعمال والطاعات كلها تنقطع إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، إلا الذكر فإن أهل الجنة يُلهمون الذكر والتسبيح كما جاء في صحيح مسلم، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «الذكر لا فراغ له ولا انقضاء، والأعمال تنقطع بانقطاع الدنيا، ولا يبقى منها شيء في الآخرة، والذكر لا ينقطع، المؤمن يعيش على الذكر ويموت عليه، وعليه يُبعث»[(٢)].



(١) المنار المنيف ص٢٦ ـ ٢٧.
(٢) لطائف المعارف ص٣٠٣.



الدرس الخامس



فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه

فقد روى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه**»(١).

فهذا الحديث وما في معناه فيه بيان حقيقة الصيام وهي كما جاءت في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، فليس المقصود بالصيام الدربة على ترك شهوة البطن والفرج من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، بل المقصود تحقيق التقوى في ترك المحرمات وفعل الطاعات.

فالانكفاف عن الطعام والشراب المقصود منه تضييق مجاري الشيطان، فتضعف لذلك الأسباب الموجبة لتسلط الشيطان التي تحصل عادة مع الشبع والبطر.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب مَن لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم (ص٣٠٦ـ رقم ١٩٠٣).

والمقصود من الصيام وحصول الجوع أن يستكين العبد فلا يبغي ولا يظلم ولا يؤذي غيره، هذا هو المفروض أن يكون الجوع قد أسكنه.

والمقصود من الصيام هو أن يتخلى القلب لذكر الله، ويلين وتذهب عنه القسوة التي غالباً ما تحصل مع الشبع، قال المروذي للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: «يجد الرجل من قلبه رقَّة وهو يشبع؟ قال: ما أرى»[١].

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: «ما شبعت منذ عشرين سنة»، قال البيهقي رحمه الله معلِّقاً: «وهذا لأن الشبع يُقسي القلب، ويغطي بعض العقل، ويُثقل البدن من الاجتهاد في العبادة، وهو عند أهل الحقائق غير محمود»[٢].

وقال سفيان الثوري رحمه الله: «فضول الدنيا خسران يوم القيامة»[٣].

فالصادق مع الله هو الذي إذا ذهبت عنه أسباب المعصية ومعارضات الطاعة أقبل إلى الله مبادراً ومسابقاً إلى فعل الخيرات، مغتنماً هذه المنح والأسباب، متعرضاً لرحمة الله مبتغياً فضله ورضوانه.

فالشياطين في رمضان تُصفّد، وأبواب النيران تُوصد، وتُفتح أبواب الجنان، ويجتمع الناس على الطاعات ومن أعظمها قيام الليل، فهل يُعقل أن يكون الرجل تقياً، ويكون رمضانه كسائر الشهور؟!!

---

(١) جامع العلوم والحكم: ٢/ ٤٦٩.
(٢) مناقب الشافعي: ٢/ ١٦٧.
(٣) سير السلف الصالحين: ٣/ ١١٠٣.

تثاقل عن الطاعات، إقامة على المحرمات، بغي واستطالة وأذى لعباد الله المؤمنين.

فمن الغريب العجيب أن يكفّ العبد عن الطعام والشراب، ولا يكفّ عن لحوم المسلمين.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «قال بعض السلف: أهون الصيام ترك الشراب والطعام، وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك من الكذب والمحارم، ودع أذى الجار، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صومك، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء.

إذا لم يكن في السمع متى تصاون وفي بصري غضّ وفي منطقي صمت
فحظي إذاً من صومي الجوع والظما فإن قلت أني صمت يومي فما صمت

وقال النبي ﷺ: **«رب صائم حظّه من صيامه الجوع والعطش، ورب قائم حظّه من قيامه السهر»**.

وسر هذا أن التقرب إلى الله تعالى بترك المباحات لا يكمل إلا بعد التقرب إليه بترك المحرمات، فمن ارتكب المحرمات ثم تقرّب إلى الله تعالى بترك المباحات كان بمثابة من يترك الفرائض ويتقرب بالنوافل، وإن كان صومه مجزئاً عند الجمهور، بحيث لا يؤمر بإعادته، لأن العمل إنما يبطل بارتكاب ما نُهي عنه فيه لخصوصه، دون ارتكاب ما نُهي عنه لغير معنى يختص به، هذا هو أصل قول جمهور العلماء، وفي مسند الإمام أحمد أن امرأتين صامتا في عهد النبي ﷺ فكادتا أن تموتا من العطش، فذُكر ذلك للنبي ﷺ فأعرض، ثم ذُكرتا له فدعاهما، فأمرهما أن يتقيآ، فقآتا ملء قدح قيحاً ودماً

وصديداً ولحماً عبيطاً، فقال النبي ﷺ: «**إن هاتين صامتا عما أحلّ الله لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما**»، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا يأكلان لحوم الناس، ولهذا المعنى والله أعلم ورد في القرآن بعد ذكر تحريم الطعام والشراب على الصائم بالنهار ذكر تحريم أكل أموال الناس بالباطل، فإن تحريم هذا عام في كل زمان ومكان بخلاف الطعام والشراب، فكان إشارة إلى أن من امتثل أمر الله في اجتناب الطعام والشراب في نهار صومه فليمتثل أمره في اجتناب أكل الأموال بالباطل، فإنه محرم بكل حال، لا يُباح في وقت من الأوقات»[1].

ولو أخذنا نزن الأمور بموازين السلف فيما يُعد من فضول الكلام لعلمنا حقيقة ما نحن فيه من التفريط، والتهاون بأمر الكلام.

قال عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يَعُدّونَ فضول الكلام ما عدا كتاب الله أن تقرأه، أو أمراً بمعروف، أو نهياً عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك بما لا بدّ لك منه»[2].

فيا له من معيار دقيق، فما الذي جعل هؤلاء القوم يملكون زمام ألسنتهم، ويحكمون وثاقها، فلا تنطلق إلا بكلام الله، وأمر بمعروف أو نهي عن منكر، أو في ضرورات الأمور المعيشية؟!

إنه الإيمان والتقوى والخوف من الله الذي ملأ قلوبهم حقاً حتى زجرهم عن إطلاق ألسنتهم فيما حرم الله.

وهل أوقع الناس في المهالك والعطب إلا التهاون في أمر اللسان، فتخرج الكلمة ولم يُلقوا لها بالاً، وهي عند الله عظيمة.

(١) لطائف المعارف ص ١٦٣ ـ ١٦٤.
(٢) الآداب الشرعية: ٤١/١.

ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في نار جهنم سبعين خريفاً**».

وغيبة الناس، والطعن فيهم، إنما هي أخلاق اللئام السفلة، قال عدي بن حاتم ﷺ: الغيبة مرعى اللئام.

وقال أبو عاصم النبيل ﷺ: لا يَذكر في الناس ما يكرهونه إلا سفلةٌ لا دين لهم[(١)].

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي ﷺ: «فإن السخرية لا تقع إلا من قلب ممتليء من مساوىء الأخلاق»[(٢)].

وقد حذّر الله من الغيبة والنميمة ونفّر منها أشد التنفير، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي ﷺ: «شبه أكل لحمه ميتاً، المكروه للنفوس غاية الكراهة، باغتيابه، فكما أنكم تكرهون أكل لحمه، وخصوصاً إذا كان ميتاً فاقد الروح، فكذلك فلتكرهوا غيبته وأكل لحمه ميتاً»[(٣)].

ووعيد غيبة الناس أليم شديد، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما عُرج بي مررتُ بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم**»[(٤)].

---

(١) الآداب الشرعية: ١/٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٨٠١.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٧٦٧.

(٤) رواه أحمد (٣/٢٢٤)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في الغيبة (ص٦٨٨ ـ رقم ٤٨٧٨)، وقالأبو داود: وحدثناه يحيى بن عثمان عن بقية، ليس فيه أنس.

والغيبة من كبائر الذنوب، فهذه عائشة ﵂ قالت عن صفية ﵂: إنها قصيرة، فقال لها النبي ﷺ: «**لقد قلت كلمةً لو مُزج بها البحر لمزجته**»[(١)].

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس ﵄: أن النبي ﷺ مرَّ بقبرين، فقال: «**إنهما ليعذبان وما يُعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستنزه من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة**».

فقوله ﵇: «**وما يُعذبان في كبير**» أي ما يُعذبان في أمر شاقٍ عليهما، وإن كان هو من كبائر الذنوب، ومن أسباب عذاب القبر، كما أشار إلى ذلك شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين في مجالس رمضان ص٧١.

ومما يدلّ على أن الغيبة والنميمة من كبائر الذنوب سوى ما تقدم، ما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا يدخل الجنَّة قتات**»، وفي لفظ «نمَّام».

وكل هذا الوعيد الشديد في الغيبة والنميمة وذلك لما يترتب عليه من الفساد والضرر للمجتمع، فالغيبة والنميمة تُفرّق بين الأخ وأخيه، والزوج وزوجه، وتجعل الناس متباغضين متعادين، إذا التقوا حصلت الوحشة والنفرة والكراهية.

قال يحيى بن أبي كثير ﵀: «يفسد النمام في يوم ما لا يُفسده الساحر في شهر»[(٢)].

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في الغيبة (ص٦٨٨ ـ رقم ٤٨٧٥)، والترمذي، كتاب صفة القيامة، باب حديث «لو مزج بها ماء البحر» (ص٥٦٩ ـ رقم ٢٥٠٢، ٢٥٠٣)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) تفسير السمعاني: ٦/ ٢١.

ولذلك نجد الشارع قد أغلق كل طريق يفضي إلى الغيبة والنميمة، فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**كفى بالمرء كذباً أن يُحدث بكل ما سمع**»(١).

واعلم أن خوض الرجل فيما لا يعنيه أمارةٌ على سخط الله عليه، قال معروف الكرخي رحمه الله: «علامة مقت الله عز وجل العبد أن تراه مشتغلاً بما لا يعنيه من أمر نفسه»(٢).

ومع ما زجر الشارع عن الكلام المحرم من الغيبة والنميمة ونحوه، فإنه أمر بأن لا نقول إلا الخير، قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**».

فهكذا ينبغي أن تُعوّد لسانك أن لا تقول إلا خيراً، وكلما همّت نفسك الأمارة بالسوء بقول الباطل وغيبة الناس فالجمها وازجرها وراغمها على قول الخير.

قال عبد الله بن المبارك رحمه الله: «إذا ما همَّمت بالنطق في الباطل فاجعل مكانه تسبيحاً»(٣).

نحن في زمن كثرت فيه الفتن، والإنسان بشر لا بد أن يُلمّ بشيء من الذنوب مما كتبه الله عليه مما هو من لوازم بشريته وانتفاء العصمة

(١) رواه مسلم في مقدمة صحيحه (ص٨ ـ رقم ٧).
(٢) مختصر الحجة على تارك المحجة: ٢/ ٤٣٣.
(٣) تهذيب اقتضاء العلم العمل ص٥٠.

عنه، فالعاقل يشتغل بعيوبه عن عيوب الناس، ولذلك قيل للرَّبيع «ما نراك تذمُّ أحداً؟ فقال: ما أنا على نفسي براض فأتفرَّغ من عيبها إلى غيرها، إن الناس خافوا الله تعالى على ذنوب العباد وأمنوه على ذنوبهم»[(١)].

ولقد أحسن القائل:

لسانك لا تَذْكُرْ به عورة امرئٍ ... فكلك عوراتٌ وللناس ألسنُ

ولعلنا في مثل هذا الزمان الذي تزينت فيه المعاصي، وسهل مقارفتها على وجه لا نظير له فيما أعلم أحرى أن نُعمل قول النبي ﷺ: «**ليسعك بيتك، وابك على خطيئتك**»[(٢)].

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «هذا زمان تضرّع، وبكاء، واستكانة، ودعاء كدعاء الغريق، إنما هذا زمان احفظ لسانك واخف مكانك، ويصلح عالم قليل، وخذ بما تعرف ودع ما تُنكر»[(٣)].

قال ابن فرحون المالكي رحمه الله: «فاتق الله وليردنك عيب نفسك عن عيوب الناس، ولا تكن كمثل الذباب الذي لا يقرح على المواضع السليمة من الجسد ولا يترك عليها، ويقع على الجروح فينكيها»[(٤)].

فعليك بخاصة نفسك، والْزَمْ وصيَّة النبي ﷺ الجامعة لابن عباس رضي الله عنهما حين قال له: «**احرص على ما ينفعك**»، فقوله «ما» هنا

---

(١) غالية المواعظ ص٥٤٢.
(٢) رواه أحمد (٤/١٤٨) والترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء فيحفظ اللسان (ص٥٤٨ - رقم ٢٤٠٦)، وقال: حديث حسن، وحسّنه العلامة الألباني رحمه الله.
(٣) مختصر الحجة: ٢/ ٤٨٣.
(٤) الزاهر في بيان ما يجتنب من الخبائث الصغائر والكبائر ص٢٣١.

اسم موصول، المعنى: احرص على الذي ينفعك، فتفيد العموم، أي احرص على كل ما ينفعك.

ولا تغترّ بكثرة من هان عليه الكلام فتكون من الهالكين، فلنا في سلفنا الصالح أسوة حسنة في كفّ الألسنة وترك الخوض فيما لا يعنيهم.

قال أحمد بن حنبل رحمه الله: «ما رأت عيناي مثل وكيع، يحفظ الحديث جيداً، ولا يتكلم في أحد»[(١)].

وقال الضحاك بن مخلد أبو عاصم النبيل رحمه الله: «منذ عقلت أن الغيبة حرام، ما اغتبت أحداً قط»[(٢)].

وقال الإمام البخاري رحمه الله: «أرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحداً»[(٣)].

وقال بعضهم: صحبتُ الربيع بن خثيم عشرين عاماً، ما سمعت منه كلمةً تُعاب[(٤)].

وقال عبد الرحمن بن مهدي في حماد بن سلمة رحمه الله: «أحسن ملكة نفسه ولسانه، ولم يُطلقه على أحد، ولا ذكر خَلْقاً بسوء، فسلم حتى مات»[(٥)].

واحذر مجالس الغيبة، فإذا خاض القوم في غيبة أحد فلا تخض

---

(١) تهذيب الكمال: ٣٠/ ٤٧٣.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٩/ ٤٨٢.
(٣) تحفة الإخباري ص٢٠٤.
(٤) سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٢٥٩.
(٥) تهذيب الكمال: ٧/ ٢٦٤.

معهم، وأنكر عليهم، وإذا عجزت عن ذلك فاخرج من هذا المجلس فإنه مجلس سوء.

قال العلامة محمود الآلوسي رحمه الله: «الأشبه أن يكون حُكم من استمع الغيبة كحكم من اغتاب إذا كان له قدرة على دفعها، ولذا قالوا: إن الإنكار على المغتاب واجب، فقد روى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: **«ما من امرئٍ يخْذلُ امرءاً مسلماً في موضع تنتهك فيه حُرمته، ويُنتقص فيه من عرضه وإلا خذله الله في موطن يُحب فيه نصرته، وما من امرئٍ ينصُرُ مسلماً في موطن يُنتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يُحبُ نصرته»**[(١)].

واعلم أن الغيبة تتغلظ بحسب المغتاب، قال والدنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله: «والغيبة تختلف آثامها باختلاف آثارها وعواقبها، فمثلاً: اغتياب العلماء أشدّ من اغتياب العوام، واغتياب الأمراء يعني ولاة الأمور أشدّ من اغتياب العوام، واغتياب الأمراء يعني ولاة الأمور أشد من اغتياب من دونهم، وبهذا نعرف أن هذه النشرات التي توزع بين الناس الآن أنها من الغيبة، وأن نشرها بين الناس من كبائر الذنوب، وأن الإنسان يأثم بها إثماً عظيماً، لأنها تُوجب أن يكره الناس من اغتيبوا في هذه الأوراق والنشرات، وأن يتمردوا عليهم، وتوجب أيضاً إيغار الصدور، وإحداث الفتن، فهي ـ والعياذ بالله ـ غيبة لولاة الأمور، وهي من أكبر الآثام في الغيبة،

(١) غالية المواعظ ص٥٤٠.

فالذي ينشرها أو يصورها ويوزعها آثم فاعل كبيرة ـ والعياذ بالله ـ عليه إثمها وإثم كل من تأثر بها ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ، لأن هذه الأمور لا شك أنها داخلة في الغيبة: «ذكرك أخاك بما يكره»، ثم ما مصدر هذا الكلام، من قال: إن هذا الكلام صحيح، من يقول إنه صحيح؟ ولذلك يوجد في بعض هذه النشرات أشياء كلها كذب، فقد شاهدناها نحن أنها كذب وليست بصحيحة فتكون جامعة بين الغيبة والبهتان ـ والعياذ بالله ـ.

وثالثاً: ماذا يترتب على نشر هذه الأوراق، هل تصلح الأمور؟ هل يُقلع الناس عما وُصفوا به في هذه النشرات؟ أبداً لا يزيد الأمر إلا شدة، لذلك نرى أن توزيع مثل هذه النشرات في غيبة ولاة الأمور نرى أنه من كبائر الذنوب، وأن الإنسان آثم إذا نشرها، أو صوّرها، أو وزعها بين الناس، لما فيها من انطباق حقيقة الغيبة عليها، لأن حقيقة الغيبة «ذكرك أخاك بما يكره»، وهذا لا شك أنه من ذكرك أخاك بما يكره، ثم يتولد على هذه الغيبة مفاسد عظيمة ليست كما لو اغتبت زيداً أو عمراً، فالأمر يكون عليه شخصياً، لكن هذا يترتب عليه ضرر على المغتاب شخصياً، وضرر على الأمن، لأنه يوجب إيغار الصدور وكراهة ولاة الأمور، فنحن نحذر من كبيرة من كبائر الذنوب»[١].

ولله در الحافظ السخاوي رحمه الله حيث لما كتب في التاريخ أعرض عن نشر ما يُنسب إلى الملوك والسلاطين من المعايب، وبيّن رحمه الله

(١) شرح رياض الصالحين: ١/ ٥١ ـ ٥٢.

السبب الباعث لذلك، حيث أفاد أنه تركه ديانةً لا رغبة ولا رهبةً من مخلوق، حيث قال رَحِمَهُ اللهُ: «ذكر أناس من الملوك والأكابر يُضاف إليهم شرب الخمر، وفعل الفواحش مما تصحيحه عنهم عزيز، وهو متردد بين إشاعة الفاحشة إن صحّ، أو القذف إن لم يصح، سيما ويتضمن التهوين على أبناء جنسهم فيما هم فيه من الزلل»(١).

فتأمل ما ذكره الحافظ السخاوي رَحِمَهُ اللهُ من مفاسد نشر عورات المسلمين «يتضمن التهوين على أبناء جنسهم فيما هم فيه من الزلل»، فترقيق المعاصي للمسلمين شر عظيم، ومن سعى في ذلك فعليه أوزار من هوّن عليهم تلك المعاصي والقبائح، وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللهُ: «فإن ظهور عوراتهم وهن في الإسلام»(٢).

فالحاصل أن الناس بشر وما من أحد إلا وفيه عيب، فالغيبة والنميمة إذا انتشرت في مجتمع أفسدته، فالأمر كما قال سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللهُ: «فإنه ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل يعني من غير الأنبياء إلا وفيه عيب، لكن من الناس من لا ينبغي أن تُذكر عيوبه، فمن كان فضله أكثر من نقصه، وُهب نقصه لفضله»(٣).

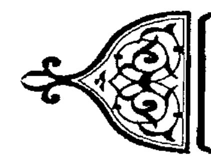
(١) الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ ص٤٨.
(٢) الفرق بين النصيحة والتعبير ص٣٠.
(٣) الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ ص٧٠.



الدرس السادس



لعلكم تتقون



ذكر الله حكمة فرض الصيام في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، فالله عز وجل ما فرض الفرائض ليتكثر بنا من قلة، ولا ليتعزز بنا من ذلة، بل فرضها لتزكو نفوسنا وتحقق التقوى. فالله غني عن جوعنا وعطشنا، وغني عن صيامنا وقيامنا واعتكافنا وجهادنا وحجنا وذبائحنا، قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾[الحج: ٣٧]، فالمقصود هو امتحان العبد فإذا انقاد واستسلم لله عز وجل تحققت التقوى واجتنى العبد ثمراتها، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

والتقوى هي وصية الله للأولين والآخرين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾ [النساء: ١٣١]، وهي وصية النبي ﷺ لأمته، وكان ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيراً،

ولما خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع يوم النحر وصى الناس بتقوى الله، وبالسمع والطاعة لأئمتهم.

وفي حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه لما وعظ الناس، وقالوا له: كأنها موعظة مُودِّع فأوصنا، قال: «**أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة**».

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه الطويل، قلت: يا رسول الله أوصني، قال: «**أوصيك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله**»، وفي الترمذي عن يزيد بن سلمة: أنه سأل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إني سمعت منك حديثاً كثيراً، فأخاف أن ينسيني أوله آخره، فحدثني بكلمة تكون جماعاً، قال: «**اتق الله فيما تعلم**».

ولم يزل السلف الصالح يتواصون بها، كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول في خطبته: أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى ابنه عبد الله: أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله عز وجل، فإنه من اتقاه وقاه.

واستعمل علي بن أبي طالب رضي الله عنه رجلاً على سرية، فقال له: أوصيك بتقوى الله الذي لا بدّ لك من لقائه، ولا منتهى لك دونه، وهو يملك الدنيا والآخرة.

وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى رجل: أوصيك بتقوى الله عز وجل التي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يثيب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل، جعلنا الله وإياك من المتقين، كما نقل ذلك كله ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٤٠٤ ـ ٤٠٦).

وقد تكلّم السلف بعبارات كثيرة في معنى التقوى، قال ابن عباس ﵄: «المتقون الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى، ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به»، وقال الحسن البصري ﵀: «المتقون اتَّقوا ما حُرِّم عليهم، وأدَّوا ما افتُرض عليهم»، وقال عمر بن عبد العزيز ﵀: «ليس تقوى الله بصيام النهار، ولا بقيام الليل، والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله تركُ ما حرَّم الله، وأداء ما افترض الله، فمن رُزق بعد ذلك خيراً، فهو خير إلى خير»، وقال طلق بن حبيب ﵀: «التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله».

وقال ابن مسعود ﵁ في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] قال: «أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر»، قال ابن رجب ﵀ «وشكره يدخل فيه جميع فعل الطاعات، ومعنى ذكره فلا يُنسى: ذكر العبد بقلبه لأوامر الله في حركاته وسكناته وكلماته فيمتثلها، ولنواهيه في ذلك كله فيجتنبها»[(١)].

قال الحافظ ابن رجب ﵀: «وأصل التقوى: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه»[(٢)].

---

(١) جامع العلوم والحكم: ١/ ٤٠١ ـ ٤٠٢.
(٢) جامع العلوم والحكم: ١/ ٣٩٨.

وقال أيضاً: «ويدخل في التقوى الكاملة فعل الواجبات، وترك المحرمات والشبهات، وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات، وترك المكروهات، وهو أعلى درجات التقوى، قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]»[1].

وقد تكلّم ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في الفرق بين البر والتقوى، فقال: «وأما عند اقتران أحدهما بالآخر كقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٢] فالفرق بينهما فرقٌ بين السبب المقصود لغيره، والغاية المقصودة لنفسها، فإن البرَّ مطلوب لذاته، إذ هو كمال العبد وصلاحه الذي لا صلاح له بدونه، كما تقدم.

وأما التقوى فهي الطريق الموصلة إلى البر، والوسيلة إليه، ولفظها يدل على هذا، فإنها فَعْلى من وقى يقي، وكان أصلها وقْوى، فقلبوا الواو تاءً، كما قالوا: تُراث من الوراثة، وتُجاه من الوجه، وتُخمة من الوخم، ونظائره، فلفظها دال على أنها من الوقاية، فإن

(١) جامع العلوم والحكم: ١/٣٩٩ ـ ٤٠٠.

المتقي قد جعل بينه وبين النار وقاية، فالوقاية من باب دفع الضرر، والبرُّ من باب تحصيل النفع، فالتقوى كالحمية، والبر كالعافية والصحة»[(١)].

والتقوى تحمل على فعل الطاعات، وتحجز من فعل المنكرات، قال أبو وائل: علمت أن المتقي ذو نهية، أي: تقواه تنهاه عن الفاحشة.

والمؤمنون المتقون أهل خير، ومفاتيح للخير مغاليق للشر، قال جبير بن نفير: كان أبو الدرداء ﷺ يقول للناس: «نحن أعرف بكم من البياطرة بالدواب، قد عرفنا خياركم من شراركم، أما خياركم: الذي يُرجى خيره، ويؤمن شره، وأما شراركم: فالذي لا يُرجى خيره، ولا يؤمن شره، ولا يعتق محرره»[(٢)].

وهذا الذي ذكره أبو الدرداء ﷺ في تصنيف الأخيار والأشرار هو حقيقة التقوى، فالتقوى هي كما سبق: كفّ الأذى، وبذل الندى، ولذلك قال النبي ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**».

فأصحاب النفوس الزكية يحبون الخير للناس، ويكفون شرورهم عن الخلق، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ومن أحب أن يُلحق بدرجة الأبرار، فلينو في كل يوم تطلع فيه الشمس نفع الخلق، فيما يسر الله من مصالحهم على يديه، وليطع الله في أخذ ما حلّ، وترك

---

(١) الرسالة التبوكية ص١٠ ـ ١١.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (١/٨٦ ـ رقم ١٥٩)، وصحّحه الألباني في المشكاة (٤٩٩٣).

ما حرّم، وليتورع عن الشبهات ما استطاع، فإن طلب الحلال والنفقة على العيال باب عظيم لا يعدله شيء من أعمال البر»[١].

وقد بيّن غير واحد من السلف حقيقة التقوى من لزوم الطاعة وصنع المعروف، وكفّ الأذى عن المسلمين، فقال عبد الله ابن عون: «أحب لكم يا معشر إخواني ثلاثة: هذا القرآن تتلونه آناء الليل والنهار، ولزوم الجماعة، والكفّ عن أعراض المسلمين»[٢].

وقال أبو علي الحسن بن علي الجوزجاني: «من علامات السعادة على العبد: تيسير الطاعة عليه، وموافقة السُّنة في أفعاله، وصحبته لأهل الصلاح، وحُسن أخلاقه مع الإخوان، وبَذْلُ معروفه للخلق، واهتمامه للمسلمين، ومراعاته لأوقاته»[٣].

فالمتقون علاماتهم معروفة ظاهرة، من علاماتهم:

١ ـ لزوم السُّنة ومجانبة البدعة، قال الشاطبي رحمه الله[٤]: «الولاية لا تحصل لتارك السُّنة».

٢ ـ لزوم الطاعة، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إني لأعرفُ أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار»**[٥].

---

(١) شرح حديث جبريل ص٦٠٩.
(٢) حلية الأولياء: ٣/ ٤١.
(٣) الاعتصام: ١/ ١٥٢.
(٤) الاعتصام (١/ ١٥٧)، ط ـ مكتبة التوحيد.
(٥) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (ص٧١٨ ـ رقم ٤٢٣٢)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل الأشعريين (ص١١٠٠ ـ رقم ٦٤٠٧).

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: «إن للإيمان بيوتاً، وإن للنفاق بيوتاً، وإن بيوت بني مُقرِّن من بيوت الإيمان»(١).

وهذا يحيى بن معين رحمه الله أخذ بركاب محمد بن عبد الجبار القرشي الهمذاني، فقيل له في ذلك، فقال: «ألا أفعل هذا برجل لا نراه إلا راحلاً في طلب العلم، أو وارداً من غزو، أو صادراً عن حج»(٢).

وقال الشعبي رحمه الله: «إن كان أهل بيت خُلقوا للجنة، فهم أهل هذا البيت: علقمة بن قيس، والأسود»(٣).

فبيوت المتقين معروفة، بيوت طاعة، وستر، وتلاوة قرآن، وخير.

٣ ـ كفّ الأذى عن المسلمين: وهذا من أوضح علامات المتقين، قال الحسن البصري رحمه الله: «إن لأهل التقوى أعلاماً يُعرفون بها: صدقُ الحديث، ووفاء بالعهد، وصلة الرَّحم، وحسنُ الجوار، ورحمة الضعفاء، وقلة الفخر والخيلاء، وبذل المعروف، وقلة الغائلة للناس، وحسن الخلق، وسعة الحلم، واتباع العلم»(٤).

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: «لا يكون العبد من المتقين حتى يأمنه عدوه»(٥).

٤ ـ الحرص على الوقت: فالتقي يعرف أن وقته ظرف لفعل الطاعات، وأن الأعمال تُرفع كل يوم، فيحسن اغتنام الأوقات ليوافي

---

(١) تاريخ ابن أبي خيثمة: ٣/١٦.
(٢) تهذيب الكمال: ٢٠/٥٨٧.
(٣) تهذيب الكمال: ٢٠/٣٠٦.
(٤) الزهد لهناد: ٢/٥٠٨.
(٥) سير أعلام النبلاء: ٨/٤٢٧.

ربه بموجبات الرضا، قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ابن آدم، نهارك ضيفك، فأحسن إليه، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل يحمدك، وإن أسأت إليه ارتحل يذمّك»(١).

٥ ـ الخوف من عدم قبول الأعمال: وهذا ما نعت الله به المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا للنبي ﷺ: هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «**لا يا بنت أبي بكر، يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل**»(٢).

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شأن خير هذه الأمة: «وكانوا يتهمون أعمالهم وتوباتهم، ويخافون أن لا يكون قد قُبل منهم ذلك، فكان ذلك يُوجب لهم شدة الخوف، وكثرة الاجتهاد في الأعمال الصالحة، قال الحسن: أدركت أقواماً لو أنفق أحدهم ملء الأرض ما أَمِنَ لعظم الذنب في نفسه.

وقال ابن عون: لا تثق بكثرة العمل، فإنك لا تدري أيُقبل منك أم لا، ولا تأمن ذنوبك، فإنك لا تدري كُفِّرت عنك أم لا، إن عملك مغيّب عنك كله»(٣).

٦ ـ الخوف من الذنوب: قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إن

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال: ١٠/ ١٨٦.
(٢) رواه أحمد (٦/ ٢٠٥)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنين (ص٧١٨ ـ رقم ٣١٧٥).
(٣) جامع العلوم والحكم: ١/ ٤٣٨.

المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مَرَّ على أنفه، فقال به هكذا»[١].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن المؤمن يغلب عليه الخوف لقوة ما عنده من الإيمان فلا يأمن العقوبة بسببها، وهذا شأن المؤمن دائم الخوف والمراقبة، يستصغر عمله الصالح ويخشى من صغير عمله السيئ»[٢].

وقال أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إنكم تعملون أعمالاً هي أدق في عيونكم من الشعرة كنا نعدّها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات»[٣].

قال ابن أبي جمرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن قلب الفاجر مظلم، فوقوع الذنب خفيف عنده، ولهذا تجد من يقع في المعصية إذا وُعظ يقول هذا سهل»[٤].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن، ومن تأمل أحوال الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وجدهم في غاية الجد في العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن»[٥].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة (ص١٠٩٧ ـ رقم ٦٣٠٨).
(٢) فتح الباري: ١١/١٠٥.
(٣) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يُتقى من محقرات الذنوب (ص١١٢٥ ـ رقم ٦٤٩٢).
(٤) فتح الباري: ١١/١٠٥.
(٥) الجواب الكافي ص٥٧.

٧ ـ محاسبة النفس: عن شداد بن أوس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الكيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنّى على الله الأماني**»[١].

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزيّنوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية»[٢].

وقال الحسن ﷺ: «لا تلقى المؤمن إلا يحاسب نفسه: ما أردت بكلمتي؟ وما أردت بأكلتي؟ وما أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قُدُماً، لا يحاسب نفسه».

وقال ميمون بن مهران ﷺ: «لا يكون العبد تقيّاً، حتى يكون لنفسه أشدَّ محاسبةً من الشريك لشريكه، ولهذا قيل: النفس كالشريك الخوّان، إن لم تحاسبه ذهب بمالك».

وكان الأحنف بن قيس يجيء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه، ثم يقول: حَسٍّ يا حُنَيفُ! ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟».

وقال مالك بن دينار ﷺ: «رحم الله عبداً قال لنفسه: ألست صاحبة كذا؟! ألست صاحبة كذا؟! ثم زمَّها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله، عز وجل، وكان لها قائداً».

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٢٤).
(٢) رواه أحمد في الزهد ص١٤٩.

قال ابن القيم رحمه الله: «وجماع ذلك: أن يحاسب نفسه أولاً على الفرائض، فإن تذكَّر فيها نقصاً تداركه، إما بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسبها على المناهي، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئاً، تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية، ثم يُحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عمَّا خُلق له، تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى، ثم يحاسبها بما تكلم به، أو مشت إليه رجلاه، أو بطشته يداه، أو سمعته أذناه: ماذا أردت بهذا؟ ولمن فعلته؟ وعلى أي وجه فعلته؟ ويعلم أنه لا بُدَّ أن يُنشر لكل حركة وكلمة منه ديوانان: ديوان: لمن فعلته؟ وديوان: كيف فعلته؟

فالأول: سؤال عن الإخلاص، والثاني: سؤال عن المتابعة، وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢ ـ ٩٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦ ـ ٧]، وقال تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨].

فإذا سُئل الصادقون وحوسبوا على صدقهم، فما الظن بالكاذبين؟!»[1].

والتقوى ثمراتها عظيمة في الدنيا والآخرة، وعاقبتها خير وفلاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، قال ابن القيم رحمه الله: «والمراد: العاقبة في الدنيا قبل الآخرة، لأنه ذكر ذلك عقيب قصة نوح، ونصره على قومه، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ

(١) إغاثة اللهفان: ١/ ١٦٥ ـ ١٦٦.

تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، أي عاقبة النصر لك ولمن معك، كما كانت لنوح عليه السلام ومن آمن معه.

وكذلك قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَاۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وقال إخباراً عن يوسف عليه السلام أنه نُصر بتقواه وصبره، فقال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِىۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩]، والفرقان: هو العز والنصر، والنجاة، والنور الذي يُفرِّق بين الحق والباطل، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

وقد روى ابن ماجه وابن أبي الدنيا عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لو عمل الناس كلهم بهذه الآية لوسعتهم**»[١].

---

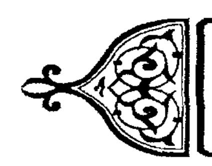
(١) إغاثة اللهفان: ٢/ ٩١٧ ـ ٩١٨.



الدرس السابع



السعادة وأسبابها



في الصحيحين عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «**للصائم فرحتان، فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه**»[(١)]، وهذا فرح شرعي لأنه مأذون فيه، وليس فيه مخيلة ولا كبر كحال أصحاب الفرح غير الشرعي كقارون وأشباهه الذي خرج على قومه في زينته ممتلئاً عجباً وفخراً وزهواً، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

أما فرح الصائم بفطره ففرحه هو بلزومه الطاعة إلى غايتها طاعةً لله، وما يجتنيه من عوائد وثمرات هذه الطاعة في العاجل والآجل، وكذلك رجوع ما مُنع منه مما ألفه من مأكول أو مشروب أو منكوح، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي ﵀ مبيناً ذلك: «أما فرحة الصائم عند فطره فإن النفوس مجبولة على الميل إلى ما يلائمها من مطعم ومشرب ومنكح، فإذا مُنعت من ذلك في وقت من الأوقات ثم أبيح

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقول: إني صائم إذا شُتم (ص٣٠٦ ـ رقم ١٩٠٤)، ومسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام (٤٦٩ ـ رقم ٢٧٠٦).

لها في وقت آخر فرحت بإباحة ما مُنعت منه خصوصاً عند اشتداد الحاجة إليه، فإن النفوس تفرح بذلك طبعاً، فإن كان ذلك محبوباً لله كان محبوباً شرعاً، والصائم عند فطره كذلك، فكما أن الله تعالى حرم على الصائم في نهار الصيام تناول هذه الشهوات فقد أذن له فيها في ليل الصيام، بل أحب منه المبادرة إلى تناولها في أول الليل، فأحبّ عباده إليه أعجلهم فطراً، والله وملائكته يصلّون على المتسحرين، فالصائم ترك شهواته لله بالنهار تقرباً إلى الله وطاعةً له، ويبادر إليها في الليل تقرباً إلى الله وطاعة له، فما تركها إلا بأمر ربه، ولا عاد إليها إلا بأمر ربه، فهو مطيع له في الحالين، ولهذا نهى عن الوصال في الصيام، فإذا بادر الصائم إلى الفطر تقرّباً إلى مولاه، وأكل وشرب وحمد الله، فإنه يُرجى له المغفرة أو بلوغ الرضوان بذلك، وفي الحديث «إن الله يرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»، وربما استجيب دعاؤه عند ذلك كما جاء في الحديث المرفوع الذي خرّجه ابن ماجه: «**إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد**»[1]، وإن نوى بأكله وشربه تقوية بدنه على القيام والصيام كان مُثاباً على ذلك، كما أنه إذا نوى بنومه في الليل والنهار التقوي على العمل كان نومه عبادة، وفي حديث مرفوع: «**نوم الصائم عبادة**»[2].

قالت حفصة بنت سيرين: قال أبو العالية: الصائم في عبادة ما لم يغتب أحداً، وإن كان نائماً على فراشه، فكانت حفصة تقول: «يا حبذا عبادة وأنا نائمة على فراشي» خرّجه عبد الرزاق[3].

---

(١) رواه ابن ماجة، كتاب الصيام، باب في الصائم لا تُرد (ص٢٤٩ ـ رقم ١٧٥٣).
(٢) الحلية (٥/ ٨٣).
(٣) المصنف (٤/ ٣٠٧).

فالصائم في ليله ونهاره في عبادة، ويستجاب دعاؤه في صيامه وعند فطره فهو في نهاره صائم صابر، وفي ليله طاعم شاكر، وفي الحديث الذي خرّجه الترمذي وغيره[١]: «**الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر**» ومن فهم هذا الذي أشرنا إليه لم يتوقف في معنى فرح الصائم عند فطره، فإن فطره على الوجه المشار إليه من فضل الله ورحمته فيدخل في قول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، ولكن شرط ذلك أن يكون فطره على حلال، فإن كان فطره على حرام كان ممن صام عما أحلّ الله وأفطر على ما حرم الله، ولم يُستجب له دعاء».

والآن بعد أن ذكرنا فرح الصائم بفطره، أُعرِّج بذكر أسباب السعادة لنجتهد جميعاً في تحصيلها، فجماعها هو:

١ ـ التوحيد: وعلى حسب كماله وقوته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه، ومنها: النور الذي يقذفه الله في قلب العبد، وهو نور الإيمان، فإنه يشرح الصدر ويُوسعُه، ويُفرح القلب، فإذا فُقد هذا النور من قلب العبد ضاق وحرج، وصار في أضيق سجن وأصعبه.

فعن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً: «**إذا دخل النور القلب انفسح**

---

(١) كتاب صفة القيامة، باب حديث «الطاعم الشاكر»، (ص٥٦٦ ـ رقم ٢٤٨٦).

وانشرح، قالوا: وما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: «**الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت**»[(١)].

فيصيب العبد من انشراح صدره بحسب نصيبه من هذا النور، وكذلك النور الحسي والظلمة الحسية، هذه تشرح الصدر، وهذه تضيّقه.

٢ ـ العلم: فإنه يشرح الصدر، ويُوسِّعه حتى يكون أوسع من الدنيا، والجهل يُورثه الضيق والحصر والحبس، فكلما اتسع علم العبد، انشرح صدره واتسع، والعلم الذي يجلب السعادة ويُوجب انشراح الصدور هو العلم النافع.

٣ ـ محبة الله: للمحبة تأثير عجيب في انشراح الصدر، وطيب النفس، ونعيم القلب، لا يعرفه إلا من له حسّ به، وكلما كانت المحبة أقوى وأشدّ كان الصدر أفسح وأشرح.

٤ ـ الكرم: فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدراً، وأطيبهم نفساً وأنعمهم قلباً، والبخيل الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدراً وأنكدهم عيشاً وأعظمهم همّاً وغمّاً، وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلاً للبخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جُنّتان من حديد، كلما همّ المتصدق بصدقة اتسعت عليه وانبسطت حتى يجرَّ ثيابه ويُعْفى أثره، وكلما همّ البخيل بالصدقة لزمت كل حلقة مكانها، ولم تتسع عليه[(٢)].

---

(١) ساق الحافظ ابن كثير رحمه الله طرق هذا الحديث عند قوله تعالى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ثم قال: «فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً». تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٣٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب مثل البخيل والمتصدق (ص٢٣٣ ـ رقم ١٤٤٣)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب مثل المنفق والبخيل (ص٤١٢ ـ رقم ٢٣٥٩).

٥ ـ إخراج دغل القلب من الصفات المذمومة التي تُوجب ضيقه وعذابه، وتحول بينه وبين حصول البرء، فإن الإنسان إذا أتى الأسباب التي تشرح صدره، ولم يُخرج تلك الأوصاف المذمومة من قلبه، لم يحظ من انشراح صدره بطائل، وغايته أن يكون له مادتان تعتوران على قلبه، وهو للمادة الغالبة عليه منهما.

٦ ـ ترك فضول النظر والكلام والاستماع والمخالطة والأكل والنوم، فإن هذه الفضول تستحيل آلاماً وغموماً وهموماً في القلب، تحصره وتحبسه وتُضيّقه، ويتعذب بها، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها.

٧ ـ العمل الصالح والإيمان، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

٨ ـ الإيمان بالقضاء والقدر: قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ [الحديد: ٢٢ ـ ٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ [التغابن: ١١].

وفي صحيح مسلم من حديث صُهيب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له»**(١)، قال النبي ﷺ: **«ما**

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد، باب المؤمن أمره كله خير (ص١٢٩٥ ـ رقم ٧٥٠٠).

أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك»(١).

فالمؤمن يحتسب الأجر فيما يصيبه، والكافر لا يُفكر إلا في الخلاص منها فقط، فالآلام تصيب المؤمن والكافر، والبر والفاجر قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

٩ ـ الاشتغال بالأمور النافعة: فإنها تُلهي القلب عما يُقلقه، فمن الأدوية الناجعة نسيان السبب الذي يُكدر ويُقلق، والاشتغال بالأعمال المهمة.

قال أبو محمد بن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا نام المرء خرج عن الدنيا ونسي كل سرور وكل حزن، فلو رتّب نفسه في يقظته على ذلك لسعد السعادة التامة»(٢).

١٠ ـ اجتماع الفكر كله على الاهتمام بعمل اليوم: فيكون العبد ابن يومه يجمع قلبه على إصلاح يومه، قال تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١].

١١ ـ توطين النفس على تقدير أسوأ الاحتمالات: فإن توطين النفس على احتمال المكاره يهوّنها ويزيل شدتها، خصوصاً إذا أشغل نفسه بمدافعتها بحسب مقدوره.

١٢ ـ مجاهدة النفس على تجديد قوته المقاومة للمكاره، مع اعتماده على الله وحسن الثقة به.

١٣ ـ التوكل على الله: فالمتوكل على الله قوي القلب لا تؤثر فيه

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٤٤١).

(٢) مداواة النفوس ص١٤.

المكدرات، واثق بالله مطمئن القلب، يتمثل قوله تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

١٤ ـ شغل القلب بالله وحده: قال أبو محمد عبد الله بن أبي جمرة رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال بعض أهل التوفيق: إذا نزلت بي نازلة من أي نوع، كانت المهمة فيها إلى الملجأ، فلا أبالي بها»[(١)].

١٥ ـ أن توطّن نفسك على أن لا تطلب الشكر إلا من الله، فلا تبال بمن لم يشكرك على معروفك، لأن معروفك ومعاملتك وإحسانك للخلق إنما هي مع الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

١٦ ـ توطين النفس على المزعجات الكبيرة والتافهة: فبعض ذوي الهمم العالية يوطّنون أنفسهم عند وقوع الكوارث والمزعجات على الصبر والطمأنينة، لكن عند الأمور التافهة البسيطة يقلقون، فالحازم يوطّن نفسه على الأمور القليلة والكبيرة.

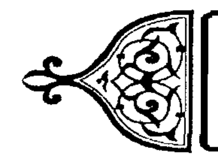
١٧ ـ ترك الالتفات إلى الناس: فإن هذا من أعظم ما يريح النفوس، قال خالد بن معدان الكلاعي: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى الناس في جنب الله أمثال الأباعر، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أحقر حاقر[(٢)].

---

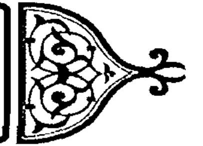
(١) بهجة النفوس: ٢/ ٧١.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٥٣٩، وكثير من هذه الأسباب ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في زاد المعاد (٢/ ٢٣ ـ ٢٨)، وابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في الوسائل المفيدة للحياة السعيدة.

الدرس الثامن



عمارة الوقت



من دروس رمضان الواضحة الجليّة هو اغتنام الوقت بالطاعات، حيث إنك ترى أهل الخير نهارهم صيام، وليلهم قيام، يغتنمون كل فرصة في قراءة القرآن وطاعة الرحمن، فلو استمر الناس على هذه الحال من ترتيب يومهم في ملازمة الطاعات لأدركا خيراً كثيراً.

ولعل الإنسان إذا تأمل في حقائق مضاعفة الحسنات عموماً للمسلمين وهو من خصائص هذه الأمة كما قال القرافي، ولاحظ أيضاً مضاعفتها أكثر في رمضان خصوصاً ليلة القدر علم سر ذلك، وهو أن هذه الأمة أعمارها قصيرة بالنسبة لسائر الأمم فجعل الله لها عوضاً في ذلك وهو مضاعفة حسناتها، فليلة القدر وهي ليلة واحدة العمل الصالح فيها يعدل عمل اثنتين وسبعين سنة مما سواها.

ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك**»[١].

---

(١) رواه الحاكم (٤/٣٠٦) وصحّحه ووافقه الحافظ الذهبي.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**سدّدوا وقاربوا، ولا يتمنَّينَ أحدُكم الموت إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً، وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب**».

قال الحافظ ابن حجر ﷺ: «فيه إشارة إلى أن المعنى في النهي عن تمني الموت والدعاء به هو انقطاع العمل بالموت، فإن الحياة يتسبب منها العمل، والعمل يحصل زيادة الثواب، ولو لم يكن إلا استمرار التوحيد فهو أفضل الأعمال، ولا يرد على هذا أنه يجوز أن يقع الارتداد والعياذ بالله تعالى عن الإيمان لأن ذلك نادر، والإيمان بعد أن تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد، وعلى تقدير وقوع ذلك ـ وقد وقع لكن نادراً ـ فمن سبق له في علم الله خاتمة السوء فلا بد من وقوعها طال عمره أو قصر، فتعجيله بطلب الموت لا خير له فيه، ويؤيده حديث أبي أمامة ﷺ أن النبي ﷺ قال لسعد: «**يا سعد إن كنت خلقت للجنة فما طال من عمرك أو حسن من عملك فهو خير لك**» أخرجه بسند لين، ووقع في رواية همام عن أبي هريرة ﷺ عند أحمد ومسلم: «**وأنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً**»، واستشكل بأنه قد يعمل السيئات فيزيده عمره شراً، وأجيب بأجوبة: أحدها حمل المؤمن على الكامل، وفيه بعد. والثاني: أن المؤمن بصدد أن يعمل ما يُكفر ذنوبه إما من اجتناب الكبائر، وإما من فعل حسنات أخر قد تقاوم بتضعيفها سيئاته، وما دام الإيمان باق فالحسنات بصدد التضعيف، والسيئات بصدد التكفير»[1].

(١) فتح الباري: ١٠/ ١٣٠ ـ ١٣١.

وكذلك يتفاضل الناس في الدار الآخرة بسبب ما فضّل الله به بعضهم على بعض من زيادة الأعمال الصالحة التي قاموا بها لما عُمّروا أكثر من غيرهم.

فعن عبيد بن خالد ﷺ - وكان من أصحاب النبي ﷺ - قال: «آخى النبي ﷺ بين رجلين فاستُشهد أحدهما، وبقي الآخر بعده عاماً، ثم مات فاتّبعنا جنازته، ومعنا نبي الله ﷺ، فجعلنا ندعو الله ونرغب إليه أن يُلحقه بصاحبه!

فقال النبي ﷺ: «**أيهما تعدُّون أفضل**»؟ فقلنا: الله ورسوله أعلم!

ثم قلنا: الشهيد أفضلهما! فقال النبي ﷺ: «**ألا تعدون لهذا فضيلته: صلاته، وعمله بعد عمله! لما بينهما أبعدُ مما بين السماء والأرض**»[1].

فهذان رجلان كل واحد منهما قضى نحبه ووافى ربه بأعمال صالحة، ومنزلة من قُتل شهيداً في سبيل الله دون منزلة الآخر الذي عمّر أكثر منه بعام فقط.

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله: «والذي فيه من ذلك الإبانة عن فضل صالح الأعمال، وأن الفاضل من الناس إنما يفضل غيره بفضل زيادة أعماله الصالحة على عمل من فضَّلَهُ، وذلك أن النبي ﷺ لما ذُكر له أمر الرجلين اللذين استشهد أحدهما وعاش

---

(١) رواه أحمد (١/ ١٦٣) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم ٨٣٨، وابن ماجة (٢٩٨٩ - ٣٩٢٥)، وصحّحه ابن حبان، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (رقم ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩).

الآخر بعده سنة، قال في الذي عاش بعد صاحبه: «**أليس قد أدرك رمضان وصامه، وصلى كذا وكذا سجدة**»، فلما قالوا له: بلى!

قال: «**فلما بينهما أبعد مما بين السماء والأرض**»!»[(١)].

وعن ابن عباس ﷺ قال: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»[(٢)].

قال العلامة عبد الحميد بن باديس رحمه الله: «إن كثيراً من الناس يكونون في صحة من أبدانهم وفراغ من أشغالهم، ولا يعمرون أوقاتهم الفارغة بطاعة الله، ولا يستعملون أبدانهم الصحيحة فيها، فتضيع عليهم تلك الأوقات، وتلك الصحة باطلاً فيخسرونهما، ولا يستفيدون منهما فيكون ما خسروه منهما نقصاً في حظهم من حياتهم، وإذا كانت الحياة هي أغلى شيء عند الإنسان يحافظ عليه، ولا يبذل شيئاً منه إلا بحقه، فهؤلاء الذين نقصوا حظهم في حياتهم هم أعظم المغبونين.

فعمر الإنسان أنفس كنز يملكه، ولحظاته محسوبة عليه، وكل لحظة ثمرة معمورة بعمل مفيد، فقد أخذ حظه منها وربحها، وكل لحظة تمرّ فارغة، فقد غُبن حظه منها وخسرها. وكذلك بدنه فهو أنفس آلة عنده، وإنما فائدة الآلة بالعمل، فإذا كانت الآلة في عمل فهو ربح وزيادة، وإذا كانت في بطالة فهو في نقص وخسران، فالرشيد الرشيد هو من أحسن استعمال ذلك الكنز الثمين، وتلك الآلة العظيمة، فعمّر وقته بالأعمال، وداوم على استعمال ذاته فربحهما،

---

(١) تهذيب الآثار: الجزء المفقود ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣.
(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب الصحة والفراغ (ص١١١٣ ـ رقم ٦٤١٢).

والسفيه السفيه من أساء التصرف فيهما فأخلى وقته من العمل، وعطّل ذاته عن الشغل فخسرها.

ولما كان الإنسان مضطراً إلى السعي في معاشه فيشغله ذلك عن وجوه الطاعات، من العلم ونوافل الصلاة والصوم والحج وغيرها، ومعرّضاً للأمراض فتمنعه منها، ولكنه لا يخلو من حالة يكون فيها فارغاً من الشغل لمعاشه، ومعافى من المرض في بدنه، ذكّره هذا الحديث الشريف بما عليه في هذه الحالة من المحافظة عليها وعمارتها بالطاعات حتى لا يخسرها وتنقص من عمره بلا فائدة فيكون مغبوناً فيها.

فإذا عمَّر الإنسان وقت فراغه من الكد لعيشه، بطاعة من طاعات الله واستعمل بدنه مغتنماً فرصة صحته فيها، ثم عرض شغل من أشغال عيشه فقطعه عنها، أو طرأ عليه مرض فمنعه منها ونيته المداومة على تلك الطاعة لولا الشاغل والمانع، فإنه يكتب له في شغله وفي مرضه ثواب ما كان يعمله في صحته وفراغه، ومن الدليل على ذلك حديث البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ﷺ سمعت أبا موسى مراراً يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إذا مرض العبد أو سافر كُتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً**»[1]، والسفر نوع من الشغل.

وإذا كان المؤمن عاملاً في طاعة الله تعالى أيام صحته وفراغه، ثم مرض فإن له أجرين، أجراً على ما كان يعمل في صحته بدليل ما تقدم، وأجراً على مرضه لقوله ﷺ: «**ما يصيب المسلم من نصب ولا**

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب يُكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة (ص٤٩٥ ـ رقم ٢٩٩٦).

وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يُشاكها إلا كفّر الله بها من خطاياه»[١].

وكذلك إذا شُغل بالسعي على نفسه أو على العيال فإن له أجرين: أجر ما شُغل عنه، وأجر سعيه على عياله، وأدلة ثواب الساعي على عياله كثيرة منها حديث الرجل الذي رأى الصحابة ﷺ من جلده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «**إن خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفّها فهو في سبيل الله**» [رواه الطبراني بسند صحيح].

ومثله من شُغل بطاعة عن طاعة كمن شُغل بالرباط عن نافلة الحج مثلاً، لأنه إذا كان المشغول بالسفر المأذون فيه يُكتب له ما كان يعمله مقيماً لأن نيته المداومة لولا عارض السفر، فالمشغول بالطاعة عن طاعة كان ينوي فعلها لولا عروض الطاعة الأخرى أحرى وأولى». انتهى كلام ابن باديس[٢].

وصدق والله رحمه الله، فيا فوز من لا تعرف جوارحه إلا الطاعة، ويا ربح من شغلته الطاعة عن الطاعة لا المعصية، وصدق الله عز وجل إذ يقول في الحديث القدسي: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته خير ما أعطي السائلين»[٣].

(١) رواه البخاري، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض (ص٩٩٩ ـ رقم ٥٦٤١)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه (ص١١٢٨ ـ رقم ٦٥٦٨).
(٢) ابن باديس، حياته وآثاره (٢/ ١٧٣ ـ ١٧٥).
(٣) رواه الترمذي، كتاب فضائل القرآن (ص٦٥٧ ـ رقم ٢٩٢٦).

والعاقل لا شك أنه لا يدري ما يعرض له في هذه الدنيا، ولا يضمن كرات القدر، ولا يدري متى ينزل به الموت فيبادر لإصلاح ما بقي من عمره، قال ابن المبارك رحمه الله: «إن البصراء لا يأمنون من أربع: ذنب قد مضى لا يُدْرى ما يصنع فيه الرب عز وجل، وعمرٍ قد بقي لا يُدْرى ما فيه من الهلكة، وفضل قد أُعطي العبد له مكر واستدراج، وضلالة قد زُيِّنت يراها هدى، وزيغ قلب ساعة، فقد يُسلب المرء دينه ولا يشعر»[(١)].

وقال العلامة ابن مفلح رحمه الله: «واعلم أن الزمان أشرف من أن يضيع منه لحظة، فكم يضيع الآدمي من ساعات يفوته فيها الثواب الجزيل، وهذه الأيام مثل المزرعة، وكأنه قد قيل للإنسان كلما بذرت حبة أخرجنا لك ألفاً، هل ترى يجوز للعاقل أن يتوقف عن البذر أو يتوانى»[(٢)].

وأحوال السلف في عمارة أوقاتهم بالطاعة عجيبة تبعث على التأسي بهم، فهذا أبو حامد الإسفراييني: «كان لا يخلو له وقت عن الاشتغال حتى إنه كان إذا برى القلم قرأ القرآن أو سبّح، وكذلك إذا كان ماراً في الطريق»[(٣)].

وهذا أبو نعيم الأصبهاني رحمه الله يقول عنه أحمد بن محمد بن مردويه: «كان حفاظ الدنيا قد اجتمعوا عنده، فكان كل يوم نوبة واحد منهم يقرأ ما يريده إلى قريب الظهر، فإذا قام إلى داره، ربما

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٨/٤٠٦.
(٢) الآداب الشرعية: ٢/٥٤٤.
(٣) مسالك الأبصار: ٦/٢٤٧ ـ ٢٤٨.

كان يُقرأ عليه في الطريق جزءٌ، وكان لا يضجر، لم يكن له غداء سوى التصنيف والتسميع»[١].

وكذلك داود الطائي كان يستف الفتيت، ويقول: بين سفّ الفتيت وأكل الخبز قراءة خمسين آية[٢].

وأوصى بعض السلف أصحابه، فقال: إذا خرجتم من عندي فتفرقوا؛ لعل أحدكم يقرأ القرآن في طريقه، ومتى اجتمعتم تحدثتم[٣].

وقال موسى بن إسماعيل في حماد بن سلمة: «إنه كان مشغولاً بنفسه، إما أن يُحدّث وإما أن يُصلي، وإما أن يقرأ، وإما أن يُسبِّح، كان قد قسم النهار على هذه الأعمال»[٤].

وهذا عبد الله بن وهب يقول: «حفظت موطأ مالك، ما بين مصر إلى المدينة»[٥].

وهذا محمد بن عبد الباقي حفيد كعب بن مالك الأنصاري الصحابي ﷺ يقول: «ما أعلم أني ضيَّعت من عمري شيئاً في لهو أو لعب، وما من علم إلا وقد حصّلت بعضه أو كله»[٦].

ومن أمثلة تعظيم السلف للوقت، ما ذكره أبو جعفر بن أبي

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٧/ ٤٥٩.
(٢) الآداب الشرعية: ٢/ ٥٤٤.
(٣) الآداب الشرعية: ٢/ ٥٤٤.
(٤) تهذيب الكمال: ٧/ ٢٦٥.
(٥) إتحاف السالك ص١٤١.
(٦) الذيل على طبقات الحنابلة: ١/ ١٩٤.

حاتم، عن الإمام البخاري: «إنه استلقى على قفاه يوماً، ونحن بـ«فربر» في تصنيف كتاب «التفسير»، وكان قد أتعب نفسه في ذلك اليوم في كثرة إخراج الحديث، فقلت له: يا أبا عبد الله! سمعتك تقول يوماً: إني ما أتيت شيئاً بغير علم قط منذ عقلتُ، قلت: وأي علم في هذا الاستلقاء؟ قال: أتعبنا أنفسنا في هذا اليوم، وهذا ثغرٌ من الثغور، خشيت أن يَحْدُث حَدَثٌ من أمر العدو، فأحببت أن أستريح، وآخذ أهبة ذلك، فإن غافصنا العدو كان بنا حراك»[١].

فانظر إلى هذا الإمام المحدث الجهبذ راحته واستلقاءه في الجهاد شغله بمذاكرة، يا لها من نفوس زكية وهمم عليّة.

وكان السلف يتخذون من يُشاغلهم عن الطاعة أعداء، وصدقوا والله لأنهم يقطعونهم عن الله.

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من شغلكم عن الله فهو عدوٌ لكم، فعلى هذا فقاتلوا»[٢].

وقال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ساق قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٢][٣]: «وخسران الناس: أي غبنهم في حظوظهم من ربهم (جل وعلا). ذكرنا في هذه الدروس مراراً أنه جرت عادة بعض العلماء في أن يضربوا له مثلين يبين بهما حقيقته:

(١) تحفة الإخباري بترجمة البخاري ص٢٠٦.
(٢) الفوائد والأخبار والحكايات لأبي علي الهمذاني ص١٤٨ ـ رقم٤٧.
(٣) العذب النمير (٤/ ١٧١١ ـ ١٧١٣)، ط ـ دار ابن القيم.

المثل الأول: قالوا: إن كل إنسان معمّر أعطاه الله (جل وعلا) رأس مال، ورأس هذا المال هو الجواهر الذي لا يزنها في الدنيا شيء، ولا يقوم مقامها شيء، وهي رأس مال كل إنسان. ونعني بهذه الجواهر: ساعات العمر وأيامه، لأن رأس مال الإنسان هو ساعات عمره وأيامه، وهذا هو أنفس شيء وأعظم شيء يُعطى للإنسان، وهو رأس ماله، وكما أن الله لما جعله رأس ماله، وكما أن الله لما جعله رأس ماله جعله أخا الرسول أيضاً في إقامة الحجة عليه به حيث قال: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: آية٣٧]، فإذا كان الإنسان المُعمّر ـ سواءٌ عُمِّر تعميراً طويلاً أو غيره كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر: آية١١]، فإن كان هذا المُعمّر ـ حاذقاً لبقاً يعرف كيف يحرك رؤوس الأموال، وكيف يستفيد منها، حرّك رأس هذا المال ـ أعني ساعات عمره وأيامه حركها ـ فيما يرضي الله، فراقب اللحظات والأيام والليالي والدقائق والثواني لئلا يضيع شيء منها في غير طاعة الله، فنظر الأوقات التي تتوجه فيها أوامر من ربه ـ كأوقات الصلاة وأوقات الحج، وغير ذلك من المطلوبات التي لها أوقات تتوجّه عند وجودها ـ فقام لله بذلك أحسن قيام، ثم إنه في الأوقات التي لا تتوجه بها وظائف من رب العالمين، وأوامر معينة يكفُّ شرَّه ويخاف الله (جل وعلا)، ويستكثر من الخير ما استطاع، فإذا حرّك هذا رأس هذا المال هذا التحريك العظيم واتّجر مع رب العالمين هذه التجارة الرابحة ربح منها مُلكاً لا ينفد، ربح منها الحور العين، والجنات، والولدان، ومجاورة رب غير غضبان، والنظر إلى وجه الله الكريم. وقد سمى

الله تحريك رأس هذا المال معه (جل وعلا) على الوجه الذي ذكرنا سمَّاه (بيعاً) وسماه (شراء)، وسماه (تجارة)، وسماه (قرضاً)، لأن صاحبه حرّك رأس ماله ـ وهو أيام عمره ـ تحريكاً حسناً لائقاً، ولذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١١]. فصرح بأن ذلك تجارة مع الله، وقال جل وعلا: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]، وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]. وقال جلا وعلا: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فإذا كان صاحب رأس هذا المال المسكين رجلاً أحمق لا يعرف حقائق الأشياء، ولم يتنور باطنه بنور الوحي، لم يعرف قيمة رأس هذا المال، ولا قدّر هذه الجواهر التي أعطاه الله فضيّعها في قال وقيل، ولم يكتسب منها شيئاً حتى ينتهي الأجل المحدد له فيُجر إلى القبر وهو صفر الكفين، والآخرة أيها الإخوان دار لا تصلح للمفاليس، لا تصلح للفقراء، لأنّ ليس فيها إرفاق، ولا عارية، ولا صدقة، ولا خلّة، ليس فيها للإنسان إلا ما قدَّمه من عمله، فلا ينبغي للإنسان أن يقدم عليها مفلساً، فيجب على المسلمين كُلاًّ أن يحترموا رأس هذا المال.

إذا كان رأسُ المالِ عمركَ فاحترزْ عليه من الإنفاق في غير واجب

فلا ينبغي للمسلم أن يضيع أوقات عمره في لعب الأوراق، وفي قيل وقال، فإن هذا فعل السفهاء، ولا يدري في أي وقت يموت. وأنا أؤكد لكم كل التوكيد أنه إن مات ندم غاية الندم بعد فوات الفرصة

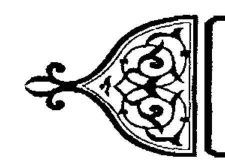
على ضياع هذه الأعلاق النفيسة، والجواهر الثمينة ـ التي هي أيام عمره ـ في قيل وقال، ولعب أوراق، وربما كان ضيّعه في أشياء لا ترضي من خلقه (جل وعلا).

فهذا لا ينبغي، فعلينا معاشر المؤمنين أن نعرف قدر رأس مالنا، وأن نُقدِّر أعمارنا، ونعرف قصرها، ولا ندري في أي وقت تنخرم كما سيأتي قوله في هذه السورة: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف:١٨٥]، فلا نضيّعه فيما لا يعني كألعاب الأوراق، والمجون والعبث، وغير ذلك مما لا يفيد، فهذا فعل السفهاء، وسيعلم صاحبه إذا انتهى إلى ربه أنه فعل السفهاء الذي لا يُجدي، فعليه أن يكفّ عنه، ويكون رجلاً جديّاً، ويصدق المعاملة فيما بينه وبين ربه (جل وعلا)، ولا يترك أوقاته تضيع هدراً، لأن هذا تضييع لجواهر عظيمة، وأعلاق نفيسة، لا يعرف قدرها إلّا من علمه الله ذلك».

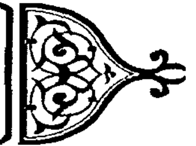




الدرس التاسع



شهر القرآن



لا شك أن اختصاص القرآن برمضان ظاهر جداً، فابتداء نزول القرآن كان في رمضان كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وكذلك جبريل كان يُدارس النبي ﷺ القرآن في كل عام في رمضان، وفي السنة التي قُبض فيها دارسه القرآن مرتين مبالغةً وزيادةً وتأكيداً في حفظه.

والنبي ﷺ وأصحابه من بعده قاموا بالقرآن ليالي رمضان، وقال النبي ﷺ: «**من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه**»[(١)]. متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهنا لا بد أن نتأمل في أحوالنا، ونلتفت إلى أنفسنا هل عنايتنا بالقرآن عناية من يعرف حقيقته ويقدره حقّ قدره؟!

فالناس يتفاضلون في تقدير النفائس قدرها، فهذا أبو بكر الصديق

---

(١) رواه البخاري، كتاب صلاة التراويح، باب فضل من قام رمضان (ص٣٢٢ ـ رقم ٢٠٠٨)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان (ص٣٠٨ ـ رقم ١٧٧٩).

وعمر الفاروق رضي الله عنهما لما أقبلا إلى أم أيمن رضي الله عنها يزورونها بعد وفاة النبي ﷺ ورأتهم مقبلين بكت رضي الله عنها ، فقالا لها: تبكين! أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسوله، قالت: أما إني أعلم أن ما عند الله خير لرسوله، ولكني أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء(١).

فهذه هي أحوال من قدّروا القرآن حق قدره، ولذلك كان النبي ﷺ يغرس في نفوس أصحابه الفضل الحقيقي في قراءة القرآن، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في الصُفَّة، فقال: «**أيكم يُحبُّ أن يغدو كل يوم إلى بُطحان أو العقيق فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطع رحم؟**» فقلنا: يا رسول الله كلنا يُحب ذلك، قال: «**أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم، أو فيقرأ آيتين من كتاب الله خير له من ناقتين، وثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل**»(٢).

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه**»(٣).

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله هذا الكتاب، فقام به آناء الليل وآناء**

---

(١) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أم أيمن رضي الله عنها (ص١٠٧٩ ـ رقم ٦٣١٨).

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة (ص٣٢٤ ـ رقم ١٨٧٣).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (ص٣٢٥ ـ رقم ١٨٧٤).

النهار، ورجل أعطاه الله مالاً فتصدَّق به آناء الليل وآناء النهار»[١].

وكفى أهل القرآن شرفاً أنهم أهل الله وخاصته، فعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله أهلين من الناس**» قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «**أهل القرآن، هم أهل الله وخاصته**»[٢].

وحفظ القرآن من أسباب النجاة من النار، فقد روى أحمد والدارمي من حديث عقبة بن عامر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لو كان القرآن في إهاب ما مسّته النار**»، قال الإمام أحمد ﷺ: «يُرجى لمن القرآن محفوظ في قلبه أن لا تمسه النار»[٣].

وحفظ القرآن سبب الرفعة في الدنيا والآخرة، قال عمر بن الخطاب ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يرفع بهذا القرآن أقواماً ويضع به آخرين**»[٤].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً وهم ذو عدد فاستقرأهم، فاستقرأ كل رجل منهم، يعني ما معه من القرآن، فأتى على رجل من أحدثهم سناً، فقال: «**ما معك يا فلان؟**» قال: معي كذا

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب اغتباط صاحب القرآن (ص٩٠٠ ـ رقم ٥٠٢٥)، ورواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن (ص٣٢٨ ـ رقم ١٨٩٤).
(٢) رواه الحاكم (١/ ٥٥٦)، وابن ماجة، كتاب السُّنَّة، باب فضل مَن تعلَّم القرآن (ص٣٣ ـ رقم ٢١٥)، وصحَّحه البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ٧٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (ص٢٨٨ ـ رقم ٢١٢١).
(٣) شرح السُّنَّة للبغوي (٤/ ٤٣٧). .
(٤) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل مَن يقوم بالقرآن ويعلِّمه (ص٣٢٩ ـ رقم ١٨٩٧). .

وكذا، وسورة البقرة، فقال: «**أمعك سورة البقرة؟**». قال: نعم، قال: «**اذهب فأنت أميرهم**»[(١)].

فالقرآن حياة القلوب كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، هذا القرآن جعله الله شفاء للصدور من أمراض الشهوات والشبهات، ومن الضيق والحرج، فتنشرح الصدور بتلاوته ويدخلها نور الإيمان وتنصبغ القلوب بصبغة الوحي، فتشرق القلوب وتحيا، ثم تُخبت وتلين فتنقاد لأوامر الله وتكاليفه، وتسعد بها وتفرح، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فلا فرح عند المسلم أعظم من فرحه بكتاب ربه الذي يذكر ربه به، وتتهذب أخلاقه به، ويتقوم سلوكه بلزوم أوامره واجتناب نواهيه، وتنتظم به شؤون حياته كلها دقيقها وجليلها على أحسن سلوك ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍۚ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وتنتظم به منهجية المجتمع المسلم ككل، فالقرآن مصدر تشريعها، أحكام ربانية، كلها عدل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

---

(١) رواه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في سورة البقرة (ص٦٤٧ ـ رقم ٢٨٧٦)، وحسّنه وصححه ابن حبان (٣/ ٢٨٤ ـ رقم ٢١٢٣).

[الأنعام: ١١٥]، أخباره وأحكامه كلها متفقة ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

قلوب المؤمنين مطمئنة لأحكام الله لأن إيمانهم حقيقي لا ريب فيه كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [النور: ٦٢]، وذلك لأنهم يوقنون تماماً بأن الله هو الأعلم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، ويوقنون تماماً بأن هذا القرآن كما نعته الله ﴿وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢]، فلذلك يجعلون القرآن حاكماً على أهوائهم لا محكوماً عليه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ﴾ [الحجرات: ١].

فالمؤمنون يتخلقون بأخلاق القرآن كما فعل قدوتهم وأسوتهم رسول الله ﷺ، قالت عائشة رضي الله عنها تصف خلق النبي ﷺ بقولها: «كان خُلقه القرآن»(١). قال أبو المظفر السمعاني رحمه الله: «أي كان موافقاً لما نزل به القرآن»، وقال الأوزاعي رحمه الله: «لم يزل الله نصاحاً من خلقه في أرضه، يعرضون أعمال العباد على القرآن، فبالقرآن يعرفون هدي من اهتدى، وضلالة من ضلّ، أولئك خلفاء الله عز وجل في أرضه»(٢).

وقال الإمام أحمد رحمه الله: «فمن أولى بحسن الخلق من قارئ القرآن، ومن أولى بالنصفة من نفسه من قارئ القرآن، ومن أولى ببر الوالدين من قارئ القرآن، ومن أولى بأداء الفرائض كلها من قارئ

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل (ص٣٠١ ـ رقم ١٧٣٩).
(٢) الحجة على تارك المحجة: ٢/ ٥١٠.

القرآن؟ لأن الدليل معه، فإن قبل منه لم يخطئه باب الجنة، ويُوشك أن لا يفعل لأن الله عز وجل يقول: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، قال: هذا أُريد، أنظر إلى هذا أزدري به، وأنظر إلى هذا أستعظمه، وأنظر إلى محارم المسلمين فأتلذذ بالنظر، فإذا فعل فقد عصى الدليل»[١].

والناس في هذا بين مستكثر ومُقلّ، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هجر القرآن أنواع: أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه. والثاني: هجرُ العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به. والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به.

وكل هذا داخل في قوله ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض.

وكذلك الحرج الذي في الصدور منه، فإنه تارة يكون حرجاً من إنزاله وكونه حقاً من عند الله، وتارة يكون من جهة التكلم به.

وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها وأنه لا يكفي العباد، بل هم محتاجون معه إلى المعقولات والأقيسة أو الآراء أو السياسات.

وتارة يكون من جهة دلالته وما أُريد به من حقائقه المفهومة منه عند الخطاب، أو أريد به تأويلها وإخراجها عن حقائقها إلى تأويلات مستكرهة مشتركة.

---

(١) الحجة على تارك الحجة: ٢/٥٠٩.

وتارة يكون من جهة كون تلك الحقائق وإن كانت مرادة فهي ثابتة في نفس الأمر أو أُوهم أنها مرادة لضرب من المصلحة.

فكل هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن وهم يعلمون ذلك من نفوسهم ويجدونه في صدورهم، ولا تجد مبتدعاً في دينه قط إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تخالف بدعته، كما أنك لا تجد ظالماً فاجراً إلا وفي صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته، فتدبّر هذا المعنى، ثم ارْضَ لنفسك بما تشاء»(١).

وكم من ميت غارق في الضلالة والغواية سمع آيةً من كتاب الله فوقعت في قلبه موقعها فأيقظته من سنته، وأخرجته من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن ضيق الصدر إلى انشراحه، وبدأ يحيا حياةً جديدةً حقيقةً يستضيء بنور الوحي والهدى، وصدق الله إذ يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقد سمع هذه الآية شاب من اليمن، فقال: «بل على قلوب أقفالها فيفتحها الله»(٢).

فافتحوا قلوبكم وارعوا أسماعكم لكتاب الله تُفتح الأقفال ويلج نور القرآن إلى القلوب فتضيء وتشرق بنور الوحي، فيتغير الإنسان بعد ذلك ويحيا حياةً طيبة، قال ابن مسعود ﵁: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٤] فارعها سمعك فإما خير تؤمر به وإما شرٌ تنهى عنه»(٣).

قال ابن القيم ﵀: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند

(١) الفوائد ص١١٢ ـ ١١٣.
(٢) تفسير ابن كثير: ٧/ ٣٢١.
(٣) رواه ابن أبي حاتم، انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٢)، ط ـ مكتبة دار التراث ـ القاهرة.

تلاوته وسماعه، وألْقِ سمعك واحضُرْ حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطابٌ منه لك على لسان رسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مُقْتضٍ، ومحل قابل وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كلِّه بأوجز لفظٍ وأبينه وأدلّه على المراد.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ إشارة إلى ما تقدم من أول السورة ـ أي سورة ق ـ إلى ها هنا، وهذا هو المؤثر، وقوله تعالى: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩] أي حي القلب.

وقوله ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي وجَّه سمعه وأصغى حاسَّة سمعه إلى ما يُقال له، وهذا شرط التأثر بالكلام، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي شاهد القلب حاضر غير غائب، قال ابن قتيبة رحمه الله: «استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله، فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووُجد الشرطُ وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثرُ وهو الانتفاع والتذكر»(١).

وأمثلة من تغيّرت أحوالهم بسماع آية واحدة لا تُحصى كثرة، بل

(١) الفوائد ص١٣ ـ ١٤.

منهم من صار له أثر في حياة المسلمين إلى يومنا هذا، فحيا بحياته أمم، فهذا الصحابي جبير بن مطعم ﷺ أُسر في غزوة بدر وهو كافر، فسمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بسورة الطور، قال فلما قرأ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] قال: كاد يتصدع قلبي[(١)].

وهذا الفضيل بن عياض رحمه الله إمام الزهد، عباراته الوعظية ما زالت كلمات سائرة يتوارثها العلماء عنه، هذا الفضيل كان قاطعاً للطريق، فسمع قارئاً يقرأ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، فقال: بلى والله، قد آن، فكان ذلك مبدأ توبته.

فالخير كل الخير في الانتفاع بقراءة القرآن، وهذا لا يحصل إلا بالتدبر وإصغاء السمع للقرآن مع حضور القلب، ولا يحصل الانتفاع بالقرآن إلا إذا كان القلب زاكياً متطهراً من الدغل والخبائث، قال عثمان بن عفان ﷺ: «لو طهرت قلوبنا، لما شبعت من كلام الله».

قال ابن القيم رحمه الله معلِّقاً: «فالقلب الطاهر بكمال حياته ونوره وتخلُّصه من الأدران والخبائث لا يشبع من القرآن، ولا يتغذّى إلا بحقائقه، ولا يتداوى إلا بأدويته، بخلاف القلب الذي لم يطهره الله تعالى، فإنه يتغذى من الأغذية التي تناسبه، بحسب ما فيه من النجاسة، فإن القلب النجس كالبدن العليل، لا يلائمه الأغذية التي تُلائم الصحيح»[(٢)].

فالانتفاع من القرآن إنما يحصل بتدبره، والوقوف على معانيه، والعمل بما فيه، قال ابن شيخ الحزاميين رحمه الله: «يقرأ القرآن بتدبر

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة والطور (ص٨٥٩ ـ رقم ٤٨٥٤).
(٢) إغاثة اللهفان: ١/١١٨.

وتفهم، يفهم عن الله عز وجل مراده، كأنه يقرأ على الله عز وجلّ، أو يسمعه من الله عز وجل، فيتنبه لوعد الله ووعيده، وتخويفه وتحذيره، فإن لله عز وجل في كل كلمة معنى يقتضي بها من عباده عبوديةً خاصة، من خوف أو رجاء، أو ذكر أو تصديق، أو اتعاظ، أو محبة، أو شوق أو رغبة أو رهبة، أو قرب أو اتصال، فيفهم عن الله عز وجل مراده، ويقوم بما يقتضيه المعنى من العبودية، فيكون في ذلك كما قال عز وجل: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١]»(١).

وقال شيخنا محمد العثيمين رحمه الله معلقاً على قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]: «جعل التذكر بعد التدبر، لأنه لا يمكن أن يتّعظ الإنسان بالشيء إلا إذا عرف المعنى الذي يتضمّنه، فيتدبّر أولاً، ثم يتذكر ثانياً.

ففي المرحلة الأولى يقرأ الإنسان القرآن، وفي المرحلة الثانية يتدبّره لفهم معانيه، ثم المرحلة الثالثة: يتّعظ به، والاتّعاظ بالقرآن هو التأثر به في القلب والجوارح.

والتأثر بالقلب: إخلاص العبد لله، وإنابته إليه، وتوكله عليه، وما أشبه ذلك من أعمال القلوب.

وتأثر الجوارح: القيام بطاعة الله بالجوارح الظاهرة مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم وغير ذلك»(٢).

---

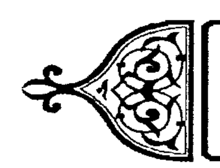
(١) مدخل أهل الفقه واللسان إلى ميدان المحبة والعرفان ص٦٩.

(٢) تفسير سورة ص، ص١٤٢ ـ ١٤٣.

الدرس العاشر



الجود والكرم والسخاء



رمضان مدرسة عظيمة يحرص المسلم أن يتأسى بأخلاق رسوله الكريم ﷺ الذي هو أسوة المؤمنين جميعاً كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

والنبي ﷺ جمع مكارم الأخلاق كلها كما نعته ربه سبحانه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ومن أظهر أخلاقه عليه السلام وأبرز صفاته وأوضح شمائله الكرم والجود والسخاء، وهذا الخلق واضح لكل أحد، للمسلم والكافر، حتى سار الركبان بقولهم: «إن محمداً يُعطي عطاء من لا يخشى الفقر».

وجوده عليه السلام في كل وقت وحين، إلا أن جوده في رمضان أظهر وأوضح.

كان النبي ﷺ أجود الناس، وإذا دخل رمضان كان أجود بالخير من الريح المرسلة.

وفي تضاعف جوده ﷺ في شهر رمضان بخصوصه فوائد كثيرة ذكرها ابن رجب رحمه الله، منها:

١ ـ شرف الزمان، ومضاعفة أجر العمل فيه.

٢ ـ إعانة الصائمين والقائمين والذاكرين على طاعاتهم، فيستوجب المعين لهم مثل أجرهم، وفي حديث زيد بن خالد الجهني عن النبي ﷺ قال: «**من فطّر صائماً فله مثل أجره غير أنه ينقص من أجر الصائم شيء**»[1].

٣ ـ إن شهر رمضان يجود الله فيه على عباده بالرحمة والمغفرة والعتق من النار لا سيما في ليلة القدر، والله تعالى يرحم من عباده الرحماء كما قال ﷺ، فمن جاد على عباد الله جاد الله عليه بالعطاء والفضل، والجزاء من جنس العمل.

٤ ـ إن الجمع بين الصيام والصدقة من موجبات الجنة كما جاء عن النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة غرفاً يُرى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها**»، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لمن طيّب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام**»[2].

٥ ـ إن الجمع بين الصيام والصدقة أبلغ في تكفير الخطايا واتقاء جهنم والمباعدة عنها، وخصوصاً إن ضُمّ إلى ذلك قيام الليل، ففي

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الصوم، باب ما جاء في فضل من فطّر صائماً (ص٢٠١ ـ رقم ٨٠٧)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجة، كتاب الصيام، باب في ثواب مَن فطّر صائماً (ص٢٤٩ ـ رقم ١٧٤٦)، وصحَّحه ابن حبان (٥/ ١٨١ ـ رقم ٣٤٢٠).

(٢) رواه أحمد (١/ ١٥٦)، والحاكم (١/ ٨٠)، وصحَّحه ابن حبان (١/ ٣٦٣ ـ رقم ٥٠٩).

حديث معاذ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل**»[١].

٦ ـ الصيام لا بد أن يقع فيه خلل أو نقص، وجبر هذا الخلل يكون بصدقة الفطر وأنواع الصدقات.

٧ ـ مواساة الفقراء من شكر الله على نعمه، فالصائم إذا ذاق طعم الجوع لم ينس إخوانه الفقراء والمساكين.

والجود والكرم ليس محصوراً ببذل المال، بل هو أنواع، منه: بذل المال، وبذل العلم، وبذل الجاه في الشفاعة للناس وقضاء حوائجهم وهكذا، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «وكان جوده عليه السلام بجميع أنواع الجود من بذل العلم، والمال، وبذل نفسه لله تعالى في إظهار دينه وهداية عباده، وإيصال النفع إليهم بكل طريق من إطعام جائعهم، ووعظ جاهلهم، وقضاء حوائجهم، وتحمل أثقالهم»[٢].

والكرم والجود من صفات المؤمنين الصالحين، قال حبيش الثقفي: قعدت مع أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، والناس متوافرون فأجمعوا: أنهم لا يعرفون رجلاً صالحاً بخيلا[٣].

والكرم والسخاء من مكارم أخلاق العرب، وجاء الإسلام وزادها شدة، قال عروة بن الزبير: جاء الإسلام وفي العرب بضع وستون خصلة، كلها زادها الإسلام شدة، منها قرى الضيف، ووفاء العهد، وحسن الجوار[٤].

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة (ص٥٩٥ ـ رقم ٢٦١٦) في قطعة من حديث طويل، وقال الترمذي: حسن صحيح.
(٢) لطائف المعارف ص١٧٣ ـ ١٧٤.
(٣) الآداب الشرعية: ٣/ ٣١٣.
(٤) الجود والسخاء ص ٢٨٠ ـ رقم٥٩.

وعروة بن الزبير نفسه إذا كان أيام الرطب ثلم حائطه، وأذن للناس أن يدخلوا فيأكلوا ويحملوا[١].

وهكذا سائر أئمة السلف أئمة يُقتدى بهم في الجود والكرم، قال محمد بن سيرين: «ما رأيت بيتاً أكثر قرآناً وعلماً، وأوسع خبزاً ولحماً من بيت ابن عباس رضي الله عنهما»[٢].

وكان الليث بن سعد كلما خرج من منزله، وجد ببابه من قَدم، قام له بالباب يسأله الشيء فيعطيهم، فجاء يوماً وقد كثروا، فرفع رأسه إلى السماء، فقال: اللهم لا يسعهم غيرك، ثم أعطاهم واحداً واحداً الدينار والحنطة إلى الدرهم»[٣].

وقال أبو داود الطيالسي: كان سعيد بن أبي عروبة قد حبس نفسه على إخوانه، فكان الرجل يدخل وشاة معلقة، فمن شاء قطع وطبخ، ومن شاء شوى، ومن احتاج إلى جُبّة أخذ جُبّة، ومن احتاج إلى قميص أخذ قميصاً، ومن احتاج إلى دراهم دخل إلى صندوق فأخذ من الكيس حاجته، لا أحد يقول: ما أخذت ولا ما أبقيت[٤].

قال محمد بن عباد المهلبي: دخل أبي على المأمون فوصله بمئة ألف درهم، فلما قام من عنده تصدّق بها، فأُخبر بذلك المأمون،

(١) تاريخ ابن أبي خيثمة: ٢/ ١٦٢ ـ رقم٢٢٣٥.
(٢) الجود والسخاء للطبراني: ص٢٤٨ ـ رقم٧.
(٣) الجود والسخاء ص٢٥٩ ـ رقم٢٣.
(٤) الجود والسخاء ص٢٩١ ـ رقم٨١.

فلما عاد إليه عاتبه في ذلك، فقال: «يا أمير المؤمنين! منع الموجود من سوء الظن بالمعبود، فوصله بمئتي ألف أخرى»(١).

والكرم يستر العيوب، قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «السخاء والكرم يُغطي عيوب الدنيا والآخرة بعد أن لا يلحقه بدعة»(٢).

وهل ساد من ساد من أشراف العرب إلا بالجود والسخاء، قال عروة بن الزبير: أدرك سعد بن عبادة ومناد يُنادي على أُطمه: من أحب شحماً ولحماً فليأت سعداً، ثم أدرك ابنه قيساً يُنادي بمثل ذلك.

قال: وقال سعد بن عبادة: اللهم هب لي حمداً، وهب لي مجداً، لا مجد إلا بفعال، ولا فعال إلا بمال، اللهم إنه لا يصلح لي القليل، ولا أصلح عليه(٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والسخي قريب من الله تعالى، ومن خلقه، ومن أهله، وقريب من الجنة، وبعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من خلقه، بعيد من الجنة، قريب من النار، فجود الرجل يُحبِّبه إلى أضداده، وبخله يُبغِّضه إلى أولاده»(٤).

❖ ❖ ❖

(١) السر المكتوم ص١٤٣.
(٢) الآداب الشرعية: ٣/ ٣١٣.
(٣) الجود والسخاء ص٢٥٥ ـ رقم١٧.
(٤) الوابل الصيب ص٧٦.



الدرس الحادي عشر



قيام الليل

رمضان مدرسة في قيام الليل بلا شك، فهذه العبادة يُصليها الناس فرادى في غير رمضان، واجتماعهم على أدائها ثلاثين ليلة في رمضان من أسباب تيسير أداء هذه العبادة.

وقيام الليل من أجلّ العبادات وأشرف الطاعات، قال تعالى في عباده المتقين: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦ ـ ١٧].

وذكر الله صفة أوليائه الصالحين أنهم قليلو النوم لأنهم أحيوا ليلهم بالقيام ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧ ـ ١٨].

وقال سبحانه في صفة عباد الرحمن ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤]، كما أنه سبحانه ذكر صفة المؤمنين ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، وأمر الله بالصلاة في هذا الوقت حيث قال سبحانه ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠]، فالصلاة

تُسمى تسبيحة، ومنه سبحة الضحى، ولذلك كان النبي ﷺ يرى ترك قيام الليل نقصاً في فضل المسلم، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**نِعم الرجل عبد الله لو كان يُصلي من الليل**»(١).

بل من أعجب ما ذُكر في فضل قيام الليل أن فضل أداء الفرائض يُشبه بها، فقد قال النبي ﷺ: «**من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله**»(٢).

وقيام الليل جعله النبي ﷺ أفضل النفل المطلق بعد أداء الفرائض، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل**»(٣).

وقيام الليل من أعظم الأسباب الموجبة لدخول الجنة، فقد قال رسول الله ﷺ: «**في الجنة غرف يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها أعدَّها الله لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وبات قائماً والناس نيام**»(٤).

وبسبب هذه الفضائل في قيام الليل ما كان أحد من الصحابة وخيار التابعين يُفرّط في قيام الليل.

---

(١) رواه البخاري، كتاب التهجد، باب فضل من تعار من الليل (ص١٨٥ ـ رقم ١١٥٦)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة (ص١٠٩٠ ـ رقم ٦٣٧٠).

(٢) رواه مسلم، كتاب المساجد، باب فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة (ص٢٦٤ ـ رقم ١٤٩١).

(٣) رواه مسلم، كتاب الصيام، باب فضل صوم المحرم (ص٤٧٨ ـ رقم ٢٧٥٥).

(٤) رواه أحمد (١/ ١٥٦) ورواه الحاكم (١/ ٨٠) وصحّحه ابن حبان (١/ ٣٦٣ ـ رقم ٥٠٩) والألباني.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «والله لقد أدركت أقواماً، وصحبت طوائف منهم، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر، ولهي كانت أهون في أعينهم من هذا التراب، كان أحدهم يعيش خمسين سنة لم يطوله ثوب قط، ولا نُصب له قدر، ولا جُعل بينه وبين الأرض شيئاً، ولا أمر في بيته بصنعة طعام قط، فإذا كان الليل فقيام على أطرافهم يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم، كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها، وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها، فما زالوا كذلك على ذلك، فوالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة، وإنكم أصبحتم في أجل منقوص، والعمل محفوظ، والموت والله في رقابكم، والنار بين أيديكم، فتوقعوا قضاء الله عز وجل في كل يوم وليلة»[١].

وإذا استعرضنا سير الصحابة في القيام علمنا حقيقة ما قام بقلوبهم من الحقائق بمعرفة فضائل القيام مما قصرنا عن إدراك كثير من هذه الحقائق، وصدق ابن مسعود رضي الله عنه إذ قال: «الإيمان اليقين كله».

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال عنه العباس بن عبد المطلب: كنت جاراً له، فما رأيت أحداً من الناس كان أفضل من عمر: إن ليله صلاة، وإن نهاره صيام، وفي حاجات الناس»[٢].

وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يحيي الليل كله بالقرآن في ركعة.

---

(١) مختصر قيام الليل، ص٣٣، قيام الليل لابن أبي الدنيا (١: ١٣٣ ـ رقم ٤١١)، موسوعة ابن أبي الدنيا.

(٢) حلية الأولياء: ١/ ٥٤.

وهذا أبو هريرة ﷺ كان هو وامرأته وخادمه يُقسمون الليل ثلاثاً، يُصلي هذا ثم يوقظ هذا[١].

وعبد الله بن الزبير ﷺ كان يقرأ القرآن في ليلة، وكان يحيي الدهر أجمع[٢].

وعروة بن الزبير كان يقرأ ربع القرآن كل يوم في المصحف ويقوم به ليله[٣].

وهذا ثابت البناني كان يقوم الليل ويصوم النهار، وكان يقول: ما شيء أجده في قلبي ألذّ عندي من قيام الليل [قيام الليل: لابن أبي الدنيا، رقم: ١٥٤٠].

فلا شك أن هؤلاء الصالحين إنما كان ينهزهم الإيمان فيؤثروا القيام مع ما فيه من المشقة على دفء الفراش وما فيه من الراحة، لأنهم استحضروا النعيم الأعظم السرمدي فقدموه على النعيم الحاضر، ولذلك نعت النبي ﷺ قيام الليل بقوله: «**دأب الصالحين قبلكم**»[٤].

وثمرات قيام الليل عظيمة، حسبي هنا أن أورد أهمها:

١ ـ إنه أتمّ إخلاصاً، قال ابن مسعود ﷺ: «فضل صلاة الليل

---

(١) الإصابة: ٤/٢٠٩.
(٢) مختصر قيام الليل ص١٨، قيام الليل لابن أبي الدنيا (١/٣٢٣ ـ رقم ٣٧٧ الموسوعة).
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/٤٢٦)، قيام الليل لابن أبي الدنيا (١/٢٧٩ ـ رقم ١٦٨).
(٤) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب مَن فتح له منكم باب الدعاء (ص٨٠٩ ـ رقم ٣٥٤٩)، ورواه الحاكم (١/٣٠٨) وصحّحه ابن خزيمة (٢/١٧٦ ـ رقم ١١٣٥) وحسّنه الألباني في الإرواء (٤٥١).

على صلاة النهار كفضل صدقة السر على صدقة العلانية»[(١)].

٢ ـ أكثر بركة: قال عكرمة: «عبادة الليل أشد نشاطاً وأتمّ إخلاصاً، وأكثر بركة»[(٢)].

٣ ـ أفرغ للقلب.

٤ ـ أفضل وقت لتدبر القرآن. قال ابن كثير رحمه الله[(٣)]: «إن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، ولهذا قال: (هي أشد وطئاً وأقوَم قيلا) أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهّمها من قيام النهار»

٥ ـ تثبيت الحفظ: فبالقيام بما حفظه يرسخ القرآن ويثبت كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «إذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره، وإذا لم يقم به نسيه»[(٤)].

٦ ـ من أسباب السعادة: قال عطاء بن أبي رباح: «قيام الليل محياة للبدن، ونور في القلب، وضياء في البصر، وقوة في الجوارح، وإن الرجل إذا قام من الليل متهجداً أصبح فرحاً يجد لذلك فرحاً في قلبه، وإذا غلبته عيناه فنام عن حزبه أصبح حزيناً منكسر القلب كأنه قد فقد شيئاً، وقد فقد أعظم الأمور له نفعاً»[(٥)].

٧ ـ تخفيف القيام يوم القيامة: قاعدة العدل جارية وفق قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فمن صبر

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (ص٨ ـ رقم ٢٣).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٤١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٥٢).
(٤) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الأمر بتعهد القرآن (ص٣١٩ ـ رقم ١٨٤٠).
(٥) قيام الليل لابن أبي الدنيا (١/ ٢٤٨ ـ رقم ٢١).

على قيام الليل لا بد أن يُريحه الله في موقف القيامة، قال الأوزاعي رحمه الله: بلغني أنه «من أطال قيام الليل خفّف الله عنه يوم القيامة»[(١)]. ، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦] وقوله ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧].

٨ ـ القائم يكون في عداد الذاكرين لا الغافلين: قال رسول الله ﷺ: «**من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين جميعاً كُتبا ليلتئذ من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات**»[(٢)].

٩ ـ حصول النشاط وانحلال عُقد الشيطان: عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: ذُكر عند النبي ﷺ رجل نام ليلةً حتى أصبح، قال: «**ذاك رجل بال الشيطان في أذنه أو قال في أذنيه**»[(٣)].

١٠ ـ البعد عن مشابهة الجيف: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يبغض كل جعظري جواظ صخَّاب في الأسواق، جيفة بالليل، حمار بالنهار، عالم بأمر الدنيا، جاهل بأمر الآخرة**»[(٤)].

١١ ـ موافقة ساعة إجابة الدعاء: ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول، فيقول: أنا الملك، أنا الملك، من**

(١) قيام الليل لابن أبي الدنيا (١/ ٢٤٧ ـ رقم ١١)..

(٢) رواه أبو داود، كتاب الوتر، باب الحثّ على قيام الليل (ص٢١٦ ـ رقم ١٤٥١) وصحّحه ابن حبان (٤/ ١١٩ ـ رقبم ٢٥٦٠) والألباني.

(٣) واه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (ص٥٤٥ ـ رقم ٣٢٦٩)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الحث على صلاة الليل وإن قَلّت (٣١٦ ـ رقم ١٨١٧).

(٤) رواه ابن حبان (١/ ١٤٥ ـ رقم ٧٢) وصحّحه الألباني.

ذا الذي يدعوني فأستجيب له، من ذا الذي يسألني فأعطيه، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له، فلا يزال كذلك يضيء حتى يُصلي الفجر».

١٢ ـ قيام الليل في السحر هذه ساعة تفتح لها أبواب الجنة لأنه وقت إدبار الليل، وإقبال النهار، فهو متنفس الصبح.

١٣ ـ بهاء الوجه وحسن المنظر: صاحب قيام الليل تجده وضيء الوجه، لأن النبي ﷺ قال: «**الصلاة نور**»(١).

وقال شريك بن عبد الله القاضي «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار».

وقيل للحسن البصري رحمه الله: ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهاً؟ قال: «لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره نوراً»(٢).

١٤ ـ حماية الفرائض: ملازمة النوافل صيانة للفرائض لأن الشيطان إنما يأتي العبد من جهة النوافل على اعتبار أنها ليست فرائض، فإذا ضيّع النوافل أخذ يثبطه عن الفرائض، فإذا نال من فرائضه فقد هلك إلا أن يشاء الله.

ومن كان للفرائض حافظاً فلا شك أنه للنوافل أكثر محافظة، قال يونس بن عبيد رحمه الله: «ما استخف رجل بالتطوع إلا استخف بالفريضة»(٣).

❁ ❁ ❁

(١) رواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

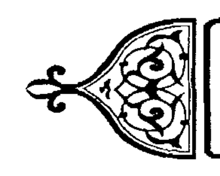
(٢) مختصر قيام الليل ص٤٥، قيام الليل لابن أبي الدنيا، رقم ٢٨١..

(٣) مختصر قيام الليل ص٢٠٤.

الدرس الثاني عشر



أولئك هم العصاة



عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خرج عام الفتح إلى مكة، في رمضان، فصام حتى بلغ كُراع الغميم، فصام الناس، ثم دعا بقدح من ماء فرفعه، حتى نظر الناس إليه، فشرب، ثم قيل له بعد ذلك: إن بعض الناس قد صام، فقال: «**أولئك العصاة، أولئك العصاة**»(١).

فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم لم يشربوا الخمر ولم يسرقوا ولم يزنوا، بل كانوا صائمين في يوم حر شديد، فأفطر النبي ﷺ رفقاً بهم، ورخصةً لهم حتى يكون أهون عليهم وأيسر لهم، فخالفوا السُّنة وما أخذوا بالرخصة، فقال عنهم النبي ﷺ: «**أولئك هم العصاة، أولئك هم العصاة**».

ونظير هذا أن النبي ﷺ نهى عن الصلاة بعد دخول الفجر إلا من ركعتي الفجر، فرأى سعيد بن المسيب رحمه الله رجلاً يُكثر من التنفل بعد الفجر فزجره، فقال الرجل: أترى الله يُعذبني على كثرة الصلاة؟!

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب إذا صام أياماً من رمضان ثم سافر (ص٣١٢ ـ رقم ١٩٤٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما جمعناه، ورواه مسلم، كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية (ص٤٥٥ ـ رقم ٢٦١٠).

فقال سعيد بن المسيب رحمه الله: لا، ولكن يُعذبك على مخالفة السُّنة[١].

فالمقصود ليس هو كثرة العمل، وإنما المقصود إحسان العمل، بأن يكون العمل خالصاً لوجه الله موافقاً للسُّنة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، قال الفضيل بن عياض رحمه الله: أخلصه وأصوبه.

والشرع حذّر من فتنتين هما جماع الشر كله: فتنة الشهوات المحرمة، وفتنة الشبهات وهي البدع والضلالات والأهواء، قال النبي ﷺ: «**إن مما أخشى عليكم مضلات الهوى وشهوات الغي في بطونكم وفروجكم**»[٢].

فقوله عليه السلام: «**مضلات الهوى**» هذه فتنة الشبهات والأهواء والبدع والضلالات، و«**شهوات الغي في بطونكم وفروجكم**» هذه الشهوات المحرمة كالزنى وشرب الخمر وغيره.

وقد حذّر الله من هاتين الفتنتين مجموعتين في آية واحدة من كتابه في قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٩] ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: ٦٩].

قال ابن القيم رحمه الله: «أنه سبحانه جمع بين الاستمتاع بالخلاق،

(١) رواه عبد الرزاق: ٣/ ٥٢، والبيهقي: ٢/ ٤٦٦.
(٢) رواه أحمد وهو حديث صحيح.

وبين الخوض بالباطل لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل، والتكلم به، وهو الخوض، أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب، وهو الاستمتاع بالخلاق.

فالأول: البدع، والثاني: اتباع الهوى، وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء، وبهما كُذِّبت الرسل، وعُصي الرب، ودُخلت النار، وحلّت العقوبات.

فالأول: من جهة الشبهات، والثاني: من جهة الشهوات.

ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى فتنه هواه، وصاحب دنيا أعجبته دنياه. وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فهذا يُشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق، ويعملون بخلافه، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم»[١].

والمعاصي والذنوب أمرها واضح للناس، فهي معلومة لدى الجميع أنها من الحرام المجمع على تحريمه، كالزنا وشرب الخمر ونحوه، فلا أحد يحتسب الأجر في فعلها، ويوشك العبد أن يُقلع عنها ويتوب في أي لحظة، أما البدع فشأنها أخطر وأعظم لأن صاحبها يأتي بها على أنها شرع لله، ويتقرب إلى الله بفعلها وهي تُبعده عن الله.

وأعظم من ذلك أن المبتدع إذا نصحه أهل العلم وزجروه عن هذه البدع صاح في وجوههم، وهيّج العامة، واتهم المصلحين بأنهم

(١) بدائع التفسير: ٢/ ٣٦٧.

يصدُّون عن سبيل الله، وصدق الله إذ يقول: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

والمبتدع مستدرك على الشريعة من حيث لا يشعر، فالنبي ﷺ قد بلَّغ البلاغ المبين كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، وهو مدّعٍ أن الشرع لم يكمل من حيث لم يشعر لأنه يتعبد لله بما لم تأت به الشريعة والله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٥].

قال الإمام مالك رحمه الله: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، فما لم يكن يومئذ ديناً، فلا يكون اليوم ديناً»[(١)].

والمبتدع معاند للشريعة ومضاد لها، لأنه سلك طريقاً غير ما رسمه له الشارع، وهذه محادّة لله ورسوله، قال الشاطبي رحمه الله: «إن المبتدع معاند للشرع وشاق له، لأن الشارع قد عيّن لمطالب العبد طرقاً خاصة على وجوه خاصة، وقصر الخلق عليها بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، وأخبر أن الخير فيها، وأن الشر في تعدّيها إلى غيرها، لأن الله يعلم ونحن لا نعلم، وأنه إنما أرسل الرسول ﷺ رحمةً للعالمين، فالمبتدع رادٌّ لهذا كله، فإنه يزعم أن ثم طرقاً أُخر، وليس ما حصره الشارع بمحصور، ولا ما عيَّنه بمتعين، وأن الشارع يعلم ونحن أيضاً نعلم، بل ربما يفهم من استدراكه الطرق على

(١) الاعتصام: ١/ ٦٢.

الشارع أنه علم ما لم يعلمه الشارع، وهذا إن كان مقصوداً للمبتدع، فهو كفرٌ بالشريعة والشارع، وإن كان غير مقصود، فهو ضلال مبين»(١).

فالحاصل أن البدع أخطر من المعاصي، وجُرمها أعظم، قال أرطاة بن المنذر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لأن يكون لي ابن فاسق من الفساق، أحبّ إليّ من أن يكون صاحب هوى»(٢).

وقال يونس بن عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لابنه: «أنهاك عن الزنا والسرقة وشرب الخمر، ولأن تلقى الله بهنَّ أحبُّ إليّ من أن تلقاه برأي عمرو وأصحاب عمرو»(٣).

فالبدع شر وهي تُفسد القلوب، وإذا فسدت القلوب فسد الدين وحُرِّف وبُدِّل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الشرائع أغذية القلوب، فمتى اغتذت القلوب بالبدع، لم يبق فيها فضل للسنن، فتكون بمنزلة من اغتذى بالطعام الخبيث»(٤).

وقال شيخ الإسلام أيضاً: «فمن تدبّر هذا علم يقيناً ما في حشو البدع من السموم المُضعفة للإيمان، ولهذا قيل: إن البدع مشتقة من الكفر»(٥).

والبدع تبدو صغيرة ثم تعود كبيرة، قال البربهاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن

---

(١) الاعتصام: ١/ ٦٢.
(٢) الحجة على تارك المحجة: ١/ ٢٨٦.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٦/ ٢٩٤.
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ١٠٤.
(٥) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ١١٦.

صغير البدع يعود حتى يصير كبيراً، وكذلك كل بدعة أُحدثت في هذه الأمة، كان أوَّلها صغيراً يُشْبه الحقَّ فاغترّ بذلك من دخل فيها، ثم لم يستطع الخروج منها، فعُظُمت وصارت ديناً يُدان بها»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن البدع لا تزال تُخرج من صغير إلى كبير حتى تُخرجه إلى الإلحاد»[٢].

ولذلك البدعة تغرس أمثالها، وترقق البدعة إلى أختها لأن تعظيم المتابعة للنبي ﷺ ضعف في قلوب المبتدعة بالتأويلات الباطلة، والتحريفات المفسدة، فلا تزال بهم حتى توقعهم في أنواع من البدع عافانا الله.

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وصاحب البدعة لا يقتصر في الغالب على الصلاة دون الصيام، ولا على الصيام دون الزكاة، ولا على الزكاة دون الحج، ولا على الحج دون الجهاد..، إلى غير ذلك من الأعمال، لأن الباعث له على ذلك حاضر معه في الجميع، وهو الهوى والجهل بشريعة الله»[٣].

وأهل البدع هم الذين فرقوا المسلمين، ومع قبح صنيعهم هذا، وعظم جرمهم قلبوا الحقائق ترويجاً لباطلهم، وصدّاً للناس عن تبين شرهم وإفسادهم لدين الناس، فصاحوا بدعاة الإصلاح وإنكار بدعهم بأنهم يفرقون المسلمين، هكذا زعموا!!

---

(١) شرح السُّنة ص٦٦ ـ ٦٧.
(٢) مجموع الفتاوى: ٣٠٦/٢٢.
(٣) الاعتصام: ١٩٦/١.

والبدع هي التي تُفرّق المسلمين عن الصراط المستقيم، وأهل البدع هم أهل الفرقة، فعن مجاهد رحمه الله في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال: الرجم، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال: الخسف، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ٦٥] قال: الأهواء المفترقة[١].

وأهل البدع لا يألون جهداً في حرب السُّنة، ولهم تاريخ حافل في تأليب الولاة على أهل السُّنة، قال الشاطبي رحمه الله: «فإن أهل البدع كان من شأنهم القيام بالنكير على أهل السُّنة، إن كان لهم عصبة، أو لصقوا بسلطان تجري أحكامه في الناس، وتنفيذ أوامره في الأقطار، ومن طالع سير المتقدمين، وجد من ذلك ما لا يخفى».

وقد ضاق فهم البعض بمفهوم البدعة والسُّنة، وقصر ذلك على ما يقع في الاعتقادات والعبادات فقط، وهذا قصور بلا شك.

قال حماد بن زيد: «سألت أيوب: ما السُّنة؟ قال: أن تقرأ القرآن كما علمت، وأن تروي الحديث كما سمعت، وأن تُعلّم الناس كما عُلّمت»[٢].

وقال وهب بن منبه رحمه الله: «إن من أعوان الأخلاق على الدين الزهادة في الدنيا، وأوشكها ردى اتباع الهوى، ومن اتباع الهوى الرغبة في الدنيا، ومن الرغبة في الدنيا حب المال والشرف، ومن حب المال والشرف استحلال المحارم»[٣].

---

(١) الحجة على تارك المحجة: ١/ ٢٦٨.
(٢) الحجة على تارك المحجة: ٢/ ٦١٠.
(٣) الحجة على تارك المحجة: ١/ ٢٧٠.

وقال أبو محمد المرتعش: «سُئل أبو حفص عمرو بن سلمة النيسابوري: ما البدعة؟

قال: التعدي في الأحكام، والتهاون بالسّنن، واتباع الآراء والأهواء، وترك الاقتداء والاتباع»[١].

وسُئل الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ عن قوم لا يعملون، ويقولون نحن متوكلون، فقال: هؤلاء مبتدعة.

وقال أبو بكر المروذي للإمام أحمد: إن ابن عيينة كان يقول: هم مبتدعة، فقال أبو عبد الله: هؤلاء قوم سوء، يريدون تعطيل الدنيا[٢].

وتكلم العلماء في وجوب ردّ البدع والأهواء والضلالات، وبيّنوا أن هذا واجب لحفظ الدين، وهو من النصيحة لله ورسوله وعامة المسلمين، وهو داخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن أنواع النصح لله تعالى، وكتابه، ورسوله، وهو ما يختص به العلماء ردّ الأهواء المضلة بالكتاب والسُّنة على موردها، وبيان دلالتهما على ما يُخالف الأهواء كلها، وكذلك ردّ الأقوال الضعيفة من زلات العلماء، وبيان دلالة الكتاب والسُّنة على ردها»[٣].

قال زائدة لمنصور بن المعتمر رَحِمَهُ اللَّهُ: أرأيت إذا كنت صائماً أتناوي السلطان؟

---

(١) الحجة على تارك المحجة: ١/ ٢٣٥.
(٢) الحث على التجارة ص٨٧.
(٣) جامع العلوم والحكم ص٥٨.

قال: لا، قلت: فأصحاب الأهواء والبدع؟ قال: نعم[١].

فالكلام الممنوع هو الكلام في عورات المسلمين، أما ردّ ما يُنسب إلى الدين وهو ليس منه فهذا طاعة، وعبادة، وقربة، ودين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من غلط في رأي رآه في أمر الدين من المسائل العلمية والعملية، فهذا إذا تكلم فيه الإنسان بعلم وعدل، وقصد النصيحة، فالله تعالى يثيبه على ذلك، لا سيما إذا كان المتكلم فيه داعياً إلى بدعة، فهذا يجب بيان أمره للناس، فإن دفع شرّه عنهم أعظم من دفع شر قاطع الطريق»[٢].

وقال أيضاً في شأن المبتدع: «... كل ذلك مخالف لسنة رسول الله ﷺ، فمن أمر بذلك كان أحق بالمنع، ويُشهر خطأه، ليتحفظ الناس من الاقتداء به»[٣].

والرد والنكير على أهل البدع إجماع من الصحابة، وقد حكى إجماعهم أبو صالح عبد العزيز بن عباد المعروف بالفرغاني حيث علّق على معاملة السلف لصبيغ بقوله: «وهذا النكير والأدب والهجران إجماع من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين»[٤].

كما أن الشرع حذّر من إظهار البدع وحذّر من تيسير أسباب نشر أهوائهم، فقد روى مسلم في صحيحه عن علي رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: **«لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثاً، لعن الله من غيَّر منار الأرض»**.

---

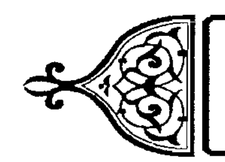
(١) الحجة على تارك المحجة: ١/ ٢٩١.
(٢) منهاج السنة: ٥/ ١٤٦.
(٣) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٣٠٥.
(٤) الحجة على تارك المحجة: ٢/ ٥٤٧.

كما حرّم الشرع التعاضد بالمبتدعة لأن هواه قد يُوقعك في الضلالة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١]، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله: «وهو إشارة إلى أنه لا ينبغي لك أيها الإنسان أن تتخذ المضلين عضداً تنتصر بهم، لأنهم لن ينفعوك بل سيضرونك، إذاً لا تعتمد على السفهاء، ولا تعتمد على أهل الأهواء المنحرفة، لأنه لا يمكن أن ينفعوك بل هم يضرونك، فإذا كان الله عز وجل لم يتخذ المضلين عضداً لأنهم لا خير فيهم، وفي هذا النهي عن بطانة السوء وعن مرافقة أهل السوء، وأن يحذر الإنسان من جلساء السوء»(١).

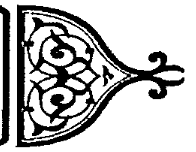


(١) تفسير سورة الكهف ص٩٤.

الدرس الثالث عشر



الزجر عن الغلو



في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: نهى رسول الله ﷺ عن الوصال، فقال رجل من المسلمين: فإنك تواصل يا رسول الله؟!

فقال: «**وأيكم مثلي؟ إني أبيتُ يُطعمني ربي ويسقيني**»، فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يوماً، ثم يوماً، ثم رأوا الهلال، فقال: «**لو تأخر الهلال لزدتكم**»، كالمُنكل لهم، حين أبوا أن ينتهوا[1].

هؤلاء جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم وجدوا بأنفسهم قوةً ونشاطاً، فأرادوا مواصلة الصيام وعدم الفطر مع غروب الشمس، فزجرهم النبي ﷺ عن ذلك، وبيّن لهم أن مواصلته هو عليه السلام لخصوصية فيه، وأن الله يطعمه ويسقيه، وهذا غير حاصل لهم، فنهاهم عن الوصال، فأبوا، فجعلهم يواصلون لا من باب الإذن الشرعي ولكن ليتبينوا حكمة الشرع في النهي عن الوصال.

فالفطر وتناول الطعام عونٌ على الصيام، فيتقوى البدن بما تناوله

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب التنكيل لمن أكثر الوصال (ص٣١٦ ـ رقم ١٩٦٥)، ومسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال (ص٤٤٨ ـ رقم ٢٥٦٣).

من طعام على صيام النهار، كما أن الفطر يُجمّ البدن ويريحه فيحصل له انبساط ونشاط، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «في النهي عنه بعض الأوقات مصالح أُخر من إجمام النفوس بعض الأوقات، ومن ثقل العبادة كما يُجمُّ بالنوم وغيره، ولهذا قال معاذ رضي الله عنه: إني لأحتسب نومتي، كما أحتسب قومتي»[(١)].

فديننا دين وسطية وعدل، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] أي خياراً عدولاً، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٩]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «والآيات الآمرة بالعدل والناهية عن ضدّه كثيرة، والعدل في كل الأمور لزوم الحد فيها، وأن لا يغلو ويتجاوز الحد كما لا يقصّر ويدع بعض الحق، ففي عبادة الله أمر بالتمسك بما عليه النبي ﷺ في آيات كثيرة، وذم المقصرين عنه في آيات كثيرة»[(٢)].

فالوسطية هي لزوم الشرع، بأداء شرائعه من غير غلو ولا تقصير، فليس معنى الوسطية ركوب المحرمات والتفسخ من الأوامر الشرعية فهذا تضييع وتفريط وليس بوسطية.

قال الحسن البصري رحمه الله: «دين الله وُضع فوق التقصير، ودون الغلو»[(٣)].

وقال وهب بن منبه رحمه الله: «إن لكل شيء طرفان ووسط، فإذا

(١) مجموع الفتاوى: ٢٣/١٨٧.
(٢) القواعد الحسان ص٩٣.
(٣) الاعتصام: ١/٣٠٦.

أمسكت بأحد الطرفين مال الآخر، وإذا أمسكت بالوسط اعتدل الطرفان، فعليكم بالأوساط من الأشياء»[١].

وقال مطرف بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ «العلم أفضل من العمل، والحسنة بين السيئتين، وخير الأمور أوسطها، وشرُّ السير الحقحقة»[٢].

وقال عمير بن إسحاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لمن أدركت من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر ممن سبقني منهم، فما رأيت قوماً أيسر سيرة ولا أقلُّ تشديداً منهم»[٣].

وقال الوزير ابن هبيرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحق هو الشرع المشروع، فكل من غلا فيه فهو بمنزلة من قصّر عنه»[٤].

إذاً الوسطية لزوم الشرع لا إفراط ولا تفريط، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن التعمق والتنطع والتشديد الذي نهى عنه رسول الله ﷺ هو المخالف لهديه وهدي أصحابه وما كانوا عليه، وإن موافقته فيما فعله هو وخلفاؤه من بعده هو محض المتابعة، وإن أباها وجهلها من جهلها، فالتعمق والتنطع مخالفة ما جاء به، وتجاوزه والغلو فيه، ومقابلة إضاعته والتفريط فيه والتقصير عنه، وهما خطأ وضلالة وانحراف عن الصراط المستقيم، والمنهج القويم، ودين الله بين الغالي فيه والجافي عنه.

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «خير الناس النمط الأوسط الذي يرجع إليهم الغالي، ويلحق بهم التالي»[٥].

---

(١) تاريخ ابن أبي خيثمة: ١/ ٣٢١.
(٢) الاعتصام: ٢/ ١٦٤.
(٣) الاعتصام: ٢/ ١٦٦.
(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح: ٥/ ٢٣٢.
(٥) ذكره ابن المبارك عن محمد بن طلحة عن علي.

وقال ابن عائشة: ما أمر الله عباده بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان، فإما إلى غلو، وإما إلى تقصير.

وقال بعض السلف: دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وقد مدح تعالى أهل الوسط بين المنحرفين في غير موضع من كتابه، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء:٢٦]، فمنع ذي القربى والمسكين وابن السبيل حقهم انحراف في جانب الإمساك، والتبذير انحراف في جانب البذل، ورضاء الله فيما بينهما، ولهذا كانت هذه الأمة أوسط الأمم، وقبلتها أوسط القبل بين القبلتين المنحرفتين، والوسط دائماً محمي الأطراف، والخلل إليهما أسرع، كما قال الشاعر:

كانت هي الوسط المحميّ فاكتنفت   بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

فقد اتفق شرع الرب تعالى وقدره على أن خيار الأمور أوسطها»(١).

وقد تكلم العلماء في معنى الغلو، فقال الشاطبي رحمه الله: «فإن الغلو هو المبالغة في الأمر، ومجاوزة الحد فيه إلى حيِّز الإسراف، وقد دلّ عليه مما تقدم أشياء: حيث قال عليه السلام: «**يا أيها الناس: عليكم بالقصد**...»، وقال الله عز وجل: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ [المائدة:٧٧].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة العقبة: «**القط لي حصيات من حصى الحذف**، فلما وضعتهن في يده، قال: **بأمثال هؤلاء، وإياكم والغلو في الدين، فإنَّما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين**».

---

(١) الصلاة ص١٩٢.

فأشار إلى أن الآية في النهي عن الغلو يشمل معناها على كل ما هو غلو وإفراط»[(١)].

فهنا لا بد من ملاحظة أسرار الشريعة ومقاصدها ومعانيها، فلكل شيء حكمة، فعندما يأمر الشرع بالصلاة لأوقات معينة، وينهى عن الصلاة مطلقاً فرضها ونفلها في أوقات أخرى فذلك لحكمة.

وكذلك عندما ينهى الشرع عن الطعام من الفجر إلى غروب الشمس، ويأمر بالفطر من غروب الشمس إلى طلوع الفجر فهذا لحكمة، فمن سرد الصوم الليل والنهار فقد أوقع نفسه في الحرج، وضادّ الشريعة في حكمها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مبيناً أسرار الشريعة في النهي عن الصلاة في بعض الأوقات: «إن من جملة حكمة النهي عن التطوع المطلق في بعض الأوقات: إجمام النفوس في وقت النهي لتنشط للصلاة، فإنها تنبسط إلى ما كانت ممنوعة منه، وتنشط للصلاة بعد الراحة»[(٢)].

وفي هذا يقول ابن القيم رحمه الله: «السلوك بين طرفي الإفراط، وهو الجور على النفوس، والتفريط بالإضاعة ووقوفاً مع ما يرسمه العلم، لا وقوفاً مع داعي الحال، وإفراد المعبود بالإرادة، وهو الإخلاص، ووقوع الأعمال على الأمر وهو متابعة السُّنة. فبهذه الأمور الستة تتمّ لأهل هذه الدرجة استقامتهم، وبالخروج عن واحد منها يخرجون عن الاستقامة: إما خروجاً كلياً، وإما خروجاً جزئياً.

(١) الاعتصام: ٢/ ١٦٣ ـ ١٦٤.
(٢) مجموع الفتاوى: (٢٣/ ٢١٧)، استفدته من «حلية طالب العلم» للعلامة بكر أبو زيد رحمه الله.

والسلف يذكرون هذين الأصلين كثيراً ـ وهما الاقتصاد في الأعمال، والاعتصام بالسُّنة ـ، فإن الشيطان يشم قلب العبد ويختبره، فإن رأى فيه داعية للبدعة، وإعراضاً عن كمال الانقياد للسنة أخرجه عن الاعتصام بها، وإن رأى فيه حرصاً على السُّنة، وشدة طلب لها: لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها، فأمره بالاجتهاد والجور على النفس، ومجاوزة حد الاقتصاد فيها، قائلاً له: إن هذا خير وطاعة، والزيادة والاجتهاد فيها أكمل، فلا تفتر مع أهل الفتور، ولا تنم مع أهل النوم، فلا يزال يحثه ويُحرضه حتى يُخرجه عن الاقتصاد فيها، فيخرج عن حدها، كما أن الأول خارج عن هذا الحد، فكذا هذا الآخر خارج عن الحد الآخر، وهذه حال الخوارج الذين يحقر أهل الاستقامة صلاتهم مع صلاتهم، وصيامهم مع صيامهم، وقراءتهم مع قراءتهم، وكلا الأمرين خروج من السُّنة إلى البدعة، لكن هذا إلى بدعة التفريط والإضاعة، والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف.

وقال بعض السلف: ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان، إما إلى تفريط، وإما إلى مجاوزة، وهي الإفراط، ولا يبالي بأيهما ظفر: زيادة أو نقصان»[١].

والنبي ﷺ بيّن أن الدين يسر، وأن من أراد الخروج عن يسر هذا الدين واعتداله فإنه سيلحقه العنت، وأنه سيُغلب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسدّدوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة**»[٢].

---

(١) مدارج السالكين: ٣/ ٩٠.

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر (ص٩ ـ رقم ٣٩).

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «النهي عن التشديد في الدين بأن يُحمّل الإنسان نفسه من العبادة ما لا يحتمله إلا بكلفة شديدة، وهذا هو المراد بقوله ﷺ: «**لن يشادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه**» يعني أن الدين لا يؤخذ بالمغالبة، فمن شادّ الدين غلبه وقطعه».

وقال ابن رجب أيضاً رحمه الله: «التسديد: هو إصابة الغرض المقصود، وأصله من تسديد السهم إذا أصاب الغرض المرميّ إليه ولم يخطه.

والمقاربة: أن يُقارب الغرض وإن لم يصبه، لكن يكون مجتهداً على الإصابة فيصيب تارة، ويقارب أخرى، أو تكون المقاربة لمن عجز عن الإصابة كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال النبي ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**».

وفي «المسند» و«سنن أبي داود» عن الحكم بن حزن الكلفي: أنه سمع النبي ﷺ يقول على المنبر يوم الجمعة: «**أيها الناس! إنكم لن تطيعوا ـ أو لن تفعلوا ـ كل ما أمرتكم، ولكن سدّدوا وأبشروا**».

وقيل أراد بالتسديد: العمل بالسداد ـ وهو القصد والتوسط في العبادة ـ فلا يُقصِّر فيما أُمر به، ولا يتحمَّل فيما لا يطيقه.

قال النضر بن شميل: السداد: القصد في الدين والسبيل، وكذلك المقاربة المرادُ بهما: التوسط بين التفريط والإفراط، فهما كلمتان بمعنى واحد.

وقيل: بل المراد بالتسديد: التوسط في الطاعات بالنسبة إلى الواجبات والمندوبات، وبالمقاربة: الاقتصار على الواجبات»[١].

---

(١) فتح الباري: ١/١٥١ ـ ١٥٢.

وجاء في صحيح البخاري من رواية عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً: «إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، ولا تُبغِّض إلى نفسك عبادة الله، فإن المُنبتَّ لا سفراً قطع، ولا ظهراً أبقى».

والمُنْبتُّ: هو المنقطع في سفره قبل وصوله، فلا سفره قطع ولا ظهره الذي يسير عليه أبقى حتى يُمكنه السير عليه بعد ذلك، بل هو كالمنقطع في المفاوز، فهو إلى الهلاك أقرب، ولو أنه رفق براحلته واقتصد في سيره عليها لقطعت به سفره وبلغ إلى المنزل.

كما قال الحسن: «نفوسكم مطاياكم، فأصلحوا مطاياكم تُبلغكم إلى ربكم عز وجل»[١].

وقال الشاطبي رحمه الله: «فشبَّه الموغل بالعنف بالمُنْبتِّ، وهو المنقطع في بعض الطريق، تعنيفاً على الظهر - وهو المركوب - حتى وقف فلم يقدر على السير، ولو رفق بدابته لوصل إلى رأس المسافة.

فكذلك الإنسان عُمرهُ مسافة، والغاية الموت، ودابته نفسه، فكما هو مطلوب بالرفق على الدابة حتى يصل بها، فكذلك هو مطلوب بالرفق بنفسه حتى يسهل عليها قطع مسافة العمل بحمل التكليف، فنهى في الحديث عن التسبُّب في تبغيض العبادة للنفس، وما نهى الشرع عنه لا يكون حسناً»[٢].

والمنقول عن بعض السلف من مجاوزة ما رُسم من الاقتصاد في العبادة، فهذه اجتهاداتهم والأسوة هو رسول الله ﷺ.

---

(١) فتح الباري: ١/١٥٢ - ١٥٣.
(٢) الاعتصام: ٢/١٥٩ - ١٦٠.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله[١]: «وكان كثير من المتقدمين يحملون على أنفسهم من الأعمال ما يضرّ بأجسادهم، ويحتسبون أجر ذلك عند الله، وهؤلاء قوم أهل صدق وجد واجتهاد، فيحثون على ذلك، ولكن لا يُقتدى بهم، وإنما يُقتدى بسُنَّة رسول الله ﷺ، فإن خير الهدي هديه، ومن أطاعه فقد اهتدى، ومن اقتدى به وسلك وراءه وصل إلى الله عز وجل، وقد كان النبي ﷺ ينهى عن التعسير ويأمر بالتيسير، ودينه الذي بُعث به يُسر، وكان يقول: خير دينكم أيسره، ورأى رجلاً يُكثر الصلاة، فقال: إنكم أمة أريد بكم اليسر.

ولم يكن أكثر تطوع النبي ﷺ وخواص أصحابه بكثرة الصوم والصلاة، بل ببر القلوب وطهارتها، وسلامتها وقوة تعلقها بالله خشيةً له ومحبة وإجلالاً وتعظيماً ورغبةً فيما عنده، وزهداً فيما يُفتي، وفي المسند عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**إني أعلمكم بالله وأتقاكم له قلباً**».

قال ابن مسعود رضي الله عنه لأصحابه: أنتم أكثر صلاةً وصياماً من أصحاب محمد ﷺ، وهم كانوا خيراً منكم، قالوا: ولم؟ قال: كانوا أزهد منكم في الدنيا وأرغب في الآخرة.

وقال بكر المزني: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره.

قال بعض العلماء المتقدمين: الذي وقر في صدره هو حب الله والنصيحة لخلقه.

وسئلت فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر بن عبد العزيز رحمه الله

(١) لطائف المعارف ص٢٦٩.

بعد وفاته عن عمله، فقالت: والله ما كان بأكثر الناس صلاةً ولا بأكثرهم صياماً، ولكن والله: ما رأيت أحداً أخوف لله من عمر، لقد كان يذكر الله في فراشه فينتفض انتفاض العصفور من شدة الخوف، حتى نقول: ليصبحن الناس ولا خليفة لهم.

قال بعض السلف: ما بلغ من بلغ عندنا بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بسخاوة النفوس وسلامة الصدور، والنصح للأمة، وزاد بعضهم: واحتقار أنفسهم.

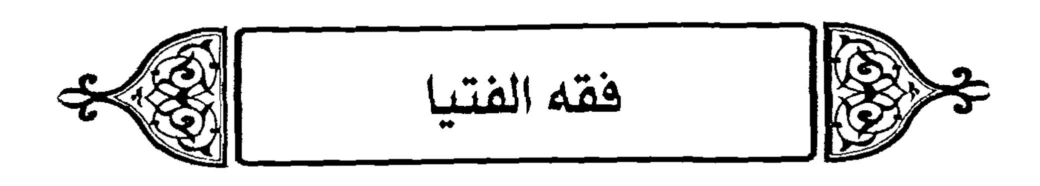
وذُكر لبعضهم شدة اجتهاد بني إسرائيل في العبادة، فقال: «إنما يريد الله منكم صدق النية فيما عنده، فمن كان بالله أعرف فله أخوف، وفيما عنده أرغب، فهو أفضل ممن دونه في ذلك وإن كثر صومه وصلاته».

فالحاصل أن الشريعة شريعة يسر فيما أمرت به من العبادات، ولا أدل على ذلك من فريضة الصلاة التي هي آكد الأركان بعد الشهادتين، فإنها أول ما فُرضت خمسين صلاة في اليوم والليلة لما عُرج بالنبي ﷺ، فقال موسى عليه السلام لنبينا محمد ﷺ: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا تطيق ذلك[١].

❃ ❃ ❃

(١) رواه البخاري ومسلم، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة (ص٦٢ ـ رقم ٣٤٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلاة (ص٨٢ ـ رقم ٤١١).

الدرس الرابع عشر



فقه الفتيا

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إن أمي ماتت وعليها صوم شهر أفأقضيه عنها؟ فقال: «**لو كان على أُمك دين أكنت قاضيه عنها؟**» قال: نعم، قال: «**فدين الله أحق أن يُقضى**»[1].

هذا استفتاء من صحابي في شأن أمه التي ماتت وعليها صيام شهر من رمضان، وجاء جواب النبي ﷺ بضرب مثل يسهل فهمه ويعرفه كل الناس، ويبقى راسخاً في الذهن يرتبط بداهة في حكم القضاء الواجب على أمه في حق الله بما ثبت نظيره في حق المخلوقين عليها.

ومن هنا نستنتج أن الفتيا لها فقهها، وأن من محاسن الفتوى تقريب الجواب لذهن السائل بما يقرب منه فهمه.

فالفتوى لها أصولها وضوابطها، والناس يحتاجون إلى من يُبلّغهم

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب مَن مات وعليه صوم (ص٣١٤ ـ رقم ١٩٥٣)، ومسلم، كتاب الصيام، باب قضاء الصوم عن الميت (ص٤٦٧ ـ رقم ٢٦٩٤).

أحكام الله عز وجل، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

والفتوى في الحقيقة خلاصة تعاون بين المستفتي والمفتي، فعلم المفتي وحده لا يكفي في الدلالة على الحق، فلا بد للمستفتي من بيان كل ما يحتفّ من قرائن بحقيقة مسألته، ليقف المفتي على حقيقة المسألة بكل أبعادها مما يكون سبباً في بلوغ الحق وإدراكه.

والمجتمع وأفراده لهم دور كذلك في صيانة الفتوى ودلالة المستفتي على من يفتيه الفتوى الصحيحة، ودليل ذلك قصة الرجل الذي قتل تسعةً وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض فدلوه على مفت أفتاه أن لا توبة له فقتله المستفتي وأكمل به المائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدلوه، فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة، وقال له: اخرج من أرضك فإنها بلد سوء فخرج، فمات في الطريق فغفر الله له(١).

فدلالة الناس للقاتل المستفتي أول مرة خاطئة وعواقبها كانت وخيمة حيث أدت إلى قتل المفتي، ولو اخترمت المنية المستفتي وهو في تلك الحالة من الإصرار على القتل لأدى ذلك إلى سوء عاقبته في الدار الآخرة، وفي المرة الثانية كانت دلالة الناس للمستفتي صحيحة فحصل بذلك خير للمستفتي حيث تاب وأقلع عن الإفساد في الأرض، وسلم المجتمع من شره، كما سلم المفتي من شرّه أيضاً، وكانت عاقبة المستفتي حميدة حيث مات مقبلاً على الله تائباً إليه.

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء (ص٥٨٥ ـ رقم ٣٤٧٠)، ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (ص١١٩٩ ـ رقم ٧٠٠٨).

ومن الأدلة الواضحة على أثر الفتيا على الجميع المستفتي والمفتي والمجتمع حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلوا**»[(١)].

فتأمل قوله عليه السلام: «**فضلوا وأضلوا**»، قال أبو محمد عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي رحمه الله في فوائده: «فيه دليل على أن من عمل بفتوى على غير وجهها يلحقه من الإثم مثل ما يلحق المفتي بها، لأنه عليه السلام قد جعله ضالاً كما جعل ضلال المفتي له بذلك سواء»[(٢)].

ومن علامات العالم والمفتي التقي أنه لا يستشرف للفتيا، ويفرح إذا كُفي بغيره، قال سفيان: «من أحب أن يُسأل فليس بأهل أن يُسأل»[(٣)].

وهكذا كان الصحابة يتدافعون الفتوى، قال البراء: «لقد رأيت ثلاث مئة من أهل بدر ما منهم من أحد إلا وهو يُحب أن يكفيه صاحبه الفتوى»[(٤)].

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى رحمه الله: «أدركت عشرين ومئة من أصحاب رسول الله ﷺ من الأنصار، ما منهم رجل يُسأل عن شيء إلا ودّ أن أخاه كفاه».

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب كيف يُقبض العلم (ص٢٢ ـ رقم ١٠٠)، ومسلم، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه (ص١١٦٤ ـ رقم ٦٧٩٦).
(٢) بهجة النفوس: ١/ ١٤٤.
(٣) أخلاق العلماء ص١٢١.
(٤) تعظيم الفتيا، لابن الجوزي ص٧٢.

وقال سفيان: «أدركت الفقهاء وهم يكرهون أن يجيبوا في المسائل والفتيا، ولا يُفتوا حتى لا يجدوا بدّاً من أن يُفتوا»(١).

والاستشراف للفتوى سبب للحرمان من التوفيق، قال ابن القيم رحمه الله: «قال بعض العلماء: قلّ من حرص على الفتوى وسابق إليها، وثابر عليها إلا قلّ توفيقه، واضطرب في أمره، وإذا كان كارهاً لذلك غير مختار له ما وجد مندوحة عنه، وقدر أن يُحيل بالأمر فيه على غيره، كانت المعونة له من الله أكثر، والصلاح في جوابه وفتاويه أغلب».

وقال بشر الحافي: «من أحب أن يُسأل فليس بأهل أن يُسأل»(٢).

والمصلحة أحياناً تقتضي التغافل عن سؤال السائل، فهذا الأوزاعي كان إذا سُئل عن شيء من تفسير القرآن غمَّض عينيه ساعة، وتغافل كأنه لم يسمع(٣).

وكذلك الحال بالنسبة للأسئلة التي تُوقع الفتن، فإن المصلحة تقتضي الإعراض عنها، قال الآجري رحمه الله: «وإذا سُئل عن مسألة فعلم أنها من مسائل الشغب ومما يُورث بين المسلمين الفتنة استعفى منها، وردّ السائل إلى ما هو أولى به على أرفق ما يكون»(٤).

وكذلك يمتنع الفقيه من الفتيا إذا تلمح غرض السائل في استدراجه إلى ما هو أعظم من مسألته، قال المروذي.

---

(١) أخلاق العلماء ص١٢٠.
(٢) بدائع الفوائد: ٣/ ١٢٨٦.
(٣) فضائل القرآن للمستغفري: ١/ ٣٠٩.
(٤) أخلاق العلماء ص٧٨.

قال أبو عبد الله: سألوني - يعني في المسائل التي وردت عليه من قبل الخليفة - فلم أجب، قلت: فلأي شيء امتنعت أن تجيب؟ قال: خفت أن تكون ذريعةً إلى غيرها[١].

وسُئل الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ عن مسألة فسكت، فقيل له: ألا تجيب يرحمك الله؟ فقال: حتى أدري الفضل في سكوتي أو في الجواب[٢].

وكذلك إذا علم الفقيه من نفسه نقصاً في التركيز، امتنع من الفتيا، قال المروذي: سمعت أبا عبد الله، وسأله علي بن الجهم عن شيء فلم يجبه، وقال: فقدت بعض ذهني[٣].

وكان المفتون من السلف يعظون المستفتين بل ويزجرونهم لتغير أحوالهم، قال منذر الثوري: كان الربيع إذا أتاه الرجل يسأله، قال له: اتق الله فيما علمت، وما استؤثر به عليك، فكِلْه إلى عالمه، لأنا عليكم في العمد أخوف مني عليكم في الخطأ، وما خيِّركُم اليوم بخير، ولكنه خير من آخر شرٌّ منه، وما تتبعون الخير حق اتباعه، وما تفرُّون من الشر حق فراره، ولا كلَّ ما أنزل الله على محمد ﷺ أدركتم، ولا كل ما تقرؤون تدرون ما هو، ثم يقول: السرائر السرائر اللاتي يخفين من الناس وهنّ لله بواد، التمسوا دوائهن، وما دواؤهن إلا أن يتوب ثم لا يعود[٤].

---

(١) الآداب الشرعية: ١/٥٩٨.
(٢) بدائع الفوائد: ٣/١٢٨٥.
(٣) الآداب الشرعية: ١/٥٩٨.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٤/٢٥٩.

وكان السلف يزجرون من يسأل سؤال متكلف، أو يسأل عن الأمر الواضح البيّن بنفسه، فقد سُئل ابن مسعود ﷺ عن الجمل في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فقال: هو زوج الناقة، قال أبو المظفر السمعاني رحمه الله: «كأنه استحمق السائل حين سأله عما لا يخفى»[١].

ومثل هذه الأسئلة أجوبة السلف لها لا تخلو من دعابة تناسب تلك الأسئلة، من ذلك: قال الأعمش: أتى رجلٌ الشعبي، فقال: ما اسم امرأة إبليس؟ قال: ذاك عرسٌ ما شهدته[٢].

وقال حماد عن أيوب: سمعت رجلاً قال لعكرمة: فلان قذفني في النوم، قال: اضرب ظِلَّه ثمانين[٣].

وكان السلف يزجرون من يسأل عن المسائل التوقيفية لأنها غير معلّلة، قال سليمان بن بلال: سمعت ربيعة بن أبي عبد الرحمن يُسأل: لم قُدِّمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة، وإنما نزلتا بالمدينة؟ فقال: قُدِّمتا، وأُلِّف القرآن على علم ممن ألَّفه به، ومن كان معه فيه، واجتماعهم على علمهم بذلك، فهذا مما يُنتهى إليه، ولا يُسأل عنه[٤].

وقال ابن الزبير: قلت لعثمان بن عفان ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها ـ أو تدعها؟

(١) تفسير القرآن: ٢/ ١٨٢.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣١٢.
(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٩).
(٤) تاريخ المدينة: ٣/ ١٠١٦.

قال: يا ابن أخي، لا أُغير شيئاً منه من مكانه.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله معلقاً: «ومعنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان رضي الله عنه: إذا كان حكمها قد نُسخ بالأربعة الأشهر، فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها، وبقاء رسمها بعد التي نسختها، يوهم بقاء حكمها؟

فأجابه أمير المؤمنين بأن هذا أمر توقيفي، وأنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها، فأثبتها حيث وجدتها»(١).

وكان بعض السلف يُبكت السائل إذا تلمح أن غرضه مغالطة المفتي أو تهجينه، فهذا صاعد بن الحسن البغدادي اللغوي: سأله رجل أعمى على سبيل التهكم بحضرة جماعة، فقال له: ما الجَرَنْفُلُ؟ فأطرق ساعة، وعرف أنه افتعل هذه اللفظة، ثم رفع رأسه إليه، فقال: هو الذي يأتي نساء العميان، ولا يتعداهن إلى غيرهن، فاستحى ذلك الأعمى، وضحك الحاضرون(٢).

وقبل أن يشرع المُفتي في الجواب يستعين الله عز وجل ويسأله السداد، قال إسماعيل بن أبي أويس رحمه الله: «سألت خالي مالكاً عن مسألة، فقال لي: قِرَّ، ثم توضأ، ثم جلس على السرير، ثم قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، وكان لا يُفتي حتى يقولها»(٣).

وليكن غرض المفتي موافقة الحق، ولا يعجل بالجواب طلباً لقضاء حاجة المستفتي، فإن ذلك خطراً على دينه، كان مالك رحمه الله يقول: «من أجاب في مسألة فينبغي من قبل أن يجيب فيها أن يعرض

---

(١) تفسير القرآن: ١/ ٦٦٢.
(٢) البداية والنهاية: ١٥/ ٦١٣.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٨/ ٦٦.

نفسه على الجنة أو النار، وكيف يكون خلاصه في الآخرة»[١].

وسأل رجل الإمام مالك أياماً لم يجبه، فقال: يا أبا عبد الله! إني أريد الخروج، وقد طال التردد إليك، فأطرق طويلاً، ثم رفع رأسه، وقال: ما شاء الله يا هذا، إني إنما أتكلم فيما أحتسب فيه الخير، ولست أُحسن مسألتك هذه.

وعن عقبة بن مسلم أن ابن عمر رضي الله عنهما سُئل عن شيء، قال: لا أدري، ثم أتبعها، فقال: أتريدون أن تجعلوا ظهورنا لكم جسوراً في جهنم أن تقولوا: أفتانا ابن عمر رضي الله عنهما بهذا[٢].

وكان سعيد بن المسيب رحمه الله لا يكاد يفتي فتياً، ولا يقول شيئاً، إلا قال: اللهم سلّمني وسلم مني[٣].

وينبغي على المستفتي أن يلطف بالمفتي في طريقة سؤاله ولا يضجره، فإن حسن السؤال نصف العلم، قال العلامة الطوفي رحمه الله: «لما كانت الفائدة إنما تحصل بالسؤال والجواب جميعاً، كان لكل واحد منهما نصف العلم، أي نصف السبب المحصِّل للعلم»[٤].

فهذا عبد الله ابن الإمام أحمد رحمه الله قال مبيناً أثر سوء السؤال في أجوبة أبيه إمام أهل السُّنة والجماعة، حيث قال: «كنت أرى مهنّا يسأل أبي حتى يضجره، ويُكرر عليه جداً، حتى ربما قام وضجر، وكنت أشبهه بابن جريج حين كان يسأل عطاء»[٥].

---

(١) بدائع الفوائد ٣/ ١٢٨٥.
(٢) فضائل القرآن للمستغفري: ١/٣٠٨.
(٣) بدائع الفوائد: ٣/١٢٨٦.
(٤) الصعقة الغضبية ص٢٩٥.
(٥) طبقات الحنابلة: ١/٣٤٦.

وقال زيد بن أسلم لمحمد بن عجلان: «اذهب فتعلم كيف يُسأل ثم تعال»[١].

فالسؤال له فقهه وأدبه ليستخرج المستفتي كنوز العالم، فلا يسأله بطريقة تضجره فتحول بينه وبين اعتدال مزاجه، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومعلوم أن الرأي لا يتحقق إلا مع اعتدال المزاج»[٢].

فإذا أضجرت المستفتي فقد سددت على نفسك باب الانتفاع منه، قال ابن عقيل الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا نفرت النفوس عميت القلوب، وخمدت الخواطر، وانسدت أبواب الفوائد»[٣].

فإذاً ليحرص المستفتي على إحسان السؤال، قال الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما هذا العلم خزائن، وتفتحها المسألة»[٤].

وليحذر المستفتي من تكرار السؤال بلا حاجة، فإنه من دواعي غضب بعض الفقهاء، فقد روى عبد الرحمن بن حُجيرة عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن امرأته سألته عن الساعة التي يُستجاب فيها يوم الجمعة للعبد المؤمن، فقال لها: هي مع رفع الشمس بيسير، فإن سألتني بعدها، فأنت طالق[٥].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وينبغي أيضاً للمتعلم أن يلطف بالسؤال، ويرفق بمعلمه، ولا يسأله في حالة ضجر أو ملل

(١) المعرفة والتاريخ: ١/ ٦٧٥.
(٢) بدائع الفوائد: ٣/ ١٣٦.
(٣) الواضح في أصول الفقه: ١/ ٥٢٨.
(٤) المعرفة والتاريخ: ١/ ٦٣٤.
(٥) زاد المعاد (١/ ٣٩٣).

أو غضب، لئلا يتصور خلاف الحق مع تشويش الذهن، وأقل الحالات أن يقع الجواب ناقصاً»[١].

والأصل أن يباشر السؤال صاحب المسألة، فعن محمد بن عبد الرحمن أن رجلاً من أهل العراق، قال له: سل لي عروة ابن الزبير عن رجل يُهلُّ بالحج، فإذا طاف بالبيت أيحل أم لا؟ فإن قال لك: لا يحل، فقل له: إن رجلاً يقول ذلك، قال: فسألته، فقال: لا يحل من أهلّ بالحج إلا بالحج، قلت: فإن رجلاً كان يقول ذلك، قال: بئس ما قال...، فقال عروة: فما باله لا يأتيني بنفسه يسألني؟ أظنه عراقياً، قلت: لا أدري، قال فإنه قد كذب[٢].

وتجوز الاستنابة في السؤال خصوصاً إذا وُجدت مصلحة شرعية تقتضي ذلك، فهذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكّل المقداد رضي الله عنه أن يسأل النبي ﷺ عن حكم المذي، لمكان زوجته فاطمة بنت النبي ﷺ[٣].

فتاوى العلماء للسلاطين:

من خلال الاستقراء نجد أن المفتين للسلاطين ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ أهل عنت يفتون السلاطين بما يوجب عليهم العسر والشدة والمشقة بغير سبب ولا مسوغ شرعي، وهذا لا يجوز.

(١) الفتاوى السعدية ص١٠٢.
(٢) رواه مسلم، كتاب الحج، باب بيان أن المحرم بعمرة لا يتحلّل بالطواف قبل السعي (ص٥٢٥ ـ رقم ٣٠٠١).
(٣) رواه البخاري، كتاب العلم، باب مَن استحيا فأمر غيره بالسؤال (ص٢٨ ـ رقم ١٣٢)، ومسلم، كتاب الحيض، باب المذي (ص١٣٨ ـ رقم ٦٩٥).

مثال ذلك: الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأندلسي وقع يوماً في نهار رمضان على جارية له، فاستفتى يحيى بن يحيى الليثي رحمه الله، فقال له يحيى: يصوم الأمير أكرمه الله شهرين متتابعين، فلما قال ذلك يحيى: سكت القوم، فلما خرجوا سألوه لِمَ خصّه بذلك دون غيره مما هو فيه، مع أن كفارته العتق؟

فقال: لو فتحنا له هذا الباب وطئ كل يوم وأعتق، فحمل على الأصعب عليه لئلا يعود[١]، وهذا الفعل لا شك أنه خطأ، فالمصلحة التي من أجلها تشدد يحيى الليثي في فتيا السلطان ملغاة وغير معتبرة في الشرع[٢].

٢ ـ أهل تتبع رخص العلماء وزلاتهم، من ذلك ما قاله إسماعيل القاضي رحمه الله: «دخلت مرةً على المعتضد، فدفع إليَّ كتاباً، فنظرت فيه، فإذا قد جمع له فيه الرُّخص من زلل العلماء، فقلت: مصنف هذا زنديق.

فقال: ألم تصح هذه الأحاديث؟ قلت: بلى، ولكن من أباح النبيذ لم يُبح المتعة، ومن أباح المتعة لم يبح الغناء، وما من عالم إلا وله زلة، ومن أخذ بكل زلل العلماء ذهب دينه، فأمر بالكتاب فأُحرق»[٣].

٣ ـ أهل عدل ووسط يُعظمون الأوامر والنواهي الشرعية، فإذا أراد أحدهم أن يفتي بالرخصة أفتى عن تحرٍّ لا عن هوى وشهوة، واحتاط لدينه، واستفتى أهل الديانة والورع، قال محمد بن يحيى بن

---

(١) ترتيب المدارك (١/ ٥٤٢).
(٢) منار أصول الفتوى ص٣١٢ لإبراهيم اللَّقاني المالكي.
(٣) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٦٥).

سلام عن أبيه[١]: «ينبغي للعالم أن يحمل الناس على الرخصة والسعة ما لم يخف المأثم».

وهذا لا شك مصداق ما حكته عائشة عن النبي ﷺ: «أنه ما خُير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً».

وقال معمر رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «إنما العلم أن تسمع بالرخصة من ثقة، فأما التشديد فيحسنه كل أحد».

وكان الولاة من أهل الخير والديانة يردّون الفتاوى المنحرفة البعيدة عن الكتاب والسنّة في وجوه أصحابها، قال الإمام أحمد: بلغني أن المهدي اشترى جارية فأعجبته، فقيل له: أعتقها وتزوّجها، فقال: سبحان الله ما أعجب هذا؟ أبطلوا كتاب الله والسُنة، جعل الله على الحرائر العدة من جهة الحمل، فليس من امرأة تُطلَّق أو يموت زوجها إلا تعتد من أجل الحمل، ففرج يوطأ يشتريه، ثم يعتقه على المكان، فيتزوجها فيطؤها، فإن كانت حاملاً كيف يصنع؟

يطؤها رجل اليوم، ويطؤها الآخر غداً، هذا نقض الكتاب والسُنة، قال النبي ﷺ: **«لا تُوطأ حامل حتى تضع، ولا غير حامل حتى تحيض»**، ولا يُدرى هي حامل أم لا؟

سبحان الله ما أسمج هذا![٣].

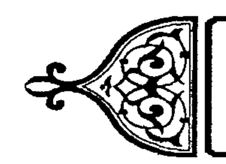
۞ ۞ ۞

(١) طرح التثريب (٧/ ٢١٠).
(٢) طرح التثريب (٧/ ٢١٠).
(٣) بيان الدليل على بطلان التحليل ص٢٧٦.

الدرس الخامس عشر



شهر الجهاد



غزوة بدر كانت في شهر رمضان، وفتح مكة كان في شهر رمضان، والجهاد فيه جلد ونشاط وقوة ورباطة جأش، فهذا دالٌ على ما كان من النبي ﷺ من السعي في إعزاز الدين، وطلب إظهاره على الدين كله ولو كره المشركون.

فلم يكن رمضان شهر خمول وكسل، بل كان شهر نشاط وجد وعمل صالح، قيام بالليل وجهاد بالنهار.

وهنا لا بدّ من بيان مفهوم الجهاد العام حتى نجتهد في عمله وتحقيقه لندرك فضل سنام الإسلام، ولنعرف معاني وحقائق الطاعات الكبرى.

فنقول إن الجهاد هو بذل الجهد في تحقيق ما يُحبه الله، وهذا هو المعنى العام الواسع للجهاد، فيدخل في ذلك كل عمل صالح، وبهذا يتبين فساد وانحراف فكر جماعة ما يُسمى «الجهاد» حيث توهموا أن الجهاد هو فقط جهاد السنان، ولذلك كتبوا كتاباً في ذلك سموه «الفريضة الغائبة»، وكأن الناس مقطوعون عن هذه الطاعة حتى جاء هؤلاء فأحيوها، ثم أحيوها بمفهوم منحرف وهو الاغتيالات.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ(١): «روى الترمذي من حديث أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع**». قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب رواه بعضهم فلم يرفعه. وإنما جعل طلب العلم في سبيل الله، لأن به قوام الإسلام كما أن قوامه بالجهاد، فقوام الدين بالعلم والجهاد، ولهذا كان الجهاد نوعين: جهاد باليد والسنان، وهذا المشارك فيه كثير، والثاني: الجهاد بالحجة والبيان، وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل، وهو جهاد الأئمة، وهو أفضل الجهادين لعظم منفعته وشدة مؤنته وكثرة أعدائه، قال تعالى في سورة الفرقان وهي مكية: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا * فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١ ـ ٥٢].

فهذا جهاد لهم بالقرآن، وهو أكبر الجهادين، وهو جهاد المنافقين أيضاً، فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين، بل كانوا معهم في الظاهر، وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم، ومع هذا فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣]، ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن.

والمقصود أن سبيل الله هي الجهاد، وطلب العلم، ودعوة الخلق به إلى الله».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللهُ مبيناً المعنى العام للجهاد(٢): «أليس التعلم والتعليم والصبر على ذلك من أكبر الجهاد؟

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٧٠).
(٢) الرياض الناضرة والحدائق النيّرة الزاهرة ص١٨٢ ـ ١٨٣.

أليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة للخلق من الجهاد؟

أليس تنفيذ الحق ونصره، وردّ الباطل وقمعه من الجهاد؟

أليس تعليم الجاهلين، وتنبيه الغافلين، وإيقاظ المعرضين، وموعظة المعارضين، ومجادلتهم من الجهاد؟

هل تتمّ الأمور بدون الجهاد؟ وهل يستقيم الهدى والاهتداء، ويحصل الصُّعود والارتقاء إلا بالجهاد؟

طوبى لأهل العلم، والدين، والجهاد».

عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع**»[1].

وقال معاذ بن جبل ﷺ[2] «تعلَّموا العلم، فإن تعلمه لله حسنة، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله معلقاً على أثر معاذ[3]: «فجعل البحث عن العلم من الجهاد، ولا بد في الجهاد من الصبر».

وقال أبو الدرداء ﷺ[4]: «من رأى الغدو والرواح إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص عقله ورأيه».

(١) رواه الترمذي، كتاب باب فضل طلب العلم (٥/ ٢٩ ـ رقم ٢٦٤٧).
(٢) جامع بيان العلم وفضله ص٩٤.
(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٩).
(٤) جامع بيان العلم وفضله ص٦٠.

وقال الحسن البصري[(١)]: «من جاءه الموت وهو يطلب العلم يحيى به الإسلام، لم يكن بينه وبين الأنبياء في الجنة إلا درجة».

وقال ابن القيم رحمه الله: «ولا يعدلُ مداد العلماء إلا دم الشهداء، والرفعة وعلو المنزلة في الدارين إنما هي لهاتين الطائفتين، وسائر الناس رعيةٌ لهما، منقادون لرؤسائهما»[(٢)].

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله[(٣)]: «وكذلك من يشتغل بالعلم، لأنه أحد نوعي الجهاد، فيكون اشتغاله بالعلم كالجهاد في سبيل الله والدعوة إليه».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله[(٤)]: «ومن أعظم الجهاد سلوك طريق التعلم والتعليم، فإن الاشتغال بذلك لمن صحّت نيته لا يوازنه عمل من الأعمال، لما فيه من إحياء العلم والدين، وإرشاد الجاهلين، والدعوة إلى الخير والنهي عن الشر، والخير الكثير الذي لا يستغني العباد عنه».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[(٥)]: «إن المتفقهين في دين الله يوازون تماماً المجاهدين في سبيل الله.

والذي يعرض بصره وفكره وقلبه لإدراك المسائل العلمية كالذي يعرض رقبته لأعداء الإسلام ليقاتلهم حتى تكون كلمة الله هي العليا،

(١) الإبانة لابن بطة (١/ ٢٠٠ ـ رقم ٣٦)، جامع بيان العلم وفضله (١/ ٤٦).
(٢) الفروسية ص١٥٧.
(٣) الحكم الجديرة بالإذاعة، جامع رسائل ابن رجب (١/ ٢٤٤).
(٤) الفتاوى السعدية ص٤٥.
(٥) وصايا وتوجيهات لطلبة العلم (١/ ١٧٥ ـ ١٧٦).

ولست أقول ذلك مجازفة أو محاباة لكم، ولكني أقول ذلك مستنداً إلى كتاب الله عز وجل، فقد قال الله تبارك وتعالى ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]، اللام في قوله ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ ليست تعليلاً للفرقة النافرة، ولكنها تعليل للفرقة الباقية ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾ أي القاعدون الذين لم ينفروا للجهاد ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، فأنتم الآن ومن في ميدان القتال سواء».

وطلب الرزق الحلال والتكسب كذلك من الجهاد في سبيل الله، فعن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «**طلب الحلال جهاد، وإن الله يُحب العبد المؤمن المحترف**»[(١)].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه[(٢)]: «ما خلق الله موتة أموتها بعد القتل في سبيل الله أحب إليَّ من أن أموت بين شعبتي رحل أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله».

وكذلك العدل في الرعية جهاد، سواء الرعاية الكبرى كرعاية السلطان للشعب، أو الرعاية الصغرى لكل من ولي أمراً، كرعاية الوالد لأسرته، ورعاية أمير السفر لمن سافر معه، أو رعاية مسؤول العمل لمن تحت مسؤوليته من الموظفين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(٣)]: «ولهذا كانت الولاية لمن يتخذها ديناً يتقرَّب به إلى الله، ويفعل فيها الواجب بحسب الإمكان،

---

(١) إصلاح المال بواسطة الآداب الشرعية (٢/ ٢٧٧).
(٢) إصلاح المال بواسطة الآداب الشرعية (٢/ ٢٧٧).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٥).

من أفضل الأعمال الصالحة، حتى روى الإمام أحمد في مسنده عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن أحب الخلق إلى الله إمام عادل، وأبغض الخلق إلى الله إمام جائر**».

وقال أيضاً: «فلما تغيّرت الرعية من وجه والرعاة من وجه، تناقصت الأمور، فإذا اجتهد الراعي في إصلاح دينهم ودنياهم بحسب الإمكان كان من أفضل أهل زمانه، وكان من أفضل المجاهدين في سبيل الله، فقد روي «يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة»، وفي مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال: «**أحب الخلق إلى الله إمام عادل، وأبغضهم إليه إمام جائر**».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل...**».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أفضل الشهداء عند الله المقسطون**»(١).

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط، ورجل رحيم القلب بكل ذي قربى ومسلم، ورجل غني عفيف متصدق**».

وفي السنن عنه ﷺ أنه قال: «**الساعي على الصدقة بالحق، كالمجاهد في سبيل الله**».

---

(١) رواه أبو نعيم في فضيلة العادلين من الولاة (ص١٣٠ ـ رقم ٢٢)، وقال الحافظ السخاوي في تخريج أحاديث العادلين ص١٣٠: «رجاله ثقات إلا سعيد بن بشير، فهو صدوق، إلا أن ابن حبان قال عنه: يروي عن قتادة ما لا يتابع عليه»، باختصار.

ومن معاني الجهاد الدعوة إلى الله، وكان السلف يُقدمونه على الحج والجهاد في سبيل الله، فقد قال أبو داود في إبراهيم بن طهمان: «ثقة من أهل سرخس، خرج يريد الحج، فقدم نيسابور، فوجدهم على قول جهم، فقال: الإقامة على هؤلاء أفضل من الحج»[١].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهم، وهم خلفاء الرسل في أممهم، والناس تبع لهم، والله سبحانه قد أمر رسوله ﷺ أن يُبلّغ ما أُنزل إليه، وضمن له حفظه وعصمته من الناس، وهكذا المبلّغون عنه من أمته لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم لهم، وقد أمر النبي ﷺ بالتبليغ عنه ولو آية، ودعا لمن بلّغ عنه ولو حديثاً، وتبليغ سنته ﷺ إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو، لأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن فلا يقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم ـ جعلنا الله تعالى منهم بمنّه وكرمه»[٢].

وكذلك حفظ الأسرة ورعاية شؤون الأولاد والقيام على حوائجهم من الجهاد في سبيل الله، بل قدّمه السلف على جهاد السنان، قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأصحابه في الغزو: «هل تعلمون عملاً أفضل من هذا؟ قالوا: لا نعلمه، قال: بلى أنا أعلمه، رجل متعفف محترف أبو عيال، قام من الليل، فوجد صبيانه مكشفين فغطاهم، وثار إلى صلاته»[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٧/ ٣٨٠.
(٢) جلاء الأفهام ص٥٨٢.
(٣) الإيمان الأوسط ص٦١.

فتأمل هذا الكلام الصادر من ابن المبارك وهو يباشر القتال والجهاد في سبيل الله، وليس من المخلفين.

وعن يحيى بن أبي كثير عن الأزدي قال: «سألت ابن عباس ﵄ عن الجهاد، فقال: ألا أدلك على خير من الجهاد؟ فقلت: بلى، قال: تبني مسجداً وتُعلّم فيه الفرائض والسُّنة والفقه في الدين»[١].

وبرّ الوالدين كذلك من الجهاد في سبيل الله، فعن عبد الله ابن عمر ﵄ قال: قال رجل للنبي ﷺ: «أجاهد؟ قال: **لك أبوان؟** قال: نعم، قال: **ففيهما فجاهد**»[٢].

وقال عبد الله بن عباس ﵄: «إني لا أعلم عملاً أقرب إلى الله عز وجل من برّ الوالدة»[٣].

وجهاد النفس وحملها على الطاعة وصرفها عن المعصية هو من الجهاد في سبيل الله، قال عبد الله بن عمر ﵄ لمن سأله عن الجهاد: «ابدأ بنفسك فجاهدها، وابدأ بنفسك فاغزها»[٤].

وعن عبد الله بن عمرو ﵄ أن النبي ﷺ قال: «**والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله**»[٥].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ص٦٠.
(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب لا يجاهد إلا بإذن الوالدين (١٠/٤٠٣ ـ رقم ٥٩٧٢)..
(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (١/٤ ـ رقم ٤) وصحّحه العلامة الألباني ﵀ في الصحيحة (٢٧٩٩).
(٤) جامع العلوم والحكم (١/٤٨٩).
(٥) رواه أحمد (٦/٢١ ـ ٢٢)، والترمذي (٤/١٦٥ ـ رقم ١٦٢١)، وقال: «حديث حسن صحيح» دون قوله: «في طاعة الله»، وابن أبي عاصم في «الجهاد» (١/١٥٢ ـ رقم ١٤)، وصحّحه الألباني كما في السلسلة الصحيحة (٢/٨١ ـ رقم ٥٤٩).

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «وفُسر المجاهد بأنه الذي جاهد نفسه على طاعة الله، فإن النفس ميالةٌ إلى الكسل عن الخيرات، أمارةٌ بالسوء، سريعة التأثر عند المصائب، وتحتاج إلى صبر وجهاد في إلزامها طاعة الله، وثباتها عليها، ومجاهدتها عن معاصي الله وردعها عنها، وجهادها على الصبر عند المصائب، وهذه الطاعات هي امتثال المأمور، واجتناب المحظور، والصبر على المقدور.

فالمجاهد حقيقة من جاهدها على هذه الأمور لتقوم بواجبها ووظيفتها»(١).

ومن أوضح الأدلة على دخول هذا النوع في معنى الجهاد قوله ﷺ: **«وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط»**(٢).

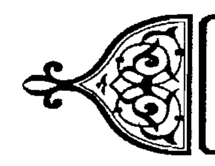


(١) بهجة قلوب الأبرار ص٥١ ـ ٥٢.

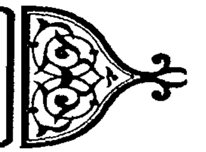
(٢) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره (١/ ٢١٩ ـ رقم ٢٥١).



الدرس السادس عشر



أسباب النصر



لقد نصر الله المؤمنين في غزوة بدر وفتح مكة وكلها في رمضان، ولهذا النصر أسبابه، ولظهور الأعداء علينا في هذه الأيام أسبابه، فلنتعرف على هذه الأسباب لنعالج مواطن الخلل من أنفسنا.

قال ابن القيم رحمه الله: «فإن العبد إذا خلصت نيته لله تعالى، وكان قصده وهمه وعمله لوجهه سبحانه كان الله معه، فإنه سبحانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، ورأس التقوى والإحسان خلوص النية لله في إقامة الحق، والله سبحانه لا غالب له، فمن كان معه فمن ذا الذي يغلبه أو يناله بسوء؟

فإن كان الله مع العبد فمن يخاف؟ وإن لم يكن معه فمن يرجو؟ وبمن يثق؟ ومن ينصره من بعده؟ فإذا قام العبد بالحق على غيره وعلى نفسه أولاً، وكان قيامه بالله ولله لم يقم له شيء، ولو كادته السموات والأرض والجبال لكفاه الله مؤنتها، وجعل له فرجاً ومخرجاً، وإنما يُؤتى العبد من تفريطه وتقصيره في هذه الأمور الثلاثة، أو في اثنين منها، أو في واحد، فمن كان قيامه في باطل لم

يُنصر، وإن نُصر نصراً عارضاً فلا عاقبة له، وهو مذموم مخذول، وإن قام في حق لكن لم يقم فيه لله وإنما قام لطلب المحمدة والشكور والجزاء من الخلق أو التوصل إلى غرض دنيوي كان هو المقصود أولاً، والقيام في الحق وسيلة إليه، فهذا لم تضمن له النصرة، فإن الله إنما ضمن النصرة لمن جاهد في سبيله، وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، لا لمن كان قيامه لنفسه ولهواه، فإنه ليس من المتقين ولا من المحسنين، وإن نُصر فبحسب ما معه من الحق، فإن الله لا ينصر إلا الحق، وإذا كانت الدولة لأهل الباطل فبحسب ما معهم من الصبر، والصبر منصور أبداً، فإن كان صاحبه محقاً لكان منصوراً له العاقبة، وإن كان مبطلاً لم يكن له عاقبة، وإذا قام العبد في الحق لله ولكن قام بنفسه وقوته ولم يقم بالله مستعيناً به متوكلاً عليه مفوضاً إليه برياً من الحول والقوة إلا به فله من الخذلان وضعف النصرة بحسب ما قام به من ذلك، ونكتة المسألة أن تجريد التوحيدين في أمر الله لا يقوم له شيء البتة، وصاحبه مؤيد منصور ولو توالت عليه زُمر الأعداء»[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومتى اهتمت الولاة بإصلاح دين الناس، صلح للطائفتين دينهم ودنياهم، وإلا اضطربت الأمور عليهم، وملاك ذلك كله صلاح النية للرعية، وإخلاص الدين كله لله، والتوكل عليه، فإن الإخلاص والتوكل جماع صلاح الخاصة والعامة، كما أمرنا أن نقول في صلاتنا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فإن هاتين الكلمتين قد قيل: إنهما يجمعان معاني الكتب المنزلة من

(١) إعلام الموقعين: ٢/ ١٥٩ ـ ١٦٠.

السماء، وقد روي أن النبي ﷺ كان مرة في بعض مغازيه، فقال: «**يا مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين**»، فجعلت الرؤوس تندر عن كواهلها، وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك في غير موضع من كتابه، كقوله سبحانه وتعالى ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله سبحانه وتعالى ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠]، وكان النبي ﷺ إذا ذبح أضحيته يقول: «**اللهم منك ولك**».

وأعظم عون لولي الأمر خاصة ولغيره عامة ثلاثة أمور:

أحدها: الإخلاص لله، والتوكل عليه بالدعاء وغيره، وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن.

الثاني: الإحسان إلى الخلق بالنفع، والمال الذي هو الزكاة.

الثالث: الصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب.

ولهذا يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيراً، كقوله سبحانه وتعالى ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ﴾ [البقرة: ٤٥]، وكقوله سبحانه وتعالى ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ * وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٤ ـ ١١٥]، وقوله سبحانه وتعالى ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ﴾ [طه: ١٣٠]، وكذلك في سورة ق ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٨].

وأما قرانه سبحانه وتعالى بين الصلاة والزكاة فكثير جداً، فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية»[١].

وقال ابن القيم رحمه الله: «قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، فالآية على عمومها وظاهرها، وإنما المؤمنون يصدر منهم من المعصية والمخالفة التي تضادُّ الإيمان ما يصير به للكافرين عليهم سبيل، بحسب تلك المخالفة، فهم الذين تسببًّوا إلى جعل السبيل عليهم، كما تسبّبوا إليه يوم أحد بمعصية الرسول ومخالفته»[٢].

وظهور البدع من أسباب ظهور الكفار على ديار المسلمين، فإن البدع شرع مبدَّل، والنصرة الموعودة إنما هي للشرع المنزل، وتبديل الشرع بالبدع يوجب العقوبة من الله، ومنها تسليط العدو، فلذلك وجب رد البدع ونشر السُّنة، وهذا جهاد الخاصة وهم العلماء.

قال ابن دقيق العيد رحمه الله: «إنما استولت التتر على بلاد المشرق لظهور الفلسفة فيهم، وضعف الشريعة»[٣].

والبدع من أسباب زوال وسقوط الدول، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله «وهذا الجعد إليه يُنسب مروان بن محمد الجعدي آخر

---

(١) السياسة الشرعية ص١٨٤ ـ ١٨٦.
(٢) إغاثة اللهفان: ١/ ١٩٥ ـ ١٩٦.
(٣) مجموع الفتاوى: ٢/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

خلفاء بني أمية، وكان شؤمه عاد عليه حتى زالت الدولة، فإنه إذا ظهرت البدع التي تخالف دين الرسل انتقم الله ممن خالف الرسل، وانتصر لهم»(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فلما ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول ﷺ سلطت عليهم الأعداء فخرجت الروم النصارى إلى الشام والجزيرة مرة بعد مرة، وأخذوا الثغور الشامية شيئاً بعد شيء، إلى أن أخذوا بيت المقدس في أواخر المائة الرابعة.

وبعد هذا بمدة حاصروا دمشق، وكان أهل الشام بأسوأ حال بين الكفار النصارى والمنافقين الملاحدة، إلى أن تولّى نور الدين الشهيد، وقام بما قام به من أمر الإسلام وإظهاره، والجهاد لأعدائه»(٢).

وتحدث والدنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله عن أسباب النصر الحقيقية فقال: «لقد نصر الله المؤمنين في مواطن كثيرة في بدر والأحزاب والفتح وحنين وغيرها، نصرهم الله وفاءً بوعده ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥١ ـ ٥٢]. نصرهم الله لأنهم قائمون بدينه وهو الظاهر على الأديان كلها، فمن تمسّك به فهو ظاهر على الأمم كلها ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]. نصرهم الله تعالى

---

(١) مجموع الفتاوى: ٣/ ١٧٧.
(٢) مجموع الفتاوى: ٣/ ١٧٨.

لأنهم قاموا بأسباب النصر الحقيقية المادية منها والمعنوية، فكان عندهم من العزم ما برزوا به على أعدائهم أخذاً بتوجيه الله تعالى لهم، وتمشياً مع هديه وتثبيته إياهم ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤٠]، ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤]، ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ * إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٥ ـ ٣٦].

فكانوا بهذه التقوية والتثبيت يسيرون بقوة وعزم وجد، وأخذوا بكل نصيب من القوة امتثالاً لقول ربهم سبحانه وتعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، من القوة النفسية الباطنة والقوة العسكرية الظاهرة.

نصرهم الله تعالى لأنهم قاموا بنصر دينه ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ ـ ٤١].

ففي هاتين الآيتين الكريمتين وعد الله بالنصر من ينصرُه وعداً مؤكداً بمؤكدات لفظية ومعنوية، أما المؤكدات اللفظية فهي القسم المقدَّرُ، لأن التقدير: والله لينصرن الله من ينصره، وكذلك اللام والنون في ﴿وَلَيَنصُرَنَّ﴾ كلاهما يفيد التوكيد، وأما التوكيد المعنوي ففي قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فهو سبحانه قويٌ لا يضعف،

وعزيز لا يذلّ، وكل قوة وعزة تضادُّهُ ستكون ذُلّاً وضعفاً، وفي قوله ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ تثبيت للمؤمن عندما يستبعد النصر في نظره لبُعد أسبابه عنده، فإن عواقب الأمور لله وحده يُغيِّر سبحانه ما شاء حسب ما تقتضيه حكمته.

وفي هاتين الآيتين بيان الأوصاف التي يُستحق بها النصر، وهي أوصاف يتحلَّى بها المؤمن بعد التمكين في الأرض، فلا يُغريه هذا التمكين بالأشر والبطر والعلو والفساد، وإنما يزيده قوةً في دين الله وتمسُّكاً به»[1].



(١) مجالس رمضان ص١٤٥ ـ ١٤٧.

الدرس السابع عشر



فقه تزاحم الطاعات (١)

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان يكون عليَّ الصوم من رمضان، فما أستطيع أن أقضيه إلا في شعبان»[١].

هذا حديث جليل من أحاديث الصيام، وفيه بيان ما كانت عليه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من كمال الفقه، وتلمحها لفقه تزاحم الطاعات، فإن قضاء الصيام واجب، وخدمة النبي ﷺ واجبة، فتزاحم عندها واجبان في حقها، لكنها رضي الله عنها لكمال فقهها اختارت تقديم خدمة النبي ﷺ، واعتذرت بذلك لتأخير قضاء صيام الفريضة إلى آخر وقته في شعبان، حيث قالت رضي الله عنها «وذلك لمكان النبي ﷺ»، وهذا هو حقيقة الفقه، فليس الفقه فقط أن أعرف المعروف وأعرف المنكر، بل الفقه أن أُقدم أعرف المعروفين، وأحتمل أدنى المفسدتين لدفع أعلاها.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب متى يُقضى قضاء رمضان (٣١٣ ـ رقم ١٩٥٠)، ومسلم، كتاب الصيام، باب جواز تأخير قضاء رمضان ما لم يجيء رمضان آخر (ص٤٦٦ ـ رقم ٢٦٨٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فتفطّن لحقيقة الدين، وانظر ما اشتملت عليه الأفعال من المصالح الشرعية والمفاسد، بحيث تعرف ما مراتب المعروف، ومراتب المنكر، حتى تُقدم أهمها عند الازدحام، فإن هذا حقيقة العلم بما جاءت به الرسل، فإن التمييز بين جنس المعروف وجنس المنكر أو جنس الدليل وغير الدليل يتيسر كثيراً.

فأما مراتب المعروف والمنكر ومراتب الدليل، بحيث يُقدم عند التزاحم أعرف المعروفين، ويُنكر أنكر المنكرين، ويُرجح أقوى الدليلين، فإنه خاصة العلماء بهذا الدين»[١].

حديث عائشة المذكور ليس هو الوحيد في تقرير هذا الفقه العظيم، فقه تزاحم الطاعات، فأدلة أصل هذا الموضوع المهم كثيرة جداً يستحضرها كل من له استقراء وعناية بأدلة الشرع ومقاصدها.

من ذلك قوله تعالى في الحديث القدسي: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته خير ما أُعطي السائلين»[٢].

ومن الأدلة كذلك حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول: «**لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم**»، فقام رجل، فقال: يا رسول الله، إن امرأتي خرجت حاجّة، وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا، فقال: «انطلق، فحُج مع امرأتك»[٣].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ١٧٢.
(٢) رواه الترمذي، كتاب فضائل القرآن (ص٦٥٧ ـ رقم ٢٩٢٦).
(٣) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب لا يخلونَّ رجل بامرأة إلا ذو محرم (ص٩٣٥ ـ رقم ٥٢٣٣)، ومسلم، كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره (ص٥٦٦ ـ رقم ٣٢٧٢).

ومن ذلك قول علي بن أبي طالب ﷺ: «لولا أن لا تبطروا لحدثتكم بما في قتال الخوارج من الأجر».

قال الوزير ابن هبيرة ﷺ: «فيه من الفقه توفر الثواب في قتل الخوارج، وأنه بلغ إلى أنه خاف علي ﷺ أن يبطر أصحابه إذا أخبرهم بثوابهم في قتلهم، وإنما ذكر هذا لئلا يرى أحد في وقت ظهور مثلهم أن قتال المشركين أولى من قتالهم، بل قتالهم على هذا أولى من قتال المشركين، لأن في ذلك حفظ رأس مال الإسلام، وقتال المشركين هو طلب ربح في الإسلام»[١].

فانظر إلى تعليل هذا الجهبذ في تقديم قتال الخوارج على الكفار في حال التزاحم حيث قال: «حفظ رأس مال الإسلام، مقدم على طلب ربح في الإسلام».

وهكذا أجوبة أئمتنا جارية على مراعاة الأصول العظيمة للشرع، والمقاصد الكبيرة، وتقديم المصالح العامة على المصالح الخاصة.

قيل للإمام أحمد بن حنبل ﷺ: «الرجل يصوم ويُصلّي، ويعتكف أحب إليك أو يتكلم في أهل البدع؟

قال: إذا قام وصلى واعتكف فإنما هو لنفسه، وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين، هذا أفضل»[٢].

فتأمل هذا الجواب السديد من الإمام أحمد بن حنبل ﷺ حيث قدّم الرد على أهل الأهواء والبدع والضلالات على الصيام

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح: ١/ ٢٨٠.
(٢) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٢٣١.

والاعتكاف، لأن ثمرة الصيام والاعتكاف تعود على الصائم نفسه، بينما ثمرة ردّ البدع تعود على عموم المسلمين، لما فيه من صيانة أديانهم من البدع والأهواء، ذلك أن البدع يغترّ بها الناس ويعتقدون أنها من الدين، وهي تبعدهم من الله من حيث يظنون أنها تقربهم إليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «من الحكايات المشهورة التي بلغتنا أن الشيخ أبا عمرو بن الصلاح أمر بانتزاع مدرسة معروفة من أبي الحسن الآمدي، وقال: أخذها منه أفضل من أخذ عكا»!!

الله أكبر! ابن الصلاح رحمه الله يرى أن انتزاع مدرسة من مبتدع أعظم من تحرير «عكا» من الكفار!! لماذا؟

لأن المسلمين يغترّون بالمبتدع، وهو يُفسد قلوبهم ابتداءً، وهم يقبلون ذلك، أما العدو الخارجي فلا يلتبس على أحد، ولا يزالون يقاتلونه، ولا يقبلون ما يأتي به، ولا يُفسد قلوبهم بسلاحه ابتداءً.

قال أبو الفضل الهمداني رحمه الله: «مبتدعة الإسلام والكذابون والواضعون للحديث أشدّ من الملحدين، قصدوا إفساد الدين من خارج، وهؤلاء قصدوا إفساده من داخل، فهم كأهل بلد سعوا في فساد أحواله، والملحدون كالمحاصرين من خارج، فالدخلاء يفتحون الحصن، فهم شرٌّ على الإسلام من غير الملابسين له»[(١)].

وقال محمد بن يحيى الذهلي: سمعت يحيى بن معين يقول:

---

(١) الصارم المسلول ص١٧١.

الذبُّ عن السُّنة أفضل من الجهاد في سبيل الله، فقلت ليحيى: الرجل ينفق ماله، ويتعب نفسه، ويجاهد، فهذا أفضل منه؟!.

قال: نعم، بكثير»[١].

فكلمة الأئمة سواء في تقديم صيانة عقائد المسلمين وبيان السُّنة، والتحذير مما يضادها من الأهواء والبدع والضلالات على طاعات الإنسان النوافل في خاصة نفسه، وعلى جهاد الكفار.

وقال الحافظ النووي رَحِمَهُ اللهُ مقرراً تقديم ما تعدّى نفعه على ما كانت منفعته قاصرة على صاحبها، ما نصه: «فهذه أحرف من أطراف ما جاء في ترجيح الاشتغال بالعلم على العبادة، وجاء عن جماعات من السلف ممن لم أذكره نحو ما ذكرته، والحاصل أنهم متفقون على أن الاشتغال بالعلم أفضل من الاشتغال بنوافل الصوم والصلاة والتسبيح ونحو ذلك من نوافل عبادات البدن، ومن دلائله سوى ما سبق أن نفع العلم يعمّ صاحبه والمسلمين، والنوافل المذكورة مختصة به، ولأن العلماء ورثة الأنبياء ولا يُوصف المتعبدون بذلك، ولأن العابد تابع للعالم مقتد به مقلد له في عبادته وغيرها واجب عليه طاعته ولا ينعكس، ولأن العلم تبقى فائدته وأثره بعد صاحبه، والنوافل تنقطع بموت صاحبها، ولأن العلم صفة الله تعالى، ولأن العلم فرض كفاية أعني العلم الذي كلامنا فيه، فكان أفضل من النافلة»[٢].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٠/٥١٨.
(٢) المجموع شرح المهذب: ١/٢٢.

وعلى هذا جرى تقرير سائر العلماء من ملاحظة ما تعدّى نفعه وتقديمه على المصلحة الخاصة، وكذلك ملاحظة سدّ الخلل فيما يحتاجه المسلمون فتكون العناية به أولى وأجدر.

قال الخطيب البغدادي رحمه الله: «طلب في هذا الزمان أفضل من سائر أنواع التطوع لأجل دروس السنن وخمولها، وظهور البدع واستعلاء أهلها»(١).

وقال البغوي رحمه الله: «وفضل العلم على العبادة من حيث إن نفع العلم يتعدى إلى كافة الخلق، وفيه إحياء الدين، وهو تلو النبوة»(٢).

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «ومما يدلّ على تفضيل العلم على جميع النوافل أن العلم يجمع جميع فضائل الأعمال المتفرقة، فالعلم أفضل أنواع الذكر، وهو أفضل أنواع الجهاد»(٣).

وقال أيضاً: «وقد نصّ الأئمة الأربعة على أن طلب العلم أفضل من صلاة النافلة، والصلاة أفضل من الصيام المتطوع به، فيكون العلم أفضل من الصيام بطريق الأولى، فإن العلم مصباح يُستضاء به في ظلمة الجهل والهوى، فمن سار في طريق على غير مصباح لم يأمن أن يقع في بئر بوار فيعطب»(٤).

فالحاجة داعية إلى بيان الفاضل من المفضول في العبادات والطاعات، حتى نُقدم الأحبّ إلى الله.

---

(١) شرف أصحاب الحديث ص٨٦.
(٢) شرح السُّنة: ١/ ٢٧٨.
(٣) شرح حديث أبي الدرداء ص٣٠٢.
(٤) لطائف المعارف ص١٣٠.

قال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥١هـ) مبيِّناً عقبات الشيطان[1]: «العقبة السادسة وهي: عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات، فأمره بها، وحسّنها في عينه، وزيّنها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضل منها، وأعظم كسباً وربحاً، لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب، طمع في تخسيره كماله وفضله، ودرجاته العالية، فشغله بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمرضي عن الأرضى له.

ولكن أين أصحاب هذه العقبة؟ فهم الأفراد في العالم، والأكثرون قد ظفر بهم في العقبات الأول.

فإن نجا منها بفقه في الأعمال ومراتبها عند الله، ومنازلها في الفضل، ومعرفة مقاديرها، والتمييز بين عاليها وسافلها، ومفضولها وفاضلها، ورئيسها ومرؤوسها، وسيدها ومسودها، فإن في الأعمال والأقوال سيداً ومسوداً، ورئيساً ومرؤوساً، وذروة وما دونها، كما في الحديث الصحيح «**سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت... الحديث**»، وفي الحديث الآخر «**الجهاد ذروة سنام الأمر**»، وفي الأثر الآخر «**إن الأعمال تفاخرت، فذكر كل عمل منها مرتبته وفضله، وكان للصدقة مزية في الفخر عليهن**»، ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم، السائرين على جادة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها، وأعطوا كل ذي حق حقه».

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٢٥).

ومعرفة أسرار العبادات مما يعين على معرفة الفاضل من المفضول منها.

فكلما كانت العبادة أقرب إلى تحقيق كمال العبودية والذلّ لله، وحصول العلم بأسمائه وصفاته، ومناجاته وتفويض الأمر إليه، والاستعانة والتوكل عليه كانت أحب إلى الله.

قال ابن القيم رحمه الله[١]: «فكل عمل كان أقرب إفضاء إلى العلم بالله وأسمائه وصفاته فهو أعلى مما دونه، وكذلك حال القلب فكل حال كان أقرب إلى المقصود الذي خلق له فهو أشرف مما دونه، وكذلك الأعمال، فكل عمل كان أقرب إلى تحصيل هذا المقصود كان أفضل من غيره، ولهذا كانت الصلاة والجهاد من أفضل الأعمال، وأفضلها لقرب إفضائهم إلى المقصود، وهكذا يجب أن يكون، فإن كل ما كان الشيء أقرب إلى الغاية كان أفضل من البعيد عنها.

فالعمل المعدّ للقلب المهيىء له لمعرفة الله وأسمائه وصفاته ومحبته وخوفه ورجائه أفضل مما ليس كذلك.

وإذا اشتركت عدة أعمال في هذا الإفضاء فأفضلها أقربها إلى هذا المفضي، ولهذا اشتركت الطاعات في هذا الإفضاء فكانت مطلوبة لله، واشتركت المعاصي في حجب القلب وقطعه عن هذه الغاية فكانت منهياً عنها، وتأثير الطاعات والمعاصي بحسب درجاتها».
والجهاد من أفضل الأعمال لأنه دالّ على محبة الله تبارك الله.

---

(١) عدة الصابرين ص١٨٣.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «فجعل الله لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول، والجهاد في سبيله».

وقال[2]: «فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد كان دليلاً على ضعف محبة الله ورسوله في قلبه، ومعلوم أن المحبوبات لا تنال غالباً إلا باحتمال المكروهات»، وهذا واضح بيّن كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:١٦].

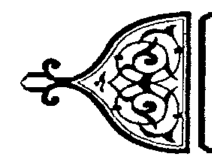
وقال أيضاً[3]: «و«الجهاد» يتضمن كمال محبة ما أمر الله به، وكمال بغض ما نهى الله عنه، ولهذا قال في صفة من يحبهم ويحبونه ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٤]».

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٩١).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٩٣).
(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢١٠).



الدرس الثامن عشر



فقه تزاحم الطاعات (٢)



فقه المزاحمة بين الواجبات فقه مهم جدير بالعناية، لحفظ الحقوق والقيام بأوجبها في حال التزاحم، وقد أشرنا إلى شيء من ذلك في الدرس السابق، وأشرنا إلى حديث الرجل الذي قال للنبي ﷺ: إني اكتتبت في غزوة كذا وكذا، وإنّ امرأتي خرجت حاجّة، فقال له النبي ﷺ: «**اذهب فحج مع امرأتك**»[١].

وكذلك قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «كان يكون عليَّ الصوم من رمضان، فما أستطيع أن أقضيه إلا في شعبان، وذلك لمكان رسول الله ﷺ»[٢].

فبعض الشباب المتحمس يرى أن الشهادة هي أقصى ما يتمناه، وأن درجة صاحبه أعلى الدرجات.

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب لا يخلونَّ رجل بامرأة إلا ذو محرم (ص٩٣٥ ـ رقم ٥٢٣٣)، ومسلم، كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى الحج وغيره (ص٥٦٦ ـ رقم ٣٢٧٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب متى يُقضى قضاء رمضان (ص٣١٣ ـ رقم ١٩٥٠)، ومسلم، كتاب الصوم، باب جواز تأخير قضاء رمضان ما لم يجيء رمضان آخر (ص٤٦٦ ـ رقم ٢٦٨٧).

وهذا الكلام لا يخلو من حماسة وتنقصه مراعاة أحوال الزمان والرجال.

كما تنقصه سبر الأدلة، والوقوف على تقريرات العلماء.

فعن عبيد بن خالد ـ وكان من أصحاب النبي ﷺ ـ قال: «آخى النبي ﷺ بين رجلين فاستُشهد أحدهما، وبقي الآخر بعده عاماً، ثم مات فاتَّبعنا جنازته، ومعنا نبي الله ﷺ فجعلنا ندعو الله ونرغب إليه أن يلحقه بصاحبه!

فقال النبي ﷺ: «**أيهما تعدُّون أفضل؟**» فقلنا: الله ورسوله أعلم!

ثم قلنا: الشهيد أفضلهما! فقال النبي ﷺ: «**ألا تعدُّون لهذا فضيلته: صلاته، وعمله بعد عمله! لما بينهما أبعدُ مما بين السماء والأرض**»[١].

فهذان رجلان كل واحد منهما قضى نحبه ووافى ربه بأعمال صالحة، ومنزلة من قُتل شهيداً في سبيل الله دون منزلة الآخر الذي عمّر أكثر منه بعام فقط.

قال أبو جعفر محمد بن جرير (ت: ٣١٠هـ)[٢]: «والذي فيه من ذلك الإبانة عن فضل صالح الأعمال، وأن الفاضل من الناس إنما يفضل غيره بفضل زيادة أعماله الصالحة على عمل من فَضَلَهُ، وذلك أن النبي ﷺ لما ذُكر له أمر الرجلين اللذين استشهد أحدهما، وعاش الآخر بعده سنة، قال في الذي عاش بعد صاحبه: «**أليس قد أدرك**

(١) رواه أحمد (١/ ١٦٣) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم ٨٣٨، وابن ماجه ٢٩٨٢ ـ ٣٩٢٥) وصحّحه ابن حبان وصحّحه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (رقم ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩).

(٢) تهذيب الآثار (الجزء المفقود) ص٣٧٢ ـ ٣٧٣.

رمضان وصامه، وصلى كذا وكذا سجدة»، فلما قالوا له: بلى! قال: «**فلَما بينهما أبعدُ مما بين السماء والأرض**»!

وذلك من قوله ﷺ نظير الأخبار الواردة عنه: أنه قال: إذ قيل له: أي الناس خير؟ قال: «**من طال عمره وحسن عمله**»».

وقال أبو داود في إبراهيم بن طهمان(١): «ثقة من أهل سرخس، خرج يريد الحج، فقدم نيسابور، فوجدهم على قول جهم، فقال: الإقامة على هؤلاء أفضل من الحج، فأقام فنقلهم من قول جهم إلى الإرجاء»(٢).

وقال المروذي: قيل لأبي عبد الله رجل له خمسمائة درهم ترى أن يصرفه في الغزو والجهاد أو يطلب العلم؟ قال: إذا كان جاهلاً يطلب العلم أحب إليّ(٣).

قال ابن القيم رحمه الله(٤): «فالدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهم، وهم خلفاء الرسل في أممهم، والناس تبعٌ لهم، والله سبحانه قد أمر رسوله ﷺ أن يُبلغ ما أنزل إليه، وضمن له حفظه وعصمته من الناس، وهكذا المبلغون عنه من أمته لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم لهم، وقد أمر النبي ﷺ بالتبليغ عنه ولو آية، ودعا لمن بلّغ عنه ولو حديثاً، وتبليغ سنته ﷺ

---

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٨٠).
(٢) مراده بالإرجاء هو أنه يرجو لأهل الكبائر الغفران، رداً على الخوارج وغيرهم، الذين يُكفِّرون الناس بالذنوب، قاله الذهبي في السير (٧/ ٣٨٠).
(٣) الآداب الشرعية (٢/ ٤٠).
(٤) جلاء الأفهام ص٥٨٢.

إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو، لأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن؛ فلا يقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم ـ جعلنا الله تعالى منهم بمنّه وكرمه».

وقال تقي الدين ابن دقيق العيد رحمه الله[١]: «القياس يقتضي أن الجهاد أفضل الأعمال التي هي وسائل، فإن العبادات على قسمين: مقصود لنفسه، ووسيلة إلى غيره، وفضيلة الوسيلة بحسب فضيلة المتوسل إليه، والجهاد وسيلة إلى إعلان الدين ونشره وإخمال الكفر ودحضه، ففضيلته بحسب فضيلة ذلك».

وابن بطال لما ساق قوله عليه السلام في جوابه لما سئل: أي الناس أفضل؟ فقال عليه السلام: «مؤمن يجاهد في سبيل الله» عقب بقوله[٢]: «ليس على عمومه، ولا يريد أنه أفضل الناس قاطبة؛ لأن أفضل منه من أوتي منازل الصديقين، وحمل الناس على شرائع الله وسنن نبيه، وقادهم إلى الخيرات، وسبّب لهم أسباب المنفعة في الدين والدنيا، لكن إنما أراد عليه السلام ـ والله أعلم ـ أفضل عامة الناس، لأنه قد يكون في خاصتهم من أهل الدين والعلم والفضل والضبط بالسنن من هو أفضل منه».

وقال ابن مفلح رحمه الله[٣]: «وواجب على الإمام أن يتعاهد المعلم والمتعلم كذلك ويرزقهما من بيت المال، لأن في ذلك قواماً للدين، فهو أولى من الجهاد لأنه ربما نشأ الولد على مذهب فاسد فيتعذر زواله من قلبه».

(١) شرح العمدة بواسطة طرح التثريب (٧/١٩٣ ـ ١٩٤).
(٢) شرح صحيح البخاري (٥/٧ ـ ٨).
(٣) الآداب الشرعية (٢/٤٧).

وقيل للإمام مالك رحمه الله: «الغزو أحب إليك أم الحج؟ قال: «الحج إلا أن يكون سنة خوف»[(١)] وتبعاً لذلك وجّه عز الدين ابن جماعة الكناني (ت:٧٦٧هـ) حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «سئل رسول الله ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: **إيمانٌ بالله ورسوله**، قيل: ثم ماذا؟ قال: **الجهاد في سبيل الله**، قيل: ثم ماذا؟ قال: **حج مبرور**»[(٢)] بقوله[(٣)]: «وعلى هذا فقيل: الحديث محمول على ما إذا تعيّن الجهاد، أو يكون جواباً في حق سائل لفرط شجاعته».

وقال الإمام الشافعي رحمه الله[(٤)]: «ليس بعد الفرائض شيء أفضل من طلب العلم، قيل له: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله».

وقال ابن المبارك لأصحابه وهو في الغزو: هل تعلمون عملاً أفضل من هذا؟ قالوا: لا نعلمه، قال: بلى أنا أعلمه، رجل متعفف محترف أبو عيال، قام من الليل، فوجد صبيانه مكشفين فغطّاهم، وثار إلى صلاته[(٥)].

وقال الحسن البصري رحمه الله[(٦)]: «ما من شيء مما خلق الله أعظمُ عند الله في عظيم الثواب من طلب علم، لا حج، ولا عمرة، ولا

---

(١) هداية السالك إلى المذاهب الأربعة في المناسك (١/ ٨).
(٢) رواه البخاري كتاب الإيمان باب من قال إن الإيمان هو العمل (ص٧ ـ رقم ٢٦)، ومسلم كتاب الإيمان باب الإيمان أفضل الأعمال (ص٥١ ـ رقم ٢٤٨).
(٣) هداية السالك (١/ ٨).
(٤) المدخل إلى السنن ص٣١٠، رقم ٤٧٥.
(٥) شرح حديث جبريل لشيخ الإسلام ص٦١٠.
(٦) ورثة الأنبياء شرح حديث أبي الدرداء، جامع رسائل ابن رجب (١/ ٣٦).

جهاد، ولا صدقة، ولا عتق، ولو كان العلمُ صورةً لكانت صورته أحسن من صورة الشمس والقمر والنجوم والسماء والعرش».

وقال أبو هريرة ﷺ[١]: «لأن أعلم باباً من العلم في أمر ونهي أحبُ إليَّ من سبعين غزوة في سبيل الله».

وعن يحيى بن أبي كثير عن الأزدي قال: سألت ابن عباس ﷺ عن الجهاد فقال: ألا أدلّك على خير من الجهاد؟ فقلت: بلى، قال: تبني مسجداً وتُعلم فيه الفرائض والسُّنة والفقه في الدين[٢].

قال ابن بطال[٣]: «وكان طاوس يرى السعي على الأخوات أفضل من الجهاد في سبيل الله»، وهذا كله حيث كان الجهاد نافلة فلا يمكن أن يُزاحم الفرائض، وعاب إبراهيم بن أدهم على سفيان ترك الغزو، وقال: هذا الأوزاعي غزا وهو أسنّ منه، فقال الخريبي: فقلت لبهيم: ما كان يعني سفيان في ترك الغزو؟ قال: كان يقول: إنهم يُضيّعون الفرائض[٤].

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: «لولا ثلاث لأحببت أن أكون قد لحقت بالله: لولا أن أسير في سبيل الله، أو أضع جبهتي في التراب ساجداً، أو أجالس قوماً يلتقطون طيب الكلام كما يُلتقط طيب الثمرة».

وعلق علّيه شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ بقوله[٥]: «وكلام

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (١/ ١٦).
(٢) جامع بيان العلم وفضله ص٦٠، ص١٠٥.
(٣) شرح صحيح البخاري (٩/ ١٩٢).
(٤) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٦٩).
(٥) منهاج السنة (٦/ ٧٥).

عمر ﷺ من أجمع الكلام وأكمله، فإنه ملهم محدّث، كل كلمة من كلامه تجمع علماً كثيراً، مثل هؤلاء الثلاث التي ذكرهن؛ فإنه ذكر الصلاة والجهاد والعلم، وهذه الثلاث هي أفضل الأعمال بإجماع الأمة، قال أحمد بن حنبل: أفضل ما تطوع به الإنسان الجهاد، وقال الشافعي: أفضل ما تطوع به الصلاة، وقال أبو حنيفة ومالك: العلم. والتحقيق أن كُلاًّ من الثلاثة لا بد له من الآخرين، وقد يكون هذا أفضل في حال، وهذا أفضل في حال، كما كان النبي ﷺ وخلفاؤه يفعلون هذا وهذا وهذا، كلٌّ في موضعه بحسب الحاجة والمصلحة، وعمر جمع الثلاث».

وقال شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله[1]: «التحقيق أن يقال: قد يكون الجهاد في سبيل الله لبعض الناس أفضل، والعلم لبعض الناس أفضل.

فإذا وجدنا رجلاً قوي الحفظ قوي الفهم نشيطاً في طلب العلم، ولكنه في الجهاد ضعيف جبان.

ووجدنا آخر قوي البدن شجاعاً مقداماً لكنه في الحفظ والفهم دون ذلك، فالأول نقول: العلم في حقه أفضل.

والثاني نقول: الجهاد في حقه أفضل ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٢]».

فشيخنا رحمه الله جعل المفاضلة باعتبار الأشخاص، وغيره جعل

---

(١) لطلبة العلم (١/ ١٤١).

المفاضلة باعتبار الزمان، قال تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت: ٨٤٥هـ)[١]: «أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب سبحانه وتعالى واشتغال كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته، فأفضل العبادات في وقت الجهاد الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار، بل من ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن، والأفضل في وقت حضور الضيف القيام بحقه والاشتغال به، والأفضل في وقت السحر الاشتغال بالصلاة والقرآن والذكر والدعاء، والأفضل في وقت الأذان ترك ما هو فيه من الأوراد والاشتغال بإجابة المؤذّن...».

وقال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ أيضاً[٢] «إلا أن طلب العلم ينبغي أن يكون أفضل من الجهاد وغيره، لأن الجهاد لا يكون إلا بعلم حدوده وما أحلّ الله منه وحرم، ألا ترى أن المجاهد متصرف بين أمر العالم ونهيه، ففضل عمله كله في ميزان العالم الآمر له بالمعروف والناهي له عن المنكر والهادي له إلى السبيل، فكما أن أجر المسلمين كلهم مذخور للنبي ﷺ من أجل تعليمه لهم وهدايته إياهم سبيل العلم، فكذلك يجب أن يكون أجر العالم فيه أجر من عمل بعلمه».

وحقيقة هذا التفضيل إنما هو بالنسبة لمن عنده علم، أو عنده قابلية واستعداد لطلب العلم، فالطاعة المعينة قد تكون هي أفضل في نفسها، لكنها بالنسبة للبعض قد يكون الأفضل في حقه هو المفضول في ذاته.

---

(١) تجريد التوحيد المفيد ص٤٣ ـ ٤٤.
(٢) شرح صحيح البخاري (٥/ ٤٩ ـ ٥٠).

قال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥١هـ)[(١)]: «وها هنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أنه قد يكون العمل المعين أفضل منه في حق غيره، فالغني الذي بلغ له مال كثير ونفسه لا تسمح ببذل شيء منه فصدقته وإيثاره أفضل له من قيام الليل وصيام النهار نافلة.

والشجاع الشديد الذي يهاب العدو سطوته، وقوفه في الصف ساعة، وجهاده أعداء الله أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع.

والعالم الذي قد عرف السُّنة والحلال والحرام وطرق الخير والشر: مخالطته للناس وتعليمهم، ونصحهم في دينهم أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح.

وولي الأمر الذي قد نصبه الله للحكم بين عباده جلوسه ساعة للنظر في المظالم وإنصاف المظلوم من الظالم، وإقامة الحدود، ونصر المحق وقمع المبطل، أفضل من عبادة سنين من غيره.

ومن غلبت عليه شهوة النساء فصومه له أنفع، وأفضل من ذكر غيره وصدقته، وتأمل تولية النبي ﷺ لعمرو بن العاص وخالد بن الوليد رضي الله عنهما وغيرهما من أمرائه وعماله وترك تولية أبي ذر، بل قال له: «**إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي: لا تؤمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم**»، وأمره وغيره بالصيام، وقال: عليك بالصوم فإنه لا عدل له، وأمر آخر بأن لا يغضب، وأمر ثالثاً: «بأن لا يزال لسانه رطباً من ذكر الله»، ومتى أراد الله بالعبد كمالاً وفقه لاستفراغ وسعه فيما هو مستعد له، قابلٌ له، قد هُيِىء له، فإذا استفرغ وسعه برز على غيره، وفاق الناس فيه كما قيل».

---

(١) عدة الصابرين ص١٨٣ ـ ١٨٥.

وقال أبو العباس القرافي رَحِمَهُ اللهُ (ت: ٦٨٤هـ) في المفاضلة بين الجهاد وطلب العلم[١]: «تفضيل العلماء على الشهداء كما جاء في الحديث: «ما جميع الأعمال في الجهاد إلا كنقطة في بحر، وما الجهاد وجميع الأعمال في طلب العلم إلا كنقطة في بحر»، وفي حديث آخر: «لو وُزن مداد العلماء بدم الشهداء لرجح» بسبب طاعة العلماء لله تعالى بضبط شرائعه، وتعظيم شعائره التي من جملتها الجهاد، وهداية الخلق إلى الحق، وتوصيل معالم الأديان إلى يوم الدين، ولولا سعيهم في ذلك من فضل الله تعالى لانقطع أمر الجهاد وغيره، ولم يبق على وجه الأرض من يقول: الله، وكل ذلك من نعمة الله تعالى عليهم».

وقال مسروق رَحِمَهُ اللهُ[٢]: «لأن أقضي يوماً بحق أحبُ إليَّ من أن أغزو سنة في سبيل الله عز وجل».

قال والدنا العلامة محمد الصالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ[٣] مبيِّناً عظم خطر الغزو الفكري: «إن العلم نوع من الجهاد في سبيل الله، لأن طالب العلم يحاجُّ أعداء الشريعة بالحق ليدحض به باطلهم، وأحياناً يكون الغزو الفكري أعظم فتكاً من الغزو المسلح كما هو مشاهد، فإن الغزو الفكري يدخل كل بيت باختيار صاحب البيت بدون أن يجد معارضة أو مقاومة، لكن الغزو العسكري لا يدخل البيت، بل ولا يدخل البلد إلا بعد قتال مرير ومدافعة شديدة، فأعداء المسلمين يتسلطون عليهم ـ أحياناً ـ بالغزو المسلح بالقتال، وهنا يمكن التحرز منه، وأحياناً

---

(١) الفروق (٢/ ٣٧٥).

(٢) طبقات ابن سعد (٦/ ٨٢)، ومصنف ابن أبي شيبة (٤/ ٥٤٠)، وتاريخ ابن أبي خيثمة (٣/ ١٣٣ ـ رقم ٤١٣٦)، سنن البيهقي (١٠/ ٨٩).

(٣) تفسير سورة الصافات ص٣٧ ـ ٣٨.

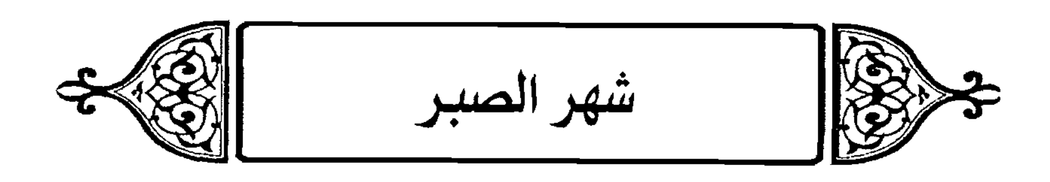
بالغزو الفكري وهو أشد وأنكى من الغزو المسلح، لأنه يصيب المسلمين في قعر بيوتهم ولا يعلمون به، ربما يخرجون من الإسلام ويُمسح الإسلام من أفئدتهم مسحاً كاملاً، وهم لا يشعرون، لأنهم يغرّون المسلمين بالشهوات، والقلب إذا انغمس بالشهوات: نسي ما خُلق له، نسي عبادة الله، ولم يكن في قلبه تعلق بالله ـ عز وجل ـ، فتجد الإنسان في حال قيامه وقعوده وذهابه ومجيئه لا يفكر إلا بهذه الشهوات، ولا يسعى إلا لهذه الشهوات، وكأنه لم يُخلق لغيرها.

كذلك يُغذون في نفوس الضعفاء تعظيم هؤلاء الكفار، وأنهم أكثر تقدّماً وأشد حضارة وأقوم طريقاً وما شابه ذلك.

فينصهر المسلم في حرائق هؤلاء القوم، وهذا لا شك أنه موجود، وأنه كثيراً من البلاد الإسلامية زالت معنوياتها وهلكت شخصيتها بسبب هذا الغزو الفكري.

إنهم لو غزوا البلاد الإسلامية غزواً عسكرياً لحلّوا بأبدانهم البلاد، ولكن قلوب الناس نافرة مبغضة لهم، لكن المشكل أن يغزوا الناس بصفاتهم وأخلاقهم وعقائدهم وهم جالسون في بيوتهم قد فتحوا لهم القلوب هذا هو المشكل، وهذا هو الدمار، ولهذا كان الغزو بالسلاح العلمي المستمد من كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ مساوياً إن لم يكن أنفع وأبلغ من الغزو العسكري، فأنا أحثكم ـ بارك الله فيكم ـ وأحثّ نفسي على أن نعدّ العدة لمكافحة أعدائنا الذين يريدون أن يغزونا في بيوتنا بأفكارهم الخبيثة وأخلاقهم الملوثة، وبأفكارهم المنحرفة حتى نحمي المسلمين من شرّ هؤلاء، لأن سلاحهم أعظم فتكاً وأشد من سلاح الحديد والنار، كما هو ظاهر».

الدرس التاسع عشر



شهر الصبر

ذكرنا أن شهر رمضان شهر الصبر، وذكرنا فضيلة الصبر، وأن الصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله.

والمصائب والابتلاءات والمحن لا بد أن تنزل بالعباد امتحاناً لإيمانهم، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢ ـ ٣].

فالمصيبة سُنَّة كونية لا بد أن تقع، ولا بد أن يُصاب المسلم بشيء من المصائب بحسب ما قدّره الله، قال ابن جرير الطبري رحمه الله: «فلم يخل جل ثناؤه أحداً من مكرمي رسله ومقربي أوليائه من محنة في عاجلة دون آجلة، ليستوجب بصبره عليها من ربه الكرامة ما أعدّ له، ومن المنزلة لديه ما كتبه له، ثم جعل تعالى جل وعلا ذكره علماء كل أمة نبي ابتعثه منهم ورَّاثة من بعده، والقوّام بالدين بعد

اخترامه إليه وقبضه، الذابين عن عُراه وأسبابه والحامين عن أعلامه وشرائعه، والناصبين دونه لمن بغاه وحادّه، والدافعين عنه كيد الشيطان وضلاله»[١].

إلى أن قال ابن جرير: «ثم جعل جلّ ثناؤه ذكره علماء أمة نبينا ﷺ من أفضل علماء الأمم التي خلت قبلها فيما كان قسم لهم فيه حظاً ونصيباً مع ابتلاء الله أفاضلها بمنافعها، وامتحانه خيارها بشرارها، ورفعائها بسفلها ووضعائها، فلم يكن يثنيهم ما كانوا به منهم يُبتلون، ولا كان يَصدُّهم ما في الله منهم يلقون من النصيحة لله في عباده وبلاده أيام حياتهم، بل كانوا بعلمهم على جهلهم يعودون، وبحلمهم لسفههم يتعمدون، وبفضلهم على نقصهم يأخذون»[٢].

والابتلاء بالمصائب له حكم عظيمة منها تزكية النفوس وصقلها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن النفس لا تزكو وتصلح حتى تمحص بالبلاء، كالذهب الذي لا يخلص جيده من رديئه حتى يُفتن في كير الامتحان، إذ كانت النفس جاهلةً ظالمة، وهي منشأ كل شرّ يحصل للعبد، فلا يحصل له شر إلا منها، قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]»[٣].

وسأل رجل الشافعي، فقال: يا أبا عبد الله! أيما أفضل للرجل أن يُمكّن أو يُبتلى؟

(١) صريح السُّنة ص٢٠ ـ ٢١.
(٢) صريح السُّنة ص٢١ ـ ٢٢.
(٣) جامع المسائل: ٣/ ٢٥٧.

فقال الشافعي: لا يُمكّن حتى يُبتلى، قال ابن تيمية معلقاً: «فإن الله ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكّنهم، فلا يظن أحدٌ أن يخلص من الألم البتة»[1].

فليس أحد أكرم من رسل الله حتى يسلم من الابتلاء، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «لا بد من الابتلاء بما يؤذي الناس، فلا خلاص لأحد مما يؤذيه البتة، ولهذا ذكر الله تعالى في غير موضع أنه لا بد أن يُبتلى الإنسان بما يسرّه ويسوؤه، فهو محتاج إلى أن يكون صابراً شكوراً، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، هذا في سورة آل عمران، وقد قال قبل ذلك في سورة البقرة، فإن سورة البقرة نزل أكثرها قبل سورة آل عمران ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]»[2].

---

(١) جامع المسائل: ٣/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥.
(٢) جامع المسائل ٣/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

فليس أحد أكرم من رسل الله فإنهم قد ابتلوا جميعاً، وهذا أكرمهم وسيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ أوذي في عرضه، وأوذي بالسحر أيضاً، وهذا نبي الله سليمان عليه السلام ابتلاه الله عز وجل بأن سلب منه التفكير وتدبير شؤون مملكته فصار لا يُحسن التدبير، وصار بمنزلة الجسد بلا روح، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤] وقيل إنه شيطان سلط على كرسي سليمان فبقي فيه، وصار يدبِّر شؤون مملكته(١).

ومن المصائب ما ينزل بالإنسان بسبب ذنوبه، قال ابن القيم رحمه الله: «وإذا علم العبد حقيقة الأمر، وعرف من أين أُتي، ومن أي الطُّرق أُغير على سرحه، ومن أي ثغرة سُرق متاعه وسُلب، استحى من نفسه ـ إن لم يستح من الله ـ أن يشكو أحداً من خلقه أو يتظلمهم، أو يرى مصيبته وآفته من غيره، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ١٧٩]»(٢).

وإذا نزلت بك مصيبة فصيِّرها باباً للعبودية لله، والانكسار بين يديه والتذلل له، والرغبة إليه، وسؤال الله أن يجعل عاقبتها حميدة، وأن يخلفك خيراً.

فالمصيبة قد تفتح لك باباً من دعاء الله كنت أحوج ما تكون إليه،

(١) تفسير سورة ص ١٦٦ لابن عثيمين.
(٢) طريق الهجرتين ص٦٥.

فكأنما تسوقك إليه بالسلاسل، قال أبو محمد عبد الله بن أبي جمرة رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال بعض أهل التوفيق: إذا نزلت بي نازلة من أي نوع كانت المهمة فيها إلى الملجأ، فلا أبالي»[١].

فالسعيد من يجعل من المحن منح، لا أن يكون أسير الأحزان والهموم والغموم، فإنها جزء من المصيبة، بل يجتهد في رفعها، وأول أسباب ذلك الالتجاء إلى الله وحده لا شريك له، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «من تمام نعمة الله على عباده المؤمنين أن يُنْزل بهم من الشدة والضُّر ما يُلجئهم إلى توحيده فيدعونه مخلصين له الدين، ويرجونه لا يرجون أحداً سواه، فتتعلق قلوبهم به لا بغيره، فيحصل لهم من التوكل عليه والإنابة إليه وحلاوة الإيمان وذَوْقِ طعمه، والبراءة من الشرك ما هو أعظم نعمة عليهم من زوال المرض والخوف، أو الجدب أو الضرّ، وما يحصل لأهل التوحيد المخلصين لله الدين فأعظم من أن يُعبَّرَ عنه مقال، ولكل مؤمن من ذلك نصيب بقدر إيمانه»[٢].

فالمسلم شأنه مختلف عن الكافر تماماً، المؤمن إذا نزلت به الضراء تذكّر واستعتب وأناب وادّكر، والكافر السراء والضراء عنده سواء لا تزيده من الله إلا بعداً.

قال سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن المسلم ليُبتلى فيكون كفارةً لما مضى ومستعتباً فيما بقي، وإن الكافر يُبتلى، فمثله كمثل البعير أُطلق فلم يدر لم أُطلق، وعقل فلم يدر لم عُقل؟»[٣].

(١) بهجة النفوس: ٢/ ٧١.
(٢) بواسطة الآداب الشرعية: ١/ ٦٢٤.
(٣) جامع العلوم والحكم: ٢/ ٥٣.

فالسلف أئمة هدى كانوا يعرفون حقائق الأمور، وما يكون وراءها، قال سفيان الثوري رحمه الله: «ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة، والرخاء مصيبة»، وقال وهب بن منبه: «إن من قبلكم كان إذا أصاب أحدهم بلاء عدّه رخاء، وإذا أصابه رخاء عدّه بلاء»[١].

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ أنه قال: **«من يُرد الله به خيراً يُصب منه»**.

فالمصيبة امتحان ويرتفع، يُريد الله بذلك تمحيص إيمانك واختبار صبرك، وأن تنطرح بين يدي الله، وتنكسر له وحده لا شريك له، قال الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله: «يا بُني! المصيبة ما جاءت لتهلكك، وإنما جاءت لتمتحن صبرك وإيمانك، يا بني! القدر سبعٌ، والسَّبعُ لا يأكل الميتة، فالمصيبة كير العبد، فإما أن يخرج ذهباً أو خبثاً»[٢].

وقال ابن القيم رحمه الله: «إذا ابتلى الله عبده بشيء من أنواع البلايا والمحن فإن ردّه ذلك الابتلاء والمحن إلى ربه وجمعه عليه وطرحه ببابه فهو علامة سعادته وإرادة الخير به. والشدة بتراء لا دوام لها وإن طالت، فتُقلع عنه حين تُقلع وقد عُوض منها أجلّ عوض وأفضله، وهو رجوعه إلى الله بعد أن كان شارداً عنه، وإقباله عليه بعد أن كان نائياً عنه، وانطراحه على بابه، بعد أن كان معرضاً، والوقوف على أبواب غيره متعرضاً، وكانت البلية في حق هذا عين النعمة، وإن

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٢٧.
(٢) الآداب الشرعية: ١/ ٦٣٠.

ساءته وكرهها طبعه ونفرت منها نفسه، فربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سبباً ما مثله سبب، وقوله تعالى في ذلك هو الشفاء والعصمة: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]»[١].

ومن حكم الله في المصائب أنها سبب رفعة الدرجات، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليكون له عند الله المنزلة فما يبلغها بعمله، فما يزال يبتليه بما يكره حتى يُبلّغه إياها**»[٢].

وهذا ما حصل لحفيد رسول الله ﷺ الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ، فإنه كان صغيراً في حياة النبي ﷺ، فلم يدرك المغازي والغزوات مع رسول الله ﷺ، فأراد الله عز وجل أن يبلغه درجة من أدركها أو فوق ذلك فسلّط الله عليه عبيد الله بن زياد.

والمصائب سبب لتكفير الذنوب إذا صبر العبد واحتسب، ففي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «**ما يصيب المسلم من وصب ولا نصب، ولا همّ ولا حزن ولا أذى، ولا غمّ حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر الله من خطاياه**».

ولمسلم من حديث عائشة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**ما من مسلم يُشاك شوكةً فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة وحطَّ عنه بها خطيئة**».

وعن شداد بن أوس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله عز**

---

(١) طريق الهجرتين ص١٦٣.
(٢) صحّحه ابن حبان (٤/٢٤٨ ـ رقم ٢٨٩٧).

وجل: إذا ابتليت عبداً من عبادي مؤمناً فحمدني على ما ابتليته فإنه يقوم من مضجعه كيوم ولدته أمه من الخطايا»(١).

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قلت: يا رسول الله! أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «**الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل من الناس، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقَّةٌ خُفِّف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض وليس عليه خطيئة»**(٢).

وإعلم أن المصيبة مهما كبرت، ومهما تكاثر صانعوها فإن لها من الله مخرجاً، والسكينة يُنزلها الله على القلب فتندحر مكائد الأشرار، قال ابن القيم رحمه الله: «من أدركه الضجر من قوة التكاليف، وأعباء الأمر وأثقاله ولا سيما من أُقيم مقام التبليغ عن الله، ومجاهدة أعداء الله، وقُطاع الطريق إليه فإن ما يحمله ويتحمله فوق ما يحمله الناس ويتحملونه، فلا بد أن يدركه الضجر، ويضعف صبره، فإذا أراد الله أن يريحه ويحمل عنه: أنزل عليه سكينته، فاطمأن إلى حكمه الديني، وحكمه القدري، ولا طمأنينة له بدون مشاهدة الحكمين، وبحسب مشاهدته لهما تكون طمأنينته، فإنه إذا اطمأن إلى حكمه الديني علم أنه دينه الحق، وهو صراطه المستقيم، وهو ناصره، وناصر أهله وكافيهم ووليهم.

وإذا اطمأن إلى حكمه الكوني: علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٢٣).

(٢) أخرجاه في الصحيحين.

له، وأنه ما يشاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلا وجه للجزع والقلق إلا ضعف اليقين والإيمان، فإن المحذور والمخوف: إن لم يُقدَّر فلا سبيل إلى وقوعه، وإن قُدِّر فلا سبيل إلى صرفه بعد أن أُبرم تقديره، فلا جزع حينئذ لا مما قُدر، ولا مما لم يقدر»(١).

والإنسان لا يستدعي المصائب ولا يطلبها فساحة العافية أوسع من ساحة الصبر كما قال ابن القيم: ولكن لو نزلت به نازلة فلا بدّ من الصبر، والإنسان إذا اعتصم بالله وصبر صبّره الله، وأخلفه خيراً في مصيبته.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والصبر كسائر الأخلاق يحتاج إلى مجاهدة للنفس وتمرينها، فلهذا قال «ومن يتصبر» أي: يجاهد نفسه على الصبر «يصبره الله» ويعينه، وإنما كان الصبر أعظم العطايا، لأنه يتعلق بجميع أمور العبد وكمالاته، وكل حالة من أحواله تحتاج إلى صبر، فإنه يحتاج إلى الصبر على طاعة الله، حتى يقوم بها ويؤديها، وإلى صبر عن معصية الله حتى يتركها لله، وإلى صبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يتسخطها، بل إلى صبر على نعم الله ومحبوبات النفس، فلا يدع النفس تمرح وتفرح الفرح المذموم، بل يشتغل بشكر الله، فهو في كل أحواله يحتاج إلى الصبر، وبالصبر ينال الفلاح، ولهذا ذكر الله أهل الجنة، فقال ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢ ـ ٢٣]، وكذلك قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥]، فهم نالوا

---

(١) مدارج السالكين: ٢/٤١٦.

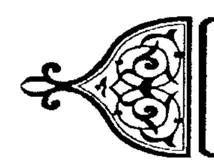
الجنة بنعيمها، وأدركوا المنازل العالية بالصبر، ولكن العبد يسأل الله العافية من الابتلاء الذي لا يدري ما عاقبته، ثم إذا ورد عليه فوظيفته الصبر.

فالعافية هي المطلوبة بالأصالة في أمور الابتلاء والامتحان، والصبر يؤمر به عند وجود أسبابه ومتعلقاته، والله هو المعين»[١].



(١) بهجة قلوب الأبرار ص٧٢.

الدرس العشرون



الدعـــاء



الدعاء من أجل العبادات والطاعات، وهو صلة بين العبد وربه، فأمور الخلق كلها ومقاديرها بيد الله سبحانه، واستجلاب الخير ودفع الشرور يكون بالدعاء، والمحروم من غفل عن الدعاء، فقد روى أبو يعلى والطبراني عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**أعجز الناس من عجز عن الدعاء**»(١).

وللدعاء فوائد عظيمة، وثمرات كبيرة، منها:

١ ـ أن الدعاء عبادة: وهذا واضح من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

ولذلك ذكر بعض العلماء أن العبد لا يُستجاب له في كل ما يدعو ليكون دائماً على ارتباط بربه، قال أبو بكر الطرطوشي رحمه الله: «ولهذا قال بعضهم: لو استجيب للعبد في كل ما سأل لخرج عن

---

(١) وحسّنه ابن مفلح في الآداب: ١/٧٠٩.

حدّ العبودية، وإنما أُمر بالدعاء ليكون عبداً، والله يفعل ما يشاء»[١].

٢ ـ تحقيق العبودية لله: وهذا من أعظم ما يكون من ثمرات الدعاء، أن يتذلل العبد لربه ويبتهل إليه، ويخضع له، ويُظهر فاقته وحاجته إلى ربه، ولذلك يظهر من حكمة الله عز وجل ما يُنزله بعباده من المقادير التي تُلجئهم إلى ربهم عز وجل بعد أن كانوا في غمرتهم ساهون.

٣ ـ الدعاء يفتح أبواباً من الطاعات التي يحبها الله عز وجل، ذلك أن العبد يتحرى عملاً صالحاً يُقدمه بين يدي دعاء الله عز وجل ليستجاب له كصدقة وقيام ليل ونحوه.

ولذلك توسل الثلاثة نفر الذين أطبق عليهم الغار إلى الله بصالح أعمالهم فاستجاب الله لهم.

٤ ـ الانكفاف عن المعاصي: وهذا من أعظم ما يكون من ثمرات الدعاء، لأن العبد يستحي أن يسأل ربه وهو مقيم على المعاصي ويركب المحرمات، فالعبد يتحرى أسباب إجابة دعائه، ومن أعظم أسباب ذلك ترك المعاصي والذنوب.

٥ ـ انشغال القلب بذكر الله: ذلك أن صاحب الحاجة تُقلقه وتُزعجه حاجته، فلا يزال قلبه مشغولاً بها، ويعلم أن حاجته لا يقضيها إلا الله، فيُنزلها بالله فيصبح قلبه مشغولاً بسؤال الله ودعائه وطلب مرضاته، وهذا مما يُحبه الله.

---

(١) الدعاء المأثور ص١٠٧.

٦ ـ تحقيق التوحيد: ذلك أن العبد يتبرأ من الحول والقوة إلا بالله، ويعلم أنه لا يُغيّر حاله من الضراء إلى السراء، ولا يجلب له ما يرجوه من الخير إلا الله عز وجل، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ولذلك يحصل للعبد قوة رجاء بالله عز وجل في إجابة حاجته، وهذا من تحقيق التوحيد أيضاً.

ولإجابة الدعاء أسباب لا بدّ من تحقيقها حتى يجتني العبد ما يرجوه من سؤال ربه، أهمها:

١ ـ صحة الاعتقاد: فصحة الاعتقاد سبب لإجابة الدعاء، فربما حُرم المبتدعة إجابة دعائهم في مواضع كثيرة بسبب سوء عقيدتهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولهذا قيل: إجابة الدعاء تكون عن صحة الاعتقاد، وعن كمال الطاعة، لأنه عقّب آية الدعاء بقوله ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾ [البقرة: ١٨٦]»[(١)].

٢ ـ الإلحاح في الدعاء: فإن الإلحاح على الله في الدعاء من أسباب استجابة الدعاء، فالإلحاح دليل على أن العبد لم يطرق سوى باب الله، وإلحاحه دليل على أنه لم يتحوّل عن باب الله، وإلحاحه دليل على تألهه لربه عز وجل، فمثل هذا حريٌّ أن يُستجاب له، وهذا النبي ﷺ ألحّ في دعائه لربه عز وجل في غزوة بدر حتى أشفق عليه صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

٣ ـ حضور القلب: لأن غفلة القلب دليل على عدم مبالاة وعدم

(١) مجموع الفتاوى: ١٤/ ٣٣.

الحاجة والفاقة لحصول غرضه، وحضور القلب دليل الرغبة الأكيدة الصادقة في ابتغاء فضل الله وتحري أسباب إجابة الدعاء، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أنه لا يستجيب من قلب غافل لاه**»(١).

٤ ـ الاستجابة لله بالطاعات: فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى﴾ [البقرة: ١٨٦]، قال أبو بكر الطرطوشي رحمه الله: «فكأنه سبحانه قرن استجابته لعبيده فيما سألوه باستجابتهم فيما كلفهم، كأنه قال: عبدي أستجيب دعاءك وأستجيب سؤالك بشرط أن تستجيب إليَّ بامتثال أوامري، والانتهاء عن زواجري»(٢).

وقيل لإبراهيم بن أدهم: ما لنا ندعو الله فلا يستجيب لنا؟ فقال: «لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه، وعرفتم الرسول فلم تتبعوا سنته، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به، وأكلتم نعمة الله فلم تؤدوا شكرها، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها، وعرفتم النار فلم تهربوا منها، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه، بل وافقتموه، وعرفتم الموت فلم تستعدوا له، ودفنتم موتاكم فلم تعتبروا بهم، وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس»(٣).

قال ابن القيم رحمه الله متحدثاً عن موانع استجابة الدعاء: «وإما لحصول المانع من الإجابة من أكل الحرام ورين الذنوب على

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب في إيجاب الدعاء (ص٧٩٤ ـ رقم ٣٤٧٩)، والطبراني في الدعاء (٢/ ٨١٢ ـ رقم ٦٢).
(٢) الدعاء المأثور ص١٠٦.
(٣) الدعاء المأثور ص١٠٨، الاعتصام: ١/ ١٤٩.

القلوب»، ثم قال: «وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها، كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «**أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك»[١].

٥ ـ الجزم بما يدعو به: لا بد للداعي أن يجزم بما يدعو به مهما دعا به، فإن الله لا يتعاظمه شيء، ولا رادّ لفضله، والله يستحي أن يرد عبده وقد رفع يديه للسماء، وعدم الجزم بالدعاء قد ينبىء عن الاستغناء وعدم الحاجة لما يدعو به، إن حصل مراده، وإلا فهو في عافية والعياذ بالله.

ففي الصحيحين من حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا دعا أحدكم فليعزم في الدعاء، ولا يقل: اللهم إن شئت فأعطني فإن الله لا مُستكره له**».

والواضح أن البعض ربما لا يجزم بالدعاء لما يعلمه من حاله من التفريط في جنب الله، قال سفيان بن عيينة رحمه الله: «لا يمنع أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه، فإن الله سبحانه أجاب دعاء شر الخلق إبليس»[٢].

---

(١) الجواب الكافي ص١٧.
(٢) الدعاء المأثور ص٢٩ ـ ٣٠.

٦ ـ تحري ساعات ومواضع الإجابة: فهذا من أعظم ما يكون من أسباب إجابة الدعاء، كثلث الليل الآخر، وساعة الإجابة يوم الجمعة، والدعاء حال السجود، وحال نزول المطر، والدعاء في السفر، وعند النداء بالصلاة، وعند حضور الصف في سبيل الله، وعند الفطر من الصيام، وعند التعار من الليل.

قال أبو بكر الطرطوشي رَحِمَهُ اللهُ: «ليس بفقيه من كان له إلى الله حاجة ثم نام عنها في الأسحار»(١).

٧ ـ الإخلاص وصدق اللجأ إلى الله: قال أبو بكر الطرطوشي رَحِمَهُ اللهُ: «قال العلماء: أقرب الدعاء إجابة: دعاء الحال، أن يكون صاحبه مضطراً، لا بد له أن يدعو لأجله، فمن صَدَقَ اللجأ والاستغاثة، أجيب في الحال، قال الله سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، وهذا تلقين للمضطر أن لا يذهل عن الدعاء في حال الاضطرار، وإشارة إلى أن دعاءه مستجاب»(٢).

وقال أيضاً: «ودعاء الإخلاص مستجاب إن شاء الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وخلوصه تصفيته من الآفات والوساوس، وهو أن لا يشوبه شيء من المعاني سوى التقرب إلى الله تعالى»(٣).

٨ ـ الثناء على الله عز وجل: فقبل طلب الحاجة من الكريم الوهاب فإنك تبدأ بالثناء عليه، وهذا الثناء على الله وهو الكامل

(١) الدعاء المأثور ص٥٢.
(٢) الدعاء المأثور ص٥٦.
(٣) الدعاء المأثور ص٦١.

سبحانه مما يُحبه الله، وهو من أسباب استجابة الدعاء، ومن شرع في سؤال حاجته والدعاء مباشرة دون أن يبدأ بالثناء على الله فقد عجل أو أساء الأدب.

وإن شئت أن تعرف عظم الثناء على الله وكونه من أعظم أسباب إجابة الدعاء فتأمل حديث الشفاعة العظمى كيف يحمد النبي ﷺ ربه بمحامد لم يفتحها عليه من قبل فيُقال له: يا محمد! ارفع رأسك، وسل تعطه[1].

قال أبو بكر الطرطوشي رحمه الله: «هذا إبراهيم خليل الله عليه السلام، لما أراد مناجاة مولاه في استقضاء حوائجه، واستدرار ما في خزائنه، بدأ بالثناء على ربه قبل سؤاله، فبدأ بالتخليق والهداية، فقال ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ * وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ * وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ ـ ٨٢]، فأثنى على الله بخمس ثناءات، أنه الخالق الهادي، المطعم المسقي، الشافي من الأوصاب، والمحيي والمميت، والغافر.

ثم سأل خمس حوائج: العلم والحكمة، وصلاح الخاتمة، فقال ﴿رَبِّ هَبۡ لِى حُكۡمًا وَأَلۡحِقۡنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ * وَٱجۡعَل لِّى لِسَانَ صِدۡقٍ فِى ٱلۡأٓخِرِينَ * وَٱجۡعَلۡنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٣ ـ ٨٥]»[2].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وروى أبو داود والنسائي من حديث أنس رضي الله عنه أنه كان مع النبي ﷺ جالساً ورجلٌ يُصلي، ثم دعا: «اللهم

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله عزّ وجل: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً﴾ (ص٥٥٥ ـ رقم ٣٣٤٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلاً (ص١٠١ ـ رقم ٤٧٥).
(٢) الدعاء المأثور ص٣٢.

إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنّان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم»، فقال النبي ﷺ «**لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى**».

فأخبر النبي ﷺ أن الدعاء يستجاب إذا تقدَّمه هذا الثناء والذكر، وأنه اسم الله الأعظم، فكان ذكر الله عز وجل والثناء عليه أنجح ما طلب به العبد حوائجه.

وهذه فائدة أخرى من فوائد الذكر والثناء، أنه يجعل الدعاء مستجاباً. فالدعاء الذي يتقدَّمه الذكر والثناء أفضل وأقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد، فإن انضاف إلى ذلك إخبار العبد بحاله ومسكنته وافتقاره واعترافه كان أبلغ في الإجابة وأفضل»(١).

٩ ـ الصلاة على النبي ﷺ: عن عمر ﷺ قال: «إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك ﷺ»(٢).

وعن فضالة بن عبيد ﷺ قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو في صلاته، لم يمجد الله، ولم يُصلِّ على النبي ﷺ فقال: عجل هذا، ثم دعاه، فقال له أو لغيره: «**إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه، والثناء عليه، ثم يُصلي على النبي ﷺ، ثم يدعو بعد بما شاء**»(٣).

وقال: حسن صحيح.

---

(١) الوابل الصيب ص٢٢٥ ـ ٢٢٩.

(٢) رواه الترمذي، كتاب الوتر، باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ (ص١٢٩ ـ رقم ٤٨٦).

(٣) رواه أبو داود، كتاب الوتر، باب الدعاء (ص٢٢٠ ـ رقم ١٤٨١)، والترمذي، رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب في إيجاب الدعاء بتقديم الحمد والثناء والصلاة على النبي ﷺ قبله (ص٧٩٣ ـ رقم ٣٤٧٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصلاة على النبي ﷺ للدعاء بمنزلة الفاتحة من الصلاة»[(١)].

وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللَّهُ «إذا سألت الله حاجة فابدأ بالصلاة على النبي ﷺ، ثم ادع بما شئت، واختم بالصلاة عليه، فإن الله سبحانه بكرمه يقبل الصلاتين، وهو أكرم من أن يدع ما بينهما»[(٢)].

١٠ ـ قوة الرجاء وحسن الظن بالله: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يقول: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا دعاني**»[(٣)].

ومن جُملة ما ذُكر من معاني اسم الله «المؤمن» أنه يُصدِّق ظنون عباده المؤمنين، ولا يُخيِّب آمالهم، كما أشار إلى ذلك الخطابي[(٤)].

وقال أبو بكر الطرطوشي في آداب الدعاء: «أن يُقوي رجاءه في مولاه، ولا يقنط من رحمة الله، وإن تأخرت الإجابة»[(٥)].

وقال ابن مفلح رَحِمَهُ اللَّهُ: «واعلم أن الدواء إنما ينفع غالباً ممن تلقّاه بالقبول، وعمله باعتقاد حسن، وكلما قوي الاعتقاد وحسن الظن كان أنفع»[(٦)].

١١ ـ عدم استعجال إجابة الدعاء: ينبغي على الداعي أن يحمل

---

(١) جلاء الأفهام ص٤٤٨، ط ـ دار عالم الفوائد.
(٢) الدعاء المأثور ص٤٤.
(٣) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ (ص١٢٧٣ ـ رقم ٧٤٠٥)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل ذكر الله (ص١١٦٩ ـ رقم ٦٨٣٢).
(٤) شأن الدعاء، ص٤٥.
(٥) الدعاء المأثور ص٣٥.
(٦) الآداب الشرعية: ١/ ١٥٤.

همّ الدعاء، فإن البعض من شدة عجزه وكسله يدع الدعاء فإذا بلغ العبد هذه الحال فقد تمّت خسارته، وقد عاقب نفسه بنفسه فإن الله جعل من جملة ما يُعذب به من ترك الأمر بالمعروف والنهي عدم إجابة دعائه، فكيف بمن ودّع الدعاء بنفسه، فهذا غاية ما يكون من الحرمان، والبعد عن التعرض لأسباب رحمة الله، وقد قال النبي ﷺ: **«أعجز الناس من عجز عن الدعاء»**(١).

وقال زياد بن أبي زياد: «أنا من أن أُمنع الدعاء أكثر خوفاً مني أن أُمنع الإجابة»، وكان يقول: «الإذن في الدعاء خير من العطاء»(٢).

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: **«يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي»**(٣).

وهناك قصور عند البعض في فهم معنى استجابة الدعاء، فالاستجابة لا تنحصر في عين ما دعوت به، فقد يعوضك الله خيراً منه، أو يدفع عنك من السوء من جنس ما دعوت به وأنت لا تشعر، وقد روى أحمد في مسنده أن النبي ﷺ قال: **«ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله إحدى ثلاث: إما أن تُعجّل له دعوته، وإما أن يدّخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها، قالوا: إذاً نكثر، قال الله أكثر»**(٤).

---

(١) رواه الطبراني في «الدعاء» (١/ ٨١١ ـ رقم ٦٠)، من حديث أبي هريرة، و(١/ ٨١٢ ـ رقم ٦١) من حديث عبدالله بن مفضل، وحسّن الحديثين محققه.

(٢) الدعاء المأثور ص٢٨.

(٣) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل (ص١١٠٢ ـ رقم ٦٣٤٠)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب بيان أنه يُستجاب للداعي ما لم يعجل (ص١١٨٦ ـ رقم ٦٩٣٥).

(٤) رواه أحمد (١٨/٣)، والترمذي، كتاب الدعوات، باب ما من رجل يدعو الله بدعاء إلا استجيب له (ص٨٢١ ـ رقم ٣٦٠٤).

١٢ ـ أن يتوسل في دعائه بأسماء الله الحسنى التي تُناسب ما دعا به، حتى لا يحصل تنافر بين حاجته واسم الله الذي استعمله الذي لا يقتضي مطلوبه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن من دعاء الله بأسمائه الحسنى أن يسأل في كل مطلوب، ويتوسل إليه بالاسم المقتضي لذلك المطلوب المناسب لحصوله، حتى إن الداعي متشفع إلى الله متوسل إليه به، فإذا قال: «رب اغفر لي وتُبْ عليَّ إنك أنت التواب الغفور»، فقد سأله أمرين، وتوسل إليه باسمين من أسمائه مقتضيين لحصول مطلوبه، وكذلك قول النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها، وقد سألته ما تدعو به إن وافقت ليلة القدر؟

«قولي: **اللهم إنك عفوٌّ تحب العفو فاعفُ عني**»، وكذلك قوله للصديق رضي الله عنه وقد سأله أن يعلِّمه دعاءً يدعو به: «**اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»[1].

صناعة الدعاء:

جرت عادة بعض أئمة المساجد أن يأتي بأدعية يصوغها هو بنفسه، ويرتبها ترتيباً فيه كثير من التكلف في السجع، والتوسع في التفصيل والبسط لم يجر عليه عمل سلفنا الصالح، وهذا من التكلف المذموم شرعاً وإن أطرب أسماع العوام، وأوجب لهم خشوعاً، فإن وجد العوام ليس عياراً على الشرع، بل السُّنة قاضية على أهواء الجميع، والسعيد من وسعته السُّنة واستحضر أن النبي ﷺ قد دلّ الناس على أقصى ما يوجب الخشوع والبكاء.

---

(١) بدائع الفوائد: ٢/ ٦١٥.

قال أبو بكر الطرطوشي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلموا - أرشدكم الله - أني رأيت كثيراً من الناس يقصدون في الدعاء السجع، وازدواج الألفاظ، ويذهبون مذاهب الفصاحة، والبراعة والتنطع والفخامة، فيكون الدعاء مسجوعاً موزوناً يضاهي مكاتبات أهل الدنيا التي يُقصد بها المباهاة بين الأقران، والمباراة بين النظراء والكتاب، وهذا باب منهيٌّ عنه في الدعاء»[١].

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لمولاه عكرمة: «وإياك والسجع في الدعاء فإني عهدت رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون ذلك»[٢].

فهذا ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يحكي هدي الرسول ﷺ وأصحابه، ويُبيّن أنهم ما كانوا يتكلفون السجع في دعائهم، ولا يقصدون إلى ذلك. بل وأخبرت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ كان يُحب الجوامع من الدعاء[٣].

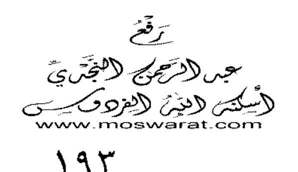
فالسُّنة أن يقصد العبد الأدعية الجامعة الواردة في القرآن والسُّنة لا أن يتكلف صناعة أدعية مبالغ في صياغتها.

قال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويستحب الاقتصار على جوامع الدعاء»[٤].

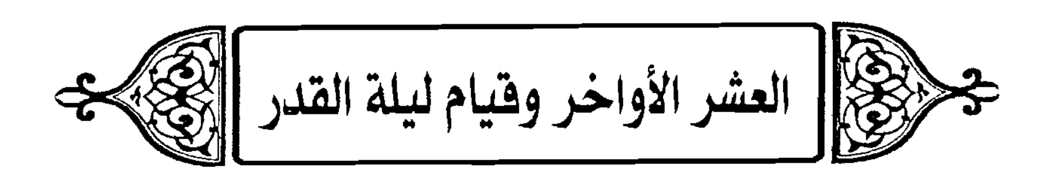
وقال أيضاً: «ويُكره في الدعاء السجع، وتكلف صنعة الكلام له»[٥].

---

(١) الدعاء المأثور ص١٣١.
(٢) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب ما يُكره من السجع في الدعاء (ص١١٠٢ - رقم ٦٣٣٧).
(٣) رواه أبو داود، كتاب الوتر، باب الدعاء (ص٢٢٠ - رقم ١٤٨٢)، وصحّحه ابن حبان (٢/ ١١٤ - رقم ٨٦٤).
(٤) شأن الدعاء ص١٤.
(٥) شأن الدعاء ص١٥.



الدرس الحادي والعشرون



العشر الأواخر وقيام ليلة القدر

ها هي ليالي العشر الأخيرة من رمضان أقبلت، أفضل ليالي السنة على الإطلاق، فيها ليلة القدر وهي خير من ألف شهر، أي خير من اثنين وسبعين سنة مما سواها، ليلة بعمر الإنسان من أمة محمد ﷺ، فإن النبي ﷺ قال: «**أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين**»[(١)]، وهذا العموم باعتبار الجنس، أي أن أغلب أعمار أمة محمد ﷺ ما بين الستين إلى السبعين، ومنهم من يُعمّر أكثر من ذلك، ومنهم من تخترمه المنية قبل الستين.

فتأمل أخي المسلم كيف أن عمل ليلة خير من عمرك كله مما سواها، ولذلك تلمح العلماء سر اختصاص أمة محمد ﷺ بمضاعفة الحسنات، لأن أعمار أمة محمد ﷺ قصيرة مقارنة بسائر الأمم كأمة نوح عليه السلام حيث مكث فيهم داعياً إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً.

دخلت العشر الأواخر من رمضان، والناس طبقات:

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب «أعمار أمتي بين الستين إلى السبعين» (ص٨٠٩ ـ رقم ٣٥٥٠). وقال: هذا حديث غريب حسن.

١ ـ فمنهم من دخل عليه رمضان وهو لاه غافل معرض عن الله تبارك وتعالى، الناس تلتمس تكفير السيئات وزيادة الحسنات، وتتعرض لرحمات الله عز وجل، وتبتغي فضله، وهو معرض عن ذلك كله، عمّر ليله بالسهر على معصية الله، وأمضى نهاره بالنوم، وضيّع الصلوات عن أوقاتها هذا إن صلاها.

هذا الصنف من الناس رمضان وغير رمضان عنده سواء، والمصيبة الكبرى إن كان حاله في رمضان أسوأ من غيره.

والسر في إعراض هذا هو أنه أعرض عن الله فأعرض عنه، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال النبي ﷺ في حديث الثلاثة نفر الذين حضروا مجلس العلم: «**أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله إليه، وأما الآخر فأعرض الله عنه**»(١).

والسر في إعراض هذا هو ما أصاب قلبه من الرين بسبب كثرة توارد الذنوب على القلب فجعلته قاسياً لا يلين لذكر الله، ولا ينقاد لطاعته كما قال سبحانه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، والسر في إعراض هؤلاء عن الطاعات في رمضان هو أنه طبع الله على قلوبهم بسبب تضييعهم الواجبات، فقد قال النبي ﷺ: «**لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات، أو يختمنَّ الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين**»(٢)، فهذا حال من ضيّع الواجبات، فهذا لا شك أنه قد جنى على نفسه وسعى في هلاكها، وحرمها

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس (ص١٦ ـ رقم ٦٦)، ومسلم، كتاب السلام، باب من أتى مجلساً فوجد فرجة فجلس فيها (ص٩٦٧ ـ رقم ٥٦٨١).

(٢) رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب التغليظ في ترك الجمعة (ص٣٤٧ ـ رقم ٢٠٠٢).

أسباب الخير والهدى والتقى والرحمة، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

هذا الصنف لا يُخرجه مما فيه إلا قارعة تقرع قلبه من زواجر القرآن ووعيده ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، أو تنزل به نازلة تُلجئه إلى الله لعلها تكون سبباً في بداية انطراحه بين يدي الله وحده لا شريك له، فيبدأ بالدعاء وهو من أجلّ العبادات فإذا بدأ بهذه العبادة فقد تفتح له أنواعاً من الطاعات الأخرى كالصلاة وغيرها، أو يكتب الله له الهداية بخلطة صالح أو غيره من الأسباب فإن الله يحيي الأرض بعد موتها، قد هدى إلى الإسلام أمماً من الكفار.

٢ ـ الصنف الثاني من الناس في رمضان من بدأ نشيطاً في أيامه الأولى ثم تناقص نشاطه وهكذا حتى خرج رمضان وفاته خير كثير، بل وفاته أفضل ليالي الشهر.

وهذا الصنف من الناس فيه خير، ولذلك لما دخل الشهر أقبل على الله ونشط في العبادة، لكنه لأنه لا يمارس هذه الأنواع الكثيرة من الطاعة من قبل، خصوصاً قيام الليل فاحتملها لعدة أيام ثم لم يصبر فتفسخ عن فعلها.

وهذا الصنف لو أنه جاهد نفسه وصبر لأدرك الخير ولألف الطاعة ثم تلذذ بها وأعانه الله عليها، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**ومن يتصبر يُصبره الله، ومن يستعف يُعفه الله**»[1].

٣ ـ الصنف الثالث الذي بدأ نشيطاً مع دخول شهر رمضان ثم فتر

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله (ص١١٢٢ ـ رقم ٦٤٧٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

قليلاً، لكنه عاد بعد ذلك نشيطاً واستمر نشاطه حتى أدرك فضل العشر الأخيرة من رمضان.

والسر في نشاط هذا الصنف ثم فتوره ثم نشاطه أخرى هو أن قلبه تعتريه مادتان، مادة صلاح ونشاط وهمة ورغبة في الخير، وتعتريه مادة شرّ وخمول، فحاله لأيهما غلب.

والسر في ذلك يعود إلى ما جُبلت عليه النفوس من الفترة والكسل أحياناً، فقد روى أحمد في مسنده من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ أن النبي ﷺ قال: «**إن لكل شيء شرّة، ولكل شرّة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد هُدي، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد ضلّ**»[1].

فهذا الصنف من الناس إذا نزلت به فترة خمول وكسل فلينتبه وليتعاهد إيمانه، وليتعرض لأسباب تجديده كما كان يفعل الصحابة والسلف ﵃ «اجلس بنا نؤمن ساعة».

ومتى ما شعر الإنسان بنقص ورأى في نفسه تراخياً عن الطاعات فليبادر بأداء العمرة، وزيارة العلماء، وخلطة أهل النشاط من الصالحين، وليقرأ سير السلف الصالح فإن ذلك كله مما يُجدد الإيمان ويبعث على النشاط، وليحذر من تلبيس إبليس الذي يُزيّن له حاله من الفتور، ويقول له إنك أفضل ممن لا يُصلي مطلقاً مثلاً وهكذا حتى يزداد في إعراضه وتضييعه للاستقامة.

(١) مسند (١/١٥٨)، (١/٦٥)، والترمذي، كتاب صفة القيامة، باب منه حديث «إن لكل شيء شرة» (ص٥٥٩ ـ رقم ٢٤٥٣) من حديث أبي هريرة ﵁، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

٤ ـ الصنف الرابع: هو الذي يبدأ نشيطاً في أول رمضان، فاجتماع الناس على الطاعة يحمله على النشاط وفيه رغبة للخير، ثم يترك النوافل، ويبقى محافظاً على الفرائض، ثم إذا جاءت ليلة سبع وعشرين أحياها ظناً منه أن ليلة القدر هي ليلة السابع والعشرين في كل سنة، وهذا خطأ وقصور علم منه، فإن هناك روايات كثيرة في أنها ليلة ثلاث وعشرين، وروايات كثيرة أنها ليلة خمس وعشرين.

ولذلك اختار جماعة من السلف أن ليلة القدر ليست مستقرة في ليلة واحدة في جميع السنوات، وأنها تنتقل فقد تكون هذه السنة في ليلة سبع وعشرين، وقد تكون في السنة القادمة ليلة تسع وعشرين، وهكذا، وهذا أرجح الأقوال، فبه يُجمع بين جميع الروايات المذكورة في تعيين ليلة القدر، ولأن مقتضى الإيمان هو تحري ليلة القدر وقيام العشر، بخلاف ما لو تعينت في ليلة واحدة بعينها فإن ذلك يفضي إلى أن يقصد الناس قيام هذه الليلة بعينها دون سائر الليالي، ولذلك بوَّب البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان [باب من الإيمان قيام ليلة القدر]، لأنه يحصل بعدم تعيينها محاب الله من كثرة الاجتهاد في الطاعة والعبادة.

٥ ـ الصنف الخامس من الناس: وهو من يبدأ العشر الأولى نشيطاً ثم يزداد نشاطه أكثر في العشر الأوسط، ثم يبلغ الذروة في العشر الأخيرة، فهذا أفضل الأصناف، وهذا الصنف من الناس لا شك أنه تهيأ للشهر قبل قدومه، فلما أقبل الشهر فإذا هو قد أعدّ العدة لاستقباله والقيام بحق الله فيه، قد أعطى كل مرحلة من العشر حقها، يسير في الشهر وله هدف محدد، لا يلتفت يمنة ولا يسرة.

وهنا لا بد أن نذكر الأسباب والمحفّزات التي تحمل على لزوم

الطاعة في الشهر كله عموماً، وبلوغ ذروة الاجتهاد في العشر الأخيرة، عسى أن يكون التنبيه على ذلك عوناً على التعاون على البر والتقوى، من تلك الأمور:

١ ـ معرفة فضل القيام عموماً، وقيام ليالي العشر وليلة القدر خصوصاً: فإن معرفة قيمة الشيء ونفاسته وفضله من أعظم الأسباب التي تحمل على قيام ليلة القدر، فهي المحرك الرئيسي لإتيان الأعمال، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه».

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه»، فمن منا مستغن عن مغفرة ذنوبه وتكفير سيئاته؟!

ومن منا من لم يُلمّ بذنب حتى يلتفت عن أسباب مغفرة الذنوب؟!

ليالي العشر فيها ليلة تُقدّر فيها مقادير السنة كاملة، فمن منا لا يُريد أن يُقدّر له فيها من خير الدنيا والآخرة؟!

٢ ـ تلمح العواقب والمآلات: فإن العاقل يُقبل على الشيء أو يُحجم بعد تلمح ما يؤول إليه مما يريد الإقبال عليه، أو تركه؟

فثمرات الصيام والقيام ثمرات عظيمة، فالصيام جُنة من النار، والصائمون لهم باب يخصهم لدخول الجنة، فتأمل هذا جيداً، كيف أن وجوه البر كثيرة وأبواب الجنة محصورة في ثمانية فقط، فتأمل كيف كان للصيام منها نصيب.

ومن صام يوماً في سبيل الله باعد الله النار عن وجهه سبعين خريفاً، وتأمل ثمرات الصيام فإنه يُضيّق مجاري الشيطان ويجعل قلب

صاحبه مخبتاً مقبلاً على أنواع الطاعات الأخرى من الذكر وتلاوة القرآن والصدقة والصيام. وانظر إلى ثمرات القيام العاجلة والآجلة، فالقيام دأب الصالحين، نور في القلب وضياء في الوجه، وأنس بالوقوف بين يدي الله، وقرة عين بالصلاة وفرح بالتهجد.

٣ ـ التأسي بأهل الفضل: فمن أعظم ما يبعث على استباق الخيرات، وفعل الطاعات التأسي بأهل الفضل، فإن التأسي بأهل التقى والصلاح والفضل دليل على شرف النفس، وتأسي الإنسان بأهل المعاصي والبطالة دليل على انحطاط نفس صاحبها ووضاعته.

قال أحمد بن حرب رَحِمَهُ اللهُ: «ليس شيء أنفع لقلب العبد من مخالطة الصالحين والنظر إلى أفعالهم، وليس شرّ أضر على القلب من مخالطة الفاسقين والنظر إلى أفعالهم».

٤ ـ شكر النعمة أن بلّغه الله رمضان، وغيره اخترمته المنية قبل أن يُدركه رمضان، ولذلك كان السلف يدعون ربهم ستة أشهر أن يُبلّغهم رمضان.

٥ ـ شكر النعمة أن بلّغه رمضان بعافية، وغيرك أجلسه المرض عن القيام وأداء الطاعات.

٦ ـ تحقيق العبودية: فإن استباقك للخيرات وفعل الطاعات تحقيق للعبودية التي من أجلها خُلقت، ولذلك كان النبي ﷺ يقوم حتى تتفطر قدماه، فتكلمه عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فيقول: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**».

٧ ـ شكر النعمة أن بلّغك الله رمضان وأنت عارفٌ بالطريق الموصل إلى الله، وتأمل غيرك كيف تتقلب به الأهواء، ومنهم تتجارى بهم كما يتجارى الكَلَبُ بصاحبه كما قال النبي ﷺ، ومن

الناس من ضلّ عن نعمة الإسلام، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

٨ ـ تلمح قصر المدة: فإن العاقل إذا نظر وتحقق أنه يستغرق وقتاً قصيراً ليفوز كثيراً وينال نعيماً كبيراً، فلا شك أنه لا يُفرط في ذلك، بل يبذل أقصى جهده في مدة يسيرة ليفوز كثيراً، بل ويرتاح ويسعد أبد الآبدين، فالصيام والقيام كما قال الله عز وجل: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ وثمرتها عظيمة من مغفرة الذنوب والفوز برضوان الرب، ويسلم له بذلك عامه كله كما نقلنا فيما سبق عن ابن القيم رحمه الله، وهكذا الشأن بالنسبة لعمر الإنسان في هذه الدنيا بالنسبة لمآل الآخرة السرمدي إما نعيم أو جحيم مقيم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، وغاية ما يذكره أكثر المتحدثين عن طول مكثه في الدنيا أنه مقدار يوم، قال تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٤].

٩ ـ إنك بقيامك الليل وإحياء العشر تحقق صدق دعواك بمحبة الله عز وجل، وصدق دعواك بالإيمان، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال الحسن البصري رحمه الله: «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي».

فمن يُحب الله يوافق محبوبه، ويتعرض لأسباب مرضاته.

١٠ ـ وفاء كل زمان حقه: فالله عز وجل فاضل بين الأزمنة وجعل بعضها أفضل من بعض، والله عز وجل ما فضّل بعضها على بعض إلا من أجل أن يكون عملنا في الأفضل أكثر، وأما من كان

عمله في جميع الشهور سواء، فهذا ضيّع حكمة الشرع في المفاضلة بين الشهور، وما قدر الأزمنة الفاضلة حق قدرها.

وقد كان النبي ﷺ يُعطي كل شهر حقه، ففي صحيح مسلم عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ كان يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره[١]. فتأمل قولها عنه «**ما لا يجتهد في غيره**» أي إنه قد أعطى هذا الشهر حقه.

١١ ـ ملازمة العبادة في العشر الأواخر شكر لما يسره الله لك من أداء العبادات والطاعات في العشرين الأولى من رمضان، وهي دالّة على قبول العمل في العشرين الأولى، لأن من علامة قبول الطاعة أنها تفتح لأخواتها من الطاعات والعبادات، قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًىۗ﴾ [مريم: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ﴾ [يونس: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

١٢ ـ إن للعبادات والطاعات لذة وحلاوة يعرفها ويستعذبها من مارسها، ومن قرّت عينه باستلذاذ الطاعات في العشرين الأولى وتذوق حلاوتها تجده يُبادر ويُسابق إلى اغتنام ما بقي من اللذات في العشر الأخيرة، ولا يؤثر لذة البطالة والراحة على ما تذوّقه من حلاوة الطاعة إلا من استبدل الأدنى بالذي هو خير.

١٣ ـ أداء حق عافية أعضاء البدن: فإن للعبادات البدنية أسراراً وحكماً، منها أداء حق العافية في هذه الأعضاء، فقد ذكر النبي ﷺ

(١) صحيح مسلم، كتاب الإعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من رمضان (ص٤٨٤ ـ رقم ٢٧٨٨).

أن في الإنسان ستين وثلاثمائة مفصل، وأن على كل مفصل صدقة، وبيَّن كيف تؤدى حقوق هذه الأعضاء، فقال: «**ويجزيء عن ذلك ركعتان يركعهما من الضحى**»[١]، فهذا الحديث واضح في أن تسبيحة الضحى شكر للعافية في البدن. فقيامك بالعبادات والطاعات من قيام ليل ونحوه هو من أداء حق الله في هذه الأعضاء، وهو من أسباب عافيتها والبركة فيها.

١٤ ـ إن الإنسان بقيامه العشر الأخيرة من رمضان وإحيائه الليل إنما هو في الحقيقة يطلب ما ينفعه، والمغبون من يتاجر التجارة الكاسدة التي تبور، فالبصير هو صاحب التجارة الرابحة التي لا خسارة فيها بحال، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩ ـ ٣٠].

١٥ ـ كم رمضان ضيّعنا: العاقل ينصف نفسه من نفسه، يمرّ به رمضان وهو يعلم تفريطه فيما مضى من عمره، ويعلم كم فاته من الفضل فيما سبق من رمضانات فائتة لا ترجع، فهل يُعقل أن يستمر في تضييع رمضانه الذي هو فيه؟!

ابن عمر ﷺ لما سمع حديث رسول الله ﷺ «**من تبع جنازة حتى يُصلّى عليها فله قيراط، ومن تبعها حتى تُوضع فله قيراطان**» رواه البخاري، قال عبد الله بن عمر ﷺ: فكم من قراريط فرّطنا فيها[٢].

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة الضحى (ص٢٩٢ ـ رقم ١٦٧١).

(٢) كتاب الجنائز، باب فضل اتباع الجنائز (ص٢١٢ ـ رقم ١٣٢٤).

فهذا يقوله ابن عمر ﵄ وهو الذي يتحرى التأسي بالنبي ﷺ في كل شيء، فكيف بنا نحن وقد فرطنا كثيراً!! فكم من رمضان ضيّعناه وكم من رمضان خلطنا فيه، فليكن رمضاننا هذا أفضل وأكمل.

١٦ ـ تضييع العشر الأخيرة من رمضان تأخر وتثاقل عن الخير والفضل والطاعة، ومن تأخر لغير عذر فإنه لا يزال به الشيطان حتى يُؤخره عن سائر الطاعات والقربات جزاءً وفاقاً، قال النبي ﷺ: «**لا يزال أقوام يتأخرون حتى يؤخرهم الله**»[1].

١٧ ـ طلب الحياة الحقيقية: فهذه هي الحياة الحقيقية، يحيا العبد حياةً طيبةً بلزوم الطاعات وإتيان القربات، فتقرّ عينه وينشرح صدره، فالعبد حقيقةً هو الذي يعرف الحياة الحقيقية فيعيشها كما أمره الله، فما قيمة الحياة إذا لم تعمِّرها بطاعة الله، وما قيمتك أيها الإنسان إذا حييت حياة البهائم تأكل وتتمتع وتعيش حياة مجردة عن روحها ومقصودها وهي طاعة الله ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

١٨ ـ تذكر سكرات الموت ووحشة القبور وأهوال القيامة، فهذه مقامات صعبة عسيرة ضنكة يجعلها الله يسيرةً وهينةً ونعيماً على من أعمر دنياه بالطاعة، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

١٩ ـ عبادة مودع: وهذا من أعظم الأسباب في قيام الشهر بحقه خصوصاً العشر الأخيرة، فإن العبد إذا استحضر أن الموت أقرب إليه من شراك نعله، وأنه لا يدري متى تخترمه المنية، وأنه قد يفجأه

(١) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب صف النساء والتأخر عن الصف الأول (ص١٠٧ ـ رقم ٦٨٠).

الموت في أي لحظة، قام العشر قيام من يُودّع الدنيا، وشأن الصادق الحريص أن يُودّع الدنيا بأحسن أعماله، فإن العبرة بالخواتيم.

٢٠ ـ المقصود الأكبر هو أن ترتاض النفس على الطاعة وتألف العبادة، فصيام شهر كامل وقيامه هو في الحقيقة تهذيب للنفوس وتربية لها لتألف العبادات والطاعات، فينبغي أن يكون المسلم هكذا بعد انقضاء رمضان يتقرب إلى الله بأنواع العبادات والطاعات، ولذلك نرى أن ابن مسعود ﷺ وبعض الكوفيين كان يرى أن ليلة القدر في السنة كلها، وابن مسعود ﷺ لا شك أنه لا يخفى عليه أن ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان، وإنما أراد ﷺ أن يلزم الناس قيام الليل في السنة كلها، وأن يتعرضوا لنفحات رحمة الله في السنة كلها، فالله عز وجل ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يستغفرني فأغفر له.

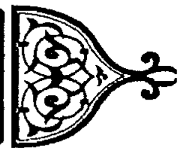
قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله[١]: «إن الأعمال التي كان العبد يتقرب بها إلى ربه في شهر رمضان لا تنقطع بانقضاء رمضان، بل هي باقية بعد انقضائه ما دام العبد حياً».

وقال: «قيل لبشر: إن قوماً يتعبدون ويجتهدون في رمضان، فقال: بئس القوم قومٌ لا يعرفون لله حقاً إلا في شهر رمضان، إن الصالح الذي يتعبد ويجتهد السنة كلها.

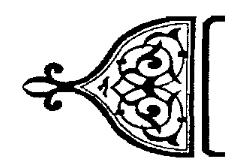
وسئل الشبلي: أيما أفضل، رجب أو شعبان؟ فقال: كن ربانياً ولا تكن شعبانياً»[٢].

(١) لطائف المعارف، ص٤٢٠، طبعة بيت الأفكار الدولية.
(٢) لطائف المعارف، ص٤٢١.

الدرس الثاني والعشرون



فقه الطفل



قالت الرُبَيع بنت معوذ ابن عفراء رضي الله عنها : كنا نُصوِّم صبياننا الصغار منهم ما شاء الله، ونذهب إلى المسجد فنجعل لهم اللعبة من العهن، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناها إياه عند الإفطار(١).

هذا الحديث فيه بيان ما كان عليه الصحابة من رعاية الأطفال والصبيان وتربيتهم التربية الصالحة، وحملهم على فعل العبادات والطاعات ولو كان فيها شيء من المشقة، لأن عاقبة لزوم الطاعة للصبيان خير.

والصبيان والأطفال قرة عين لوالديهم، قال تعالى في شأن عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، وهذا خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام كان من دعائه ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، قال مكي بن أبي طالب رحمه الله : أي اجعل في ذريتي من يقوم

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب صوم الصبيان (ص٣١٥ ـ رقم ١٩٦٠)، ورواه مسلم، كتاب الصيام، باب مَن أكل في عاشوراء فليكف بقية يومه (ص٤٦٤ ـ رقم ٢٦٦٩).

بالحق من بعدي، فاستجاب الله دعاءه أيما إجابة وجعل في ذريته النبوة والكتاب، ونبينا محمد ﷺ من ذريته، كما قال ﷺ: «**أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى أخي عيسى**»[(١)].

وانظر إلى مقامات الأنبياء ومطالبهم العالية وسؤالهم الله عز وجل أن يكشف كرباتهم، وأن يرفع ما نزل بهم من ضرّ كيونس وأيوب في سورة الأنبياء، ماذا كانت مسألة زكريا ﷺ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]، فرزقه الله يحيى الذي يكفيه نعت الله له بقوله سبحانه ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧].

والله عز وجل يرزق عباده ما شاء من الذرية ذكوراً وإناثاً، أو ذكوراً فقط، أو إناثاً فقط.

ومن رُزق الإناث فقط، أو حُرم الذرية فليرض ولا يسخط فإن هذه قسمة الله الحكيم العليم، قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠].

وكراهية البنات والنفور منهن من أخلاق الجاهلية، قال تعالى في شأن أهل الجاهلية: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨ ـ ٥٩].

وكم من بنت كانت فأل خير على والديها، بل وبركة على أهلها وقومها أجمعين.

---

(١) رواه أحمد (٤/١٢٧) وصحّحه ابن كثير في البداية والنهاية (٣/٤١٣).

ورعاية البنات والإحسان إليهن سبب لدخول الجنة، فعن عائشة ﵂ عن النبي ﷺ قال: «**من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كُنَّ له ستراً من النار**»[(١)].

ولا يكاد توجد رعاية وعناية للطفل في شريعة أكمل من شريعة الإسلام، عناية به وصيانته وحفظه وحرزه ورعايته من مرحلة النطفة إلى الولادة ثم رعايته حتى الفطام ثم القيام على تربيته حتى البلوغ وهكذا حتى يكون شاباً، وهكذا حتى آخر سني عمره، أي رعاية من المهد إلى اللحد.

فرعايته من النطفة إذ يُؤمر الزوج إذا أتى أهله أن يُسمي الله ويقول: «اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا»، لتصان النطفة في أول مرحلة عن الشيطان، ثم إذا وُلد المولود أن يُحنّكه، فيكون أول ما يدخل جوفه التمر، وكذلك يُؤذّن في أذنه أول ما يُولد ليكون أول ما يطرق سمعه كلام التوحيد.

قال ابن القيم ﵀: «وسر التأذين والله أعلم: أن يكون أول ما يقْرعُ سمع الإنسان كلماته المتضمِّنة لكبرياء الرب وعظمته، والشهادة التي أول ما يدخل بها في الإسلام، فكان ذلك كالتَّلْقِين له شعارَ الإسلام عند دخوله إلى الدنيا، كما يُلقنَّ كلمة التوحيد عند خروجه منها.

وغير مستنكر وصول أثر التأذين إلى قلبه وتأثيره به وإن لم يشعر، مع ما في ذلك من فائدة أخرى: وهي هروب الشياطين من كلمات الأذان، وهو كان يُرصد حتى يُولد، فيقارنه الشيطان للمحنة

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة (٢٢٩ ـ رقم ١٤١٨)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل الإحسان إلى البنات (ص١١٤٦ ـ رقم ٦٦٩٣).

التي قدَّرها الله وشاءها، فيسمع شيطانه ما يُضعفه ويُغيظه أوَّل أوقات تعلُّقه به.

وفيه معنى آخر: وهو أن يكون أول دعوته إلى الله، وإلى دينه الإسلام، وإلى عبادته سابقةً على دعوة الشيطان، كما كانت فطرة الله التي فُطر عليها سابقةً على تغيير الشيطان لها، ونقله عنها، ولغير ذلك من الحكم»[١].

كما أنه بعد أن يُحنّك ويؤذّن في إذنه، يُذهب به للصالحين للدعاء له بالبركة، فقد روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ كان يُؤتى بالصبيان فيُبرِّك عليهم، ويُحنكهم، فأُتي بصبي، فبال عليه، فدعا بماء، فأتبعه بوله.

قال الحافظ النووي رحمه الله: «قوله «فيبرك عليهم»: أي يدعو لهم، ويمسح عليهم، وأصل البركة: ثبوت الخير، وكثرته»[٢].

ويُسمى المولود بعد ذلك بأحسن الأسماء، وهذا من الإحسان للذرية، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وبأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم**»[٣].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحب أسمائكم إلى الله عز وجل: عبد الله، وعبد الرحمن**»[٤].

---

(١) تحفة المودود ص١٠٢ ـ ١٠٣.

(٢) شرح صحيح مسلم (٣/ ١٩٤).

(٣) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء (ص٦٩٧ ـ رقم ٤٩٤٨) من طريق مسدد ثنا هشيم عن داود بن عمرو عن عبد الله بن أبي زكريا عن أبي الدرداء. قال أبو داود: ابن أبي زكريا لم يُدرك أبا الدرداء.

(٤) رواه مسلم، كتاب الآداب، باب النهي عن التكنّي بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء (ص٩٥٢ ـ رقم ٥٥٨٧).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فحفظ المنطق وتخيّر الأسماء من توفيق الله للعبد»(١).

وبعد أن يسميه يعقّ عن الطفل في يوم سابع من ولادته، عن الذكر شاتان، وعن الأنثى شاة، وعن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل غلام رهينة بعقيقته، تُذبح عنه يوم سابعه، ويُسمى فيه، ويُحلق رأسه**»(٢).

والوالدان محبوسان من شفاعة ولدهما حتى يُعق عنه، فإنْ لم يُعق عنه وهو صغير فليبادر بفعل ذلك في أسرع وقت ليفك رهانه، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في فوائد العقيقة: «ومن فوائدها أنها قربان يتقرب به عن المولود في أول أوقات خروجه إلى الدنيا، والمولود ينتفع بذلك غاية الانتفاع، كما ينتفع بالدعاء له وإحضاره مواضع المناسك، والإحرام عنه، وغير ذلك.

ومن فوائدها أنها تفك رهان المولود، فإنه مرتهن بعقيقته، قال الإمام أحمد: «مرتهن عن الشفاعة لوالديه»، قال عطاء بن أبي رباح: مرتهن بعقيقته، قال: «يحرم شفاعة ولده»(٣).

ويُعتنى برضاعة الطفل حتى فطامه، قال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وأول ما

(١) تحفة المودود ص٢٦١.
(٢) رواه النسائي، كتاب العقيقة، باب متى يعق (ص٥٨٩ ـ رقم ٤٢٢٥)، وأبو داود، كتاب الضحايا، باب في العقيقة (ص٤١٣ ـ رقم ٢٨٣٨)، والترمذي، كتاب الأضاحي، باب من العقيقة (ص٣٦٩ ـ رقم ١٥٢٢)، وقال: حديث حسن صحيح.
(٣) تحفة المودود ص١٧٠.

يُبدأ في تنشئة الطفل عليه هو أصول العقيدة الصحيحة، وهذا ما فعله النبي ﷺ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت رديف النبي ﷺ، فقال: «**يا غلام ـ أو يا غُليم ـ ألا أُعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟**» فقلت: بلى، فقال: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف**»[(١)].

وكما أنه يربيه على العقيدة الصحيحة، فإنه كذلك يُكمّل بناءه بتربيته على ما يلحقه بالكبار، حتى إذا اشتد عوده كان متهيئاً لأمور الكبار، فقد روى مسلم في صحيحه عن عروة بن الزبير أن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما حين نفست بابنها خرجت إلى رسول الله ﷺ ليُحنّكه، فأخذه رسول الله ﷺ منها فوضعه في حِجْره، ثم دعا بتمرة، قال: فقالت عائشة رضي الله عنها: فمكثنا ساعة نلتمسها قبل أن نجدها، فمضغها ثم بصقها في فيه، فإن أول شيء دخل في بطنه ريق رسول الله ﷺ، ثم قالت أسماء: ثُمَّ مسحه، وصلَّى عليه، وسمّاه: عبد الله، ثم جاء وهو ابن سبع سنين، أو ثمان ليبايع رسول الله ﷺ، وأمره بذلك الزبير، فتبسَّم رسول الله ﷺ حين رآه مقبلاً إليه، ثم بايعه.

قال أبو العباس القرطبي رحمه الله: «معنى (صلى عليه): دعا له

---

(١) رواه أحمد (١/٢٩٣) والترمذي، كتاب صفة القيامة، باب حديث حنظلة (ص٥٧٢ ـ رقم ٢٥١٦)، وقال ابن رجب رحمه الله في نور الاقتباس، ص٣١: إسناد حسن لا بأس به.

بالخير والبركة»، ثم قال في فوائد الحديث: «ففيه جوازُ مبايعة من يعقل من الصغار، وتمرينهم على ما يُخاطب به الكبار»[١].

ويبدأ الوالدان بتربية الابن تربية صالحة، وهذا من أعظم الواجبات المناطة بالوالدين، وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «**فإن لزوجك عليك حقاً، ولزورك عليك حقاً؟ ولجسدك عليك حقاً، وإن لولدك عليك حقاً**»[٢].

قال الحافظ النووي رحمه الله: «**وإن لولدك عليك حقاً**» فيه: أن على الأب تأديب ولده وتعليمه، ما يحتاج إليه من وظائف الدين، وهذا التعليم واجب على الأب، وسائر الأولياء قبل بلوغ الصبي والصبية»[٣].

فيجب أن يُربى الصبيان على فعل الواجبات وترك المحرمات، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرّقوا بينهم في المضاجع**»[٤].

فينبغي تمرين الصبي على فعل الطاعات وترك المحرمات، ولا يصحّ أن يُترك الصبي بدون أن يُؤمر بفعل الطاعات وترك المحرمات، قال ابن القيم رحمه الله: «والصبي وإن لم يكن مُكلّفاً، فوليّه مكلف لا يحل له تمكينه من المحرَّم، فإنه يعتاده ويعسر فطامه عنه، وهذا أصح قولي العلماء.

---

(١) المفهم: ٥/ ٤٦٩.

(٢) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب حق الأهل في الصوم (ص٣١٨ ـ رقم ١٩٧٧)، ومسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به (ص٤٧٣ ـ رقم ٢٧٣٠).

(٣) شرح صحيح مسلم: ٨/ ٤٣ ـ ٤٤.

(٤) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة (ص٨٢ ـ رقم ٤٩٥)، وصحّحه الألباني.

واحتج من لم يره حراماً عليه بأنه غير مكلَّف، فلم يحرم لبسه للحرير كالدابة، وهذا من أفسد القياس، فإن الصبي وإن لم يكن مكلّفاً، فإنه مستعدٌ للتكليف، ولهذا لا يمكَّن من الصلاة بغير وضوء، ولا من الصلاة عرياناً ونجساً، ولا من شرب الخمر والقمار واللواط»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ما حرم على الرجل فعله حرم عليه أن يُمكّن منه الصغير، وقد رأى عمر على صبي للزبير ثوباً من حرير فمزقه، وقال: «لا تلبسوهم الحرير»، وكذلك ابن مسعود مزق ثوب حرير على ابنه»[٢].

والنبي ﷺ كان إذا رأى صبياً وقع في خطأ أنكره عليه وبيّن له الصواب، فقد رأى ﷺ غلاماً تطيش يده في الصحفة فقال له: «**يا غلام سمّ الله وكل بيمينك وكل مما يليك**».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ الحسن ابن علي رضي الله عنهما تمرةً من تمر الصدقة، فجعلها في فيه، فقال رسول الله ﷺ «**كخْ.. كخْ.. كخْ ارمِ بها، أما علمت أنّا لا نأكل الصدقة؟!**».

وبهذا يتبين خطأ من لا يزجر الصبيان عن المحرمات بدعوى أنهم غير مكلفين، قال أبو محمد عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي رحمه الله: «إنه أفرط الأمر، إذا رُئي أحد يأمر أهله بما يتعين عليه وعليهم من أمور الدين، ويشدد على أهله في الدين يُنهر، ويُقال له: دعه، فإنما

(١) تحفة المودود ص٤٥٥.
(٢) مجموع الفتاوى: ١٤٣/٢٢.

هو صبي، حتى يكون في سنك، وحينئذ يرجع الأمر كأن الدين دينان، دين للصغار، ودين للكبار»[١].

وكان النبي ﷺ يراعي حقوق الصبيان، ويحفظها ولا يتهاون في شيء منها، فعن سهل بن سعد الساعدي ﷺ أن رسول الله ﷺ أُتي بشراب وعن يمينه غلام، وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام: «أتأذن لي أن أُعطي هؤلاء؟ فقال: لا والله يا رسول الله، لا أوثر بنصيبي منك أحداً»[٢].

وكذلك الصحابة كانوا يحفظون حقوق الصبيان ولا يتهاونون بها، فقد قدّموا عمرو بن سلمة الجرمي ليصلي بهم وهو ابن ست أو سبع سنين، لأنه كان أحفظهم للقرآن، كما في صحيح البخاري.

وإذا كانت تصحّ إمامة الصبي المميز فمصافته من باب أولى، فلذلك من يتقدم من الصبيان المميزين للصلاة وهو يُحسنها ولا يشوش على المصلين فإنه لا تجوز مصادرة حقه في ذلك، قال شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله:

«إن جاء الصبي مبكراً، وتقدم وصار في الصف الأول، فإن القول الراجح الذي اختاره بعض أهل العلم، ومنهم جد شيخ الإسلام ابن تيمية وهو مجد الدين عبد السلام فإنه لا يُقام المفضول من مكانه، وذلك لقول النبي ﷺ: **«من سبق إلى ما لم يسبق إليه أحد**

---

(١) بهجة النفوس: ٢/ ٤٩.

(٢) رواه البخاري، كتاب الأشربة، باب هل يستأذن الرجل من عن يمينه (ص٩٩٦ ـ رقم ٥٦٢٠)، ومسلم، كتاب الأشربة، باب استحباب إدارة الماء واللبن ونحوهما على يمين المبتدئ (ص٩٠٥ ـ رقم ٥٢٩٢).

فهو أحق به»[١]، وهذا العموم يشمل كل شيء اجتمع استحقاق الناس فيه، فإن من سبق إليه يكون أحق به، ولأن النبي ﷺ: «نهى أن يقيم الرجل أخاه من مكانه ثم يجلس فيه» لأن هذا عدوان عليه.

فإن قال قائل: من سبق إلى ما لم يسبق إليه أحد فهو أحق به عام، وقوله: «**ليلني منكم أولو الأحلام والنهى**» خاص، والقاعدة أنه إذا اجتمع خاص وعام، فإن الخاص يُخصّص العام؟!

فالجواب عنه أن نقول: إن النبي ﷺ لم يقل لِيقُم منكم أولو الأحلام والنهى من كانوا دونهم، وإنما قال: «**ليلني منكم أولو الأحلام والنهى**»، وهذا حثّ لهؤلاء الكبار على أن يتقدموا ليلوا رسول الله ﷺ فهذا هو وجه الحديث، ولأن فيه مفسدة تنفير هؤلاء الصبيان بالنسبة للمسجد، لا سيما إذا كانوا مراهقين، أي: إذا كان للواحد منهم ثلاث عشرة سنة، أو أربع عشرة سنة، ثم نقيمه من مكانه»[٢].

وينبغي على الوالدين قصد صبيانهم بالتعليم، قال سفيان الثوري رحمه الله: «ينبغي للرجل أن يُكره ولده على العلم فإنه مسؤول عنه»[٣].

وقال ابن مفلح رحمه الله: «كان يُقال من أدّب ابنه صغيراً، قرّت به عينه كبيراً»[٤].

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الخراج، باب في إقطاع الأرضين (ص٤٥٠ ـ رقم ٣٠٧١)، من حديث أسمر بن مضرس رضي الله عنه.
(٢) الشرح الممتع: ٤/ ٣٩٣.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٧/ ٢٧٣.
(٤) الآداب الشرعية: ٣/ ٢٥٢.

وأول ما ينبغي أن تنصرف الهمم إلى تعليمه هو القرآن كتاب الله، ولا ينبغي للأب أن يجزع إذا لم يحفظ ابنه القرآن كله في صباه، فإن البعض يرى أو يسمع عن بعض الصبية أنه حفظ القرآن وهو ابن أربع سنين أو ست سنين، فإذا رأى ابنه لم يحفظ في مثل هذا السن مقداراً كبيراً من القرآن أيس من ابنه، وترك تحفيظه للقرآن، فهذا خطأ فأولئك خارجون عن عادة أمثالهم من صغار الصبيان، وبالصبر والإصرار وتحفيظ الطفل بحسب ما يحتمله ذهنه، فإن أذهان الصبيان تختلف، يدرك الطفل خيراً كثيراً. وهؤلاء خيار الصحابة وعلماء الأمة لم يحفظوا القرآن كله في سن الرابعة أو السادسة.

قالت عائشة ﵂: «وكنت جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن»[١].

وقال ابن عباس ﵄: «تُوفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين، وقد قرأت المحكم»[٢].

قال الحافظ ابن كثير ﵀: «وفيه دلالة على جواز تعلم الصبيان القرآن، لأن ابن عباس ﵄ أخبر عن سنّه حين موت رسول الله ﷺ، وقد كان جمع المفصل، وهو من الحجرات، وعمره إذ ذاك عشر سنين».

وقال أيضاً: «وعلى كل تقدير ففيه دلالة على جواز تعليم القرآن

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب حديث الإفك (ص٧٠١ ـ رقم ٤١٤١).
(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب تعليم الصبيان القرآن (ص٩٠٢ ـ رقم ٥٠٣٥)، وقال: «المحكم: المفصل».

في الصبا، وهو ظاهر، بل قد يكون مُستحباً أو واجباً، لأن الصبيَّ إذا تعلَّم القرآن بلغ وهو يعرف ما يُصلي به، وحفظه في الصغر أولى من حفظه كبيراً، وأشد علوقاً بخاطره، وأرسخ وأثبت كما هو المعهود من حال الناس.

وقد استحب بعض السلف أن يُترك الصبي في ابتداء عُمُره قليلاً لِلَّعب، ثم تُوفَّر همَّته على القراءة، لئلا يُلزم أولاً بالقراءة فيملَّها ويعدل عنها إلى اللعب.

وكره بعضهم تعليمه القرآن وهو لا يعقل ما يُقال له، ولكن يُترك حتى إذا عقل وميَّز عُلِّم قليلاً قليلاً، بحسب همَّته ونهمته وحفظه وجودة ذهنه. واستحب عمر بن الخطاب ﷺ أن يُلقَّن خمس آيات خمس آيات. رواه البيهقي في شعب الإيمان بسند جيد»[1] انتهى كلام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وهذا الذي ذكره ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ من استحباب ترك الصبي يأخذ حظه من اللعب زمن الطفولة هو من تمام الحكمة، لأن الصبيان نفوسهم ضعيفة يُخشى إذا حُملوا على محض الطاعة في جميع الأوقات أن تتفسخ نفوسهم، وقد ذكر هذا غير واحد من أئمة السلف. عن سعيد بن جبير أو إبراهيم قال: «كان يُعجبهم أن يُعلموا الغلام القرآن بعد صبوة»[2].

الصبوة: الميل إلى الهوى، قال الخطابي: «وإنما كان يعجبهم

---

(١) فضائل القرآن ص٢٢٦ ـ ٢٢٧.
(٢) رواه أحمد في الزهد ص٣٨٨.

ذلك منه وإن كان ترك الصبا أسلم له، لأنه إذا تاب وارعوى كان أشد لاجتهاده في الطاعة، وأكثر لندمه على ما فرط منه، وأبعد له من أن يعجب بعمله، أو يتكل عليه»[١].

وقد وُجد من السلف من كان عمره كلّه جد وطلبٌ للعلم، كمحمد بن عبد الباقي الأنصاري الكعبي قاضي المارستان أبو بكر، قال عن نفسه: «حفظت القرآن ولي سبع سنين، وما علمت أني ضيَّعت من عمري شيئاً في لهو أو لعب، وما من علم إلا وقد حصّلت بعضه أو كله»[٢].



(١) فضائل القرآن للمستغفري: ١/ ٢١٩.
(٢) الذيل على طبقات الحنابلة: ١/ ١٩٤.



الدرس الثالث والعشرون



ملاحاة الرجال (١)



فقد روى البخاري في «صحيحه» من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج ليُخبر أصحابه بليلة القدر فتلاحى رجلان فرفعت.

فهذه الملاحاة وقعت من الصحابة في شهر رمضان، وكانت سبباً لنسيان العلوم، فحينئذ ونحن نستلهم دروس رمضان يتعين علينا أن نتكلم عن أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسُّنة.

والجدال أدلة مشروعيته متنوعة في الكتاب، والسُّنة، والإجماع، وشريعة من قبلنا.

وأدلة القرآن كثيرة جداً منها قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «أخبر سبحانه أن الكفار لا يأتونه بقياس عقلي لباطلهم إلا جاءه الله بالحق، وجاءه من البيان والدليل وضرب المثل بما هو أحسن تفسيراً وكشفاً وإيضاحاً للحق من قياسهم»[1].

(١) نقض المنطق ص٨٩.

وكذلك ثناء الله على من أخذ بمجامع الحجة، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٨٣]، وحكاية المناظرات والمجادلات في القرآن كحكاية مناظرة إبليس، ومناظرة الملائكة، قال القرطبي رحمه الله: «فالقرآن مملوء من حكاية المناظرات والمحاورات، وهذا كله تعليم من الله عز وجل المجادلة في الدين»[١].

كذلك نجد القرآن مليء بذكر الحجج والأدلة والبراهين في تقرير الحقائق والعقائد والأحكام، وهذا تأصيل لقواعد هذا العلم، قال ابن القيم رحمه الله: «إذا تأملت القرآن وتدبَّرته وأعرته فكراً وافياً اطلعت فيه من أسرار المناظرات، وتقرير الحجج الصحيحة وإبطال الشبه الفاسدة، وذكر النقض، والفرق، والمعارضة، والمنع على ما يشفي ويكفي لمن بصّره الله، وأنعم عليه بفهم كتابه»[٢].

كذلك جاء الأمر صراحةً في القرآن بالمجادلة بالحسنى، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، قال الخطيب البغدادي رحمه الله: «فأمر الله رسوله في هذه الآية بالجدال، وعلّمه منها جميع آدابه من الرفق والبيان والتزام الحق والرجوع إلى ما أوجبته الحجة»[٣].

والسُّنة بأنواعها الثلاث: القولية، والفعلية، والإقرارية دلت على

(١) أحكام القرآن: ٣/ ٢٨٦.
(٢) بدائع الفوائد: ٤/ ١٣٠.
(٣) الفقيه والمتفقه: ١/ ٢٣٢.

مشروعية المناظرة، أما من السُّنة القولية فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**»(١).

قال أبو محمد ابن حزم رحمه الله: «وهذا حديث في غاية الصحة، وفيه الأمر بالمناظرة، وإيجابها كإيجاب الجهاد والنفقة في سبيل الله»(٢).

وأما السُّنة الفعلية فهي واضحة في وقوع المناظرات منه عليه السلام: فقد ناظر النبي ﷺ اليهود والنصارى، وناظر مشركي قريش في حل بهيمة الأنعام، وناظر عبد الله بن الزبعرى، وناظر ابن صياد، كذلك ناظر النبي ﷺ أصحابه في صلح الحديبية.

وكذلك سنته ﷺ الإقرارية ثبت بها وقوع المناظرة من أصحابه رضي الله عنهم بحضرته عليه السلام، فقد تجادل أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما بحضرة النبي ﷺ فيمن يجب تأميره على ركب بني تميم(٣).

وأما الإجماع فقد حكاه أكثر من عالم، فقد قال الخطيب البغدادي رحمه الله عن المجادلة بالحسنى: «وقد وجدنا الأمة متفقة على حسن المناظرة»(٤).

وشريعة من قبلنا شاهدة كذلك بأن النبيين جميعاً وقعت منهم المناظرات، وهذا واقع ضرورةً لكل صاحب رسالة يجادله خصومه، فلا بد أن يردهم إلى الحق، وأن يدفع عن الحق.

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٢٤)، والنسائي (٦/ ٧)، وأبو داود (٣/ ٢٢) كلهم من طريق حماد بن سلمة عن حميد عن أنس به. قال ابن عبد الهادي في المحرر في الحديث (٢/ ٤٣٩): إسناده على شرط مسلم.

(٢) الأحكام في أصول الأحكام: ١/ ٢٧.

(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿إِنَّ الذين ينادنك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ (٨/ ٥٩٢ ـ رقم ٤٨٤٧).

(٤) الفقيه والمتفقه: ٢/ ٦٢.

فهذا آدم تجادل مع موسى عليهما السلام في القدر، وهذا نوح عليه السلام بالغ في جدال قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، حتى قالوا له ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود:٣٢]، وكذلك ناظر إبراهيم عليه السلام عباد الكواكب، وامتدح الله حجته وبيّن أنها ربانية، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام:٨٣]، وكذلك ناظر إبراهيم عليه السلام النمروذ في توحيد الربوبية، وكذلك ناظر موسى عليه السلام فرعون.

والصحابة كذلك مجمعون على المناظرة، ومناظراتهم كثيرة مشهورة معلومة، فقد تناظروا في سقيفة بني ساعدة فيمن يلي الخلافة بعد النبي ﷺ، وتناظر أبو عبيدة مع عمر بن الخطاب رضي الله عنهما في القدر، وناظر عثمان بن عفان رضي الله عنه الخارجين عليه المبتغين لقتله، وكذلك تناظر معاوية مع أبي ذر رضي الله عنهما في كنز المال، وتناظر الصحابة في جمع القرآن في مصحف واحد، وتناظر أبو بكر الصديق مع عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما في قتال مانعي الزكاة، وتناظر ابن عباس رضي الله عنهما مع أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في ربا الفضل، وتناظر ابن عباس رضي الله عنهما مع معاوية رضي الله عنه في استلام الركنين الشاميين، إلى غير ذلك مما لا يأتي عليه الحصر.

قال ابن حزم رحمه الله: «وما أنكر قط أحد من الصحابة الجدال في طلب الحق»[١].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وهذه مناظرات رسول الله ﷺ وأصحابه

---

(١) الأحكام: ١/ ٢٨.

لخصومهم وإقامة الحجج عليهم، لا يُنكر ذلك إلا جاهل مفرط في الجهل»[(١)].

وهذه الأدلة المتنوعة الكثيرة التي ذكرناها هي في الجدال المحمود الذي فيه إقامة الحجج بأوضح البراهين، ومجادلة الخصوم بالحسنى، والنية فيه صالحة وهو إظهار الحق لا طلب المغالبة.

وهنا لا بد من الإشارة إلى فوائد الجدل المحمود، وهي كثيرة من أهمها:

١ ـ تمييز الحق من الباطل: فالمناظرة يحصل بسببها المقابلة بين الأقوال، وتمحيص الأدلة ومناطها، ويتبين بسبب ذلك أرجح القولين.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «الأدلة إنما وضعت ليستبين الصواب، وقد كان مقصود السلف المناصحة والحق»[(٢)].

٢ ـ تنشيط الذهن: ملاحاة الرجال وإيراد الأدلة ودلالاتها ومعارضة الأقوال تُنشّط الذهن، قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله «رأيت ملاحاة الرجال تلقيحاً لألبابهم»[(٣)].

وقال ابن عقيل الحنبلي رحمه الله: «فالجدل يشحذ ويرهف ويثير الخواطر، ويُخرج الدقائق، وكل ذلك آلة لإدراك العقل للحق»[(٤)].

٣ ـ مذاكرة العلم: المناظرة نوع من مذاكرة العلم، لما فيها من

(١) مفتاح دار السعادة: ١/ ١٤٦.
(٢) تلبيس إبليس ص١٢٠.
(٣) جامع بيان العلم وفضله: ٢/ ٩٧٢.
(٤) الواضح في أصول الفقه: ١/ ٥٢١.

سرد الأدلة وتحرير دلالاتها، وكان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ يُذاكر أصحابه، بل وتلاميذه بهذه الطريقة، فقد كان الإمام أحمد يقول للميموني في أجوبته لبعض مسائله: «لا تكتب، تعال حتى تناظر»(١).

٤ ـ كفّ عدوان المبطلين: أهل الباطل يلقون بالشبه على الناس ليجتذبوهم إلى أهوائهم وضلالاتهم وباطلهم، فقيام أهل الحق بمناظرتهم ورد شبههم يحصل بذلك كف عدوانهم، وصيانة أديان الناس.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن كان عالماً بالحق فمناظرته المحمودة أن يبيّن لغيره الحجة التي تهديه إن كان مسترشداً طالباً للحق إذا تبين له، أو يقطعه ويكفّ عدوانه إن كان معانداً غير متبع للحق إذا تبين له، ويوقفه ويُسلكه ويبعثه على النظر في أدلة الحق إن كان يظن أنه حق وقصده الحق»(٢).

٥ ـ شحذ الهمة للاستزادة من العلم: طالب العلم الحريص تراه يجتهد في تقصي أدلة الشرع ومعرفة ما يضادها وطرق نقضها خصوصاً إذا كان يجلس لنشر العلم، أو يقوم بواجب صيانة الشريعة من الأهواء، فهذا يُهيج الحرص لديه لمعرفة الحق على سبيل الاستقصاء.

قال الراغب الأصفهاني في فوائد المناظرات: «يثير الأنفة لاقتباس العلم»(٣).

---

(١) تهذيب الأجوبة ص١٠٩.
(٢) درء تعارض العقل والنقل: ٨/ ١٦٧.
(٣) الذريعة ص٢٥٩.

٦ ـ التدرب على مآخذ الأحكام: المناظرات لا شك أنها تُدرّب طالب العلم على معرفة مواقع الخلاف، وتمييز الأدلة وتحرير مواضع النزاع، وبيان وجه الدلالة من الأدلة على الأحكام، وهذا من أعظم ثمرات المناظرات.

قال أبو بكر الطرطوشي رحمه الله: «ومناظرة الأكفاء ومعاشرة النظراء تلقيح للعقول، وتهذيب للنفوس، وتدريب لمآخذ الأحكام»(١).

٧ ـ ظهور الدين والإيمان: إذا عارض أهل الباطل أهل الحق، فإن ردود أهل الحق سبب لظهور الحقائق وكشف التلبيسات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فالحق كالذهب الخالص، كلما امتُحن ازداد جودة، والباطل كالمغشوش المغشي، إذا امتحن ظهر فساده، فالدين الحق كلما نظر فيه الناظر، وناظر عنه المناظر، ظهرت له البراهين وقوي به اليقين، وازداد به إيمان المؤمنين، وأشرق نوره في صدور العالمين»(٢).

٨ ـ التحرر من التقليد: المقلد يأخذ قول غيره من غير حجة، ومثل هذا المنهج يُعطّل البحث والنظر، بل ويُلغي عقل صاحبه، قال ابن حزم رحمه الله: «المقلد راض أن يغبن عقله»(٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فإن التقليد لا يُورث إلا بلادة»(٤).

---

(١) سراج الملوك ص١٥٠.
(٢) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح: ١/ ١٥.
(٣) مداواة النفوس ص٧٤.
(٤) منهاج السنة: ٥/ ٢٨١.

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فاحرص يا أخي على معرفة المسائل بأدلتها ومآخذها، والمقابلة بين الأقوال الخلافية، واستوعب كل دليل قيل فيها، فبذلك ترتقي إلى درج ومعارف وعلوم لا يُوصل إليها إلا بهذا الطريق»[(١)].

٩ ـ فهم العلوم: بالمناظرات تتسع معارف طالب العلم، ويصير قادراً على ترتيب مقدمات العلوم منتظمة، ويكون مميزاً بين الحقائق والمغالطات، ولديه ميزان عادل يزن به العلوم، ويغوص في بحارها ملتقطاً دررها بثبات ورسوخ على بصيرة وهدى ودراية.

قال بعض المتأخرين في ابتداء علم النظر: «وما زال هذا العلم إذا وقف الإنسان منه على بعضه انفتح له ما وراء ذلك كالإنسان الذي يرى قصراً على بعد فيأتيه فيرى من قربه ما لم يكن يرى من بُعده، وكذلك إن تهيأ له الدخول إليه»[(٢)].

١٠ ـ إثراء في التأليف: المناظرات لا تنتهي ذيولها أحياناً عند ما جرى مشافهةً في مجلس المناظرة، فقد يستتبع ذلك تأكيد الحق ونشره بأسباب أخرى كالتأليف في المسألة المُتناظر فيها، قال أبو محمد ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لكل شيء فائدته، ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة، وهي أن توقَّد طبعي واحتدم خاطري وحيّ فكري وتهيج نشاطي، فكان ذلك سبباً إلى تواليف عظيمة النفع، ولولا استثارتهم ساكني، واقتداحهم كامني، ما انبعثت لتلك التواليف»[(٣)].

---

(١) المناظرات الفقهية ص٣٧.

(٢) الفقيه والمتفقه: ٢/ ٥.

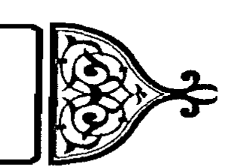
(٣) مداواة النفوس ص٤١.

١١ ـ استخراج الخفي من العلوم: المناظرة والمشاورة مع المبرزين في العلم مع إمعان النظر في النصوص والتفتيش عن معانيها سبب لاستخراج دقيق وخفي الفوائد والأحكام والمسائل، قال عبد الله بن المعتز رحمه الله: «بالبحث والنظر تُستخرج دقائق العلم»[١].



(١) الفقيه والمتفقه: ٢/٥.

الدرس الرابع والعشرون



ملاحاة الرجال (٢)

سبق أن ذكرنا أن النبي ﷺ خرج ليخبر أصحابه بليلة القدر، فتلاحى رجلان فنسي النبي ﷺ تعيين ليلة القدر(١).

وهذا يدل على شؤم المجادلة المذمومة، وأنها سبب للحرمان من بركة العلم، وهذا يقودنا ضرورة لبيان أنواع المجادلات المذمومة، وهي:

١ ـ الجدال بغير علم: يقول الله عز وجل مبكتاً أهل الكتاب جدالهم بغير علم: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٦].

قال القرطبي رحمه الله: «في الآية دليل على المنع من الجدال لمن لا علم له، والحظر على من لا تحقيق عنده»(٢).

٢ ـ الجدال فيما طُوي علمه: الغيبيات لا سبيل إلى معرفتها إلا

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضل ليلة القدر، باب رفع معرفة ليلة القدر (٤/ ٢٦٧ ـ رقم ٢٠٢٣) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٢) أحكام القرآن: ٤/ ١٠٨.

عن توقيف، وما لا توقيف فيه فالبحث عنه تكلف وتنطع، والواجب قطع النظر، والكف عن البحث فيما أخفاه الشرع.

قال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله: «إن ربنا تعالى أبدى شيئاً وأخفى أشياء، وإن المحفوظين بولاية الإيمان حفظوا ما أبدى وتركوا ما أخفى، وذهب آخرون يطلبون علم ما أخفى فهتكوا فهلكوا، فأداهم الترك لأمره إلى حدود الضلال فكانوا زائفين»[(١)].

وقال القاسم بن محمد رحمه الله: «يكفيكم أن تنتهوا إلى ما انتهى الله إليه»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته»**[(٣)].

وعن النبي ﷺ قال: **«إذا ذُكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذُكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذُكر القدر فأمسكوا»**[(٤)].

٣ ـ جدال التدارؤ بالنصوص: حرّم الشرع تدافع النصوص والتدارؤ بها، لأن الكل وحي من عند الله، مؤتلف غير مختلف، متفق غير مفترق، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ

---

(١) الإبانة: ١/ ٤١٩.

(٢) المعرفة والتاريخ: ١/ ٦٧٢.

(٣) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (ص٥٤٦ ـ رقم ٣٢٧٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها (١/ ١٢٠ ـ رقم ١٣٤).

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٢/ ٩٦ ـ رقم ١٤٢٧)، وأيضاً في (١٠/ ٢٤٣ ـ رقم ١٠٤٤٨). قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١/ ٣٦): إسناد حسن، وصحَّحه الألباني كما في السلسلة الصحيحة (١/ ٤٢ ـ رقم ٣٤).

ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢]، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن نفراً كانوا جلوساً بباب النبي ﷺ فقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا، فسمعهم رسول الله ﷺ فخرج فكأنما فقىء في وجهه حب الرمان، فقال: «**بهذا أُمرتم أو بهذا بُعثتم أن تضربوا القرآن بعضه ببعض، إنما ضلت الأمم قبلكم في مثل هذا فانظروا الذي أُمرتم به فاعملوا به، وانظروا الذي نُهيتم عنه فانتهوا عنه**»[١].

قال ولي الله الدهلوي رحمه الله: «يحرم التدارؤ بالقرآن، وهو أن يستدل واحد بآية فيردّه آخر بآية أخرى طلباً لإثبات مذهب نفسه وهدم وضع صاحبه، أو ذهاباً إلى نصرة مذهب بعض الأئمة على مذهب بعض، ولا يكون جامع الهمة على ظهور الصواب، والتدارؤ بالسنة مثل ذلك»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مراء في القرآن كفر**»[٣].

قال البغوي رحمه الله: «ذلك أنه إذا جادلك فيه أداه إلى أن يرتاب في الآية المتشابهة منه، فيؤديه ذلك إلى الجحود، فسمّاه كفراً باسم ما يخشى من عاقبته إلا من عصمه الله»[٤].

٤ ـ الجدال في المتشابه: المتشابه جعله الله فتنةً للذين في قلوبهم ميل وزيغ وهوى ومرض، فيخوضون فيه ويتناظرون فيه،

---

(١) رواه أحمد (٢/ ١٩٥ ـ ١٦٠)، وابن ماجة (١/ ٣٣ ـ رقم ٨٥)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ٥٣): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

(٢) الحجة البالغة: ١/ ٣٨٩.

(٣) رواه أحمد (٢/ ٢٦٨)، وأبو داود (٥/ ٩) والحاكم (٢/ ٢٢٣).

(٤) شرح السنة: ١/ ٢٦١.

ويضلون ويُضلون بذلك، وهذه طريقة أهل البدع كما نعتهم الإمام أحمد رحمه الله بقوله: «هم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويُلبسون على الجُهال بما يتكلمون به من المتشابه»(١).

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

٥ ـ جدال الانتصار للمذاهب: وقع بين أتباع أئمة المذاهب تشاحن وتشاجر وتنافر، وحصل بسبب ذلك عداوات وخصومات، ودُونت الخلافات والردود في بعضها بدواعي العصبية العمياء، وهذا كله من عمل الشيطان.

قال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: «لا يزال التعصب للمذاهب يملأ القلوب بالشحناء يشحنها، وقد نهى الله عن المجادلة لأهل الخلاف، فكيف بأهل الوفاق؟ إلا أن يقال أحسنها، وما علمنا أن في ذلك نية تُتخذ، ولا مصلحة تُوجد، ولا هداية تُعتقد بدراسة تفقد، بل نار عداوة توقد، وقلما أثمرت المشاجرة إلا خلافاً»(٢).

٦ ـ جدال الأغلوطات: وقع من بعض فقهاء أهل الكوفة توليد المسائل قبل وقوعها، واشتغلوا بتكلف الجواب عن ذلك، ثم تجادلوا في هذه المسائل وافترقت القلوب وظهرت بسببها الأهواء والشحناء.

(١) الرد على الجهمية، ص١٧٠.
(٢) الاتباع ص٨٩.

والواجب أن يطلب الناس العلم في الواضح الجلي، وما يحتاجونه ويتركوا التكلف، فعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ: «**ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم**»[(١)].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «فالتفقه في الدين إنما يُحمد إذا كان للعمل لا للمراء والجدال»[(٢)].

٧ ـ جدال اللدد وسوء الأدب: البعض إذا جادل غيره ظلم وتعدى وبغى، وربما أطلق العنان للسانه في سبّ مخالفه، وهذا مذموم شرعاً ولو كان صاحبه محقاً، فكيف إذا كان مبطلاً.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن النبي ﷺ قال: «**إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**»[(٣)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «لا بد أن تُحرس السُّنة بالحق والصدق والعدل، لا تُحرس بكذب ولا ظلم»[(٤)].

٨ ـ الجدال بعد ظهور الحق: المجادل في الحق بعد ظهوره هذا مسفسط، وهذا دليل سوء قصده، وأنه مشاغب لا يقصد طلب الحق.

فإذا ظهر الحق واضحاً وجب الانقياد، والكف عن الاسترسال في

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (١٣/ ٢٥١ ـ رقم ٢٧٨٨).
(٢) فتح الباري: ١٣/ ٢٦٤.
(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير باب (وهو ألد الخصام) (٨/ ١٨٨ ـ رقم ٤٥٢٣)..
(٤) درء تعارض العقل والنقل: ٧/ ١٨٢.

مناظرة أهل الشغب، قال تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: ٦].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «فكل من جادل في الحق بعدما تبين علمه أو طريق عمله فإنه غالط شرعاً وعقلاً»[١].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من جادل في باطل يعلمه لم يزل في سخط الله حتى ينزع**»[٢].



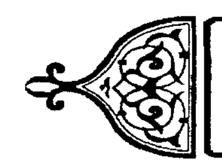
(١) القواعد الحسان ص١٣٠.

(٢) رواه أبو داود، كتاب الأقضية، باب في الشهادات (٤/ ٢٣ ـ رقم ٣٥٩٧)، وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ٣٠): إسناده صحيح.

الدرس الخامس والعشرون



ملاحاة الرجال (٣)



الجدال المحمود إنما يكون مع أصحاب القصد الحسن، وأهل الأدب، والعلم النافع، ولذلك ذكر العلماء أصناف من لا تحسن مناظرتهم، وهم:

١ ـ الجاهل: الجاهل لا علم عنده حتى يُناظر، ومقصود المناظرة تبيين الحق وكشفه، وإبداء المدارك التي هي مستند الأقوال، وكل ذلك مفقود عند الجاهل.

قال القاضي أبو بكر ابن العربي رحمه الله: «ولقد أخبرني غير واحد عن أبي حامد الإسفراييني أنه خرج يوماً على أصحابه مسروراً، فسألوه، فقال: ناظرت اليوم عامياً فظهرت عليه.

فقيل له: وأنت تظهر على الأئمة، فكيف تفرح بالظهور على العوام؟

فقال: العالم يردّه علمه وعقله ودينه، والعامي لا يردّه فهم، ولا يردعه دين، فغلبته نهزة ونادرة»[1].

---

(١) العواصم من القواصم ص٢١١.

وقال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: ٦٦].

قال أبو علي السكوني رحمه الله: «ولا يناظر إلا أهل التقدم في العلوم، إذ من ناظر من ليس بشيء كان خاسراً في كلا الطرفين: لأنه إن ظهر لم يظهر على شيء، وإن ظُهر عليه فقد ظُهر عليه لا بشيء»(١).

٢ ـ المبتدع: المبتدع صاحب هوى، وأهل الأهواء المقيمون على أهوائهم سنوات طويلة لا يُنتفع بمناظرتهم لأن طول مكثهم على بدعهم صيّر اعتقادهم في البدع اعتقاداً راسخاً يصعب معه أن ينتقل صاحبه منه إلى السُّنة والهدى إلا أن يشاء الله، لذلك قال عمر ابن عبد العزيز رحمه الله: «اثنان لا تعاتبهما: صاحب طمع، وصاحب هوى، فإنهما لا ينزعان»(٢).

وقال أيوب السختياني رحمه الله: «إن المبتدع لا يرجع»(٣).

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: «ما ناظرت أحداً علمت أنه مقيم على بدعة»(٤).

وهذا في الغالب، وإلا فهذا أبو الحسن الأشعري رحمه الله مكث في الاعتزال أربعين سنة ثم انتقل إلى مذهب ابن كُلاب، ثم إلى مذهب أهل السُّنة على سبيل الجملة وبقيت فيه بقايا من البدع.

---

(١) عيون المناظرات ص٢٧٩.
(٢) الاعتصام: ١/١٥٣.
(٣) غذاء الألباب: ٢/٥٨٣.
(٤) مناقب الشافعي للبيهقي: ١/١٧٥.

وأما حديث عهد بالبدعة فإنه يُناظر كما ناظر ابن عباس ﵄ الخوارج فرجع منهم ألفان.

٣ ـ السفيه: السفيه لا رشد في أقواله وأفعاله، فهذا الصنف من الناس تُهيِّج المناظرة خبيء نفسه، فتراه يُطلق لسانه في سب وتقبيح مناظره، وقد أمر الله بالإعراض عن السفهاء ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣]، وقال سبحانه: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩].

قال العلامة عبد الحميد بن باديس ﵀: «فعلى المؤمن أن يكون حاضر البال بهذه الآية عندما تسوق إليه الأقدار جاهلاً، فيخاطبه بما لا يرضيه حتى يسلم من شره، ويكسر من شرته، فيسلم له عرضه ومروءته ودينه، ويسلم ذلك الجاهل أيضاً من اللجاج في الشر، والتمادي فيه»[١].

قال الشاعر[٢]:

لا ترجعن إلى السفيه خطابه ... إلا جواب تحية حياكها
فمتى تُحركه تُحرك جيفة ... تزداد نتناً إن أردت حراكها

٤ ـ المتعنت: المتعنت ليس غرضه طلب الحق، فهو يجادل مغالبة، وهذا الصنف من الناس تؤول مناظرته إلى المراء، قال ابن سيرين ﵀: «لا تجادل إلا رجلاً إن كلمته رجوت أن يرجع، فأما من كلمته فجادلك فإياك أن تكلمه»[٣].

(١) آثار ابن باديس: ١/ ٤٤١.
(٢) الحلم لابن أبي الدنيا بواسطة «الهمة العالية» ص٦٣.
(٣) الحجة في بيان المحجة: ٢/ ٤٨٥.

٥ ـ الظالم: العلماء كانوا يفرون من مناظرة من لا ينصف من نفسه، لأن مع عدم الإنصاف يحصل الاعتساف، ولا ينتزع الحق من مثل هذا إلا بشغب وإساءة وغير ذلك مما هو مذموم شرعاً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمناظرة والمحاجة لا تنفع إلا مع العدل والإنصاف، وإلا فالظالم يجحد الحق الذي يعلمه، وهو المسفسط والمقرمط، أو يمتنع عن الاستماع والنظر في طريق العلم، وهو المعرض عن النظر والاستدلال»(١).

٦ ـ المجبول على الخلاف: هناك أقوام مجبولون على حب المخالفة، مذهبه مضادة من أمامه، ولذلك يتبدل مذهبه بحسب من يعارضه، فينكر ما كان يثبته بالأمس لأن مناظره اليوم مذهبه يختلف، فبالمضادة يتبدل المذهب.

قال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: «واحذر من مكالمة من ليس مذهبه إلا المضادة والمخالفة»(٢).

وقال أبو بكر الطرطوشي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا رأيت إنساناً جُبل على الخلاف، إن قلت نعم، قال: لا، وإن قلت لا، قال: نعم، فألحقه بعالم الحمير، فإن دأب الحمار إن أدنيته بعد، وإن أبعدته قرب، وأنت تستمتع بالحمار ولا تسبه ولا تفارقه، فاستمتع أيضاً بهذا الإنسان ولا تسبه ولا تفارقه»(٣).

---

(١) مجموع الفتاوى: ٤/١٠٩.
(٢) التقريب لحد المنطق ص١٩٦.
(٣) سراج الملوك ص٢٥٩.

٧ ـ المقلد: المقلد لا يعرف دليل القول الذي انتحله فضلاً عن أن يتمكن من المقابلة بين الأقوال المختلفة أو أن يزنها بميزان الشريعة، فمثل هذا لا يُنتفع بمناظرته، قال العلامة صديق حسن خان رحمه الله: «إن المقلد ليس ممن يعقل حجج الله إذا جاءته فضلاً عن أن يعرف الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، والراجح من المرجوح، بل لا ينبغي أن يُنسب المقلد إلى العلم مطلقاً»(١).

أما آفات الجدال المذموم فإنها كثيرة: الشيطان ينصب رايته في ميدان المناظرة، لأن الإنسان مجبول على دفع الهزيمة والانقطاع، فتراه يُنزِّل المناظرة منزلة المقاتلة، ومن كان هذا شأنه فإنه يستعمل كل ما في وسعه لئلا ينقطع، وإن كان ذلك بما يُذم شرعاً.

قال مسلم بن يسار: «إياكم والمراء فإنها ساعة جهل العالم، وعندما يبتغي الشيطان زلته»(٢).

وهذا سرد لكثير من آفات الجدال المذموم:

١ ـ تهييج الغضب: المناظرة تُحرك دواعي الغضب، والمناظر إذا غلبه الغضب حمله على أنواع من الشرور والمنكرات وما لا يُحمد.

قال الحافظ الذهبي رحمه الله «الخصومة تُوغر الصدور، وتُهيِّج الغضب، وإذا هاج الغضب حصل الحقد بينهما حتى يفرح كل واحد منهما بمساءة الآخر، ويحزن لمسرته، ويُطلق لسانه في عرضه»(٣).

---

(١) ظفر اللاظي ص٤٩.
(٢) رواه الدارمي (١/١٠٩)، وابن بطة في الإبانة (٢/٤٩٦).
(٣) الكبائر ص٢٢٢.

٢ ـ مفتاح للعداوة والبغضاء: المناظرات تورث الضغائن وتهيج العداوة بين الإخوان، ويحصل مع انقطاع البعض مخاشنة ومضايقة.

قال الإمام مالك رحمه الله: «الجدال في الدين يُنشىء المراء، ويذهب بنور العلم من القلب، ويُقسي القلب، ويورث الضغن»[١].

٣ ـ الترخص بالغيبة: بعد انقضاء المناظرة يخوض البعض في مخالفه ومناظره، ويغتابه بدعوى حكاية المناظرة، وربما انضاف إلى ذلك شيء من الكذب والتزيد في الكلام.

قال ابن الجوزي رحمه الله مبيناً مفاسد المناظرات: «ومن ذلك ترخصهم في الغيبة بحجة الحكاية عن المناظرة، فيقول أحدهم: تكلمت مع فلان فما قال شيئاً، ويتكلم بما يوجب التشفي من غرض خصمه بتلك الحجة»[٢].

٤ ـ إفساد النيات: المناظرات تُفسد النية، فترى المناظر همّه الغلبة والظهور على مخالفه والزهوّ عليه، وهذه أحوال النفوس الردية، أما النفوس الزكية فعلى العكس من ذلك تحب الخير، وأن يوفق الناس إلى الحق.

قال الإمام الشافعي رحمه الله: «ما كلمت أحداً قط إلا أحببت أن يُوفق ويُسدد ويُعان، وتكون عليه رعاية من الله وحفظ، وما كلمت أحداً قط إلا ولم أبال بيّن الله الحق على لساني أو لسانه»[٣].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ص٢١٢.
(٢) تلبيس إبليس ص١٢٠.
(٣) الفقيه والمتفقه: ٢/٢٦.

٥ ـ مشاغلة وتضييع للوقت: طالب العلم وقته ثمين لا يُضيّعه بمجادلات ومناظرات ثمراتها في الغالب ضعيفة أو معدومة، وليحذر طالب العلم من حيل بعض المبطلين الذين يصطنعون المناظرات مشاغلة وشغباً بغيرهم.

قال الحافظ الذهبي رحمه الله مبيناً مفاسد اللجاج: «وأقل ما فيها اشتغال القلب حتى أنه يكون في صلاته وخاطره متعلّق بالمحاجة والخصومة فلا تبقى حاله على الاستقامة»[١].

٦ ـ مدافعة الحق وردّه: المناظر إذا قصد المغالبة، فإن هذا يمنعه من الانقياد للحق، فتراه يرد الحق ويدفعه ويأباه، مكابرةً وعناداً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فإذا ظهر له الحق فعند عنه، كان ظالماً، وذلك مثل الألد في الخصام»[٢].

٧ ـ المخيلة بالمعرفة: المخيلة من أشهر وأظهر آفات المناظرة، قال ابن الجوزي رحمه الله: «أيذهب زمانكم يا فقهاء في الجدل والصياح؟ وترتفع أصواتكم عند اجتماع العوام تقصدون المغالبة، أو ما سمعتم «**من طلب العلم ليباهي به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس إليه لم يرح رائحة الجنة**»»[٣].

٨ ـ الترخص بالكذب: قد لا يخلص للمناظر جواب لكل إيراد يورده عليه مخالفه، فربما حمله قصده الفاسد على الكذب حتى يحصل له الظهور.

(١) الكبائر ص٢٢٢.
(٢) الجواب الصحيح: ٢/٣٨.
(٣) صيد الخاطر ص٣٨٣.

وقد علّق ابن الأثير الجزري على حديث: «من طلب صرف الحديث يبتغي به إقبال وجوه الناس» بقوله: «أراد بصرف الحديث ما يتكلفه الإنسان من الزيادة فيه على قدر الحاجة، وإنما كره ذلك لما يدخله من الرياء والتصنع، ولما يخالطه من الكذب والتزيد»(١).

٩ ـ تقحم الباطل: المناظرات تُقحم الإنسان في أمور ربما لا يعتقدها، وإنما يفعل ذلك دفعاً لمن يُناظره.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ: «إن للخصومات قحماً وإن الشيطان يحضرها»(٢).

١٠ ـ تحريف النصوص: متى ما قصد المناظر المغالبة، فإنه ربما يهتك حرمة نصوص القرآن والسُّنة، وأخذ يُحرِّفها ليجعلها تبعاً لهواه، فإن هذا من المراء الذي قال فيه النبي ﷺ: **«مراء في القرآن كفر»**.

وقال ابن عباس ﷺ: «ما اجتمع رجلان يختصمان فافترقا حتى يفتريا على الله عز وجل»(٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فمن دفع نصوصاً يحتج بها غيره لم يؤمن بها، بل آمن بما يحتج، صار ممن يؤمن ببعض الكتاب، ويكفر ببعض»(٤).

١١ ـ مشاكلة العلماء: المتعالمون يجدون في المناظرات بغيتهم

---

(١) النهاية في غريب الحديث: ٣/ ٢٤.
(٢) منهاج السُّنة: ٦/ ١٦٩.
(٣) الإبانة: ٢/ ٥١٩.
(٤) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٢٢٧.

في إظهار تعالمهم، وإظهار تشبههم بالعلماء، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد أقام الله سبحانه لكل عالم ورئيس وفاضل من يُظهر مماثلته، ويرى الجُهال وهم الأكثرون مساجلته ومشاكلته، وأنه يجري معه في الميدان، وأنهما عند المسابقة كفرسي رهان، ولا سيما إذا طوَّل الأردان، وأرخى الذوائب الطويلة وراءه كذنب الأتان، وهذر باللسان، وخلا له الميدان الطويل من الفرسان.

فلو لبس الحمار ثياب خز لقال الناس يا لك من حمار

وهذا الضرب إنما يُستفتون بالشكل لا بالفضل، وبالمناصب لا بالأهلية، قد غرّهم عكوف من لا علم عنده عليهم، ومسارعة أجهل منهم إليهم، تمجُ منهم الحقوق إلى الله تعالى مجّاً عجيباً، وتضجّ منهم الأحكام إلى من أنزلها ضجيجاً»[1].

١٢ ـ تفحّش اللسان: أصل المناظرة تردد القول ودفعه بين اثنين، فاللسان هو فارس الميدان، ومتى ما استعرت المناظرة واشتدت انفلت اللسان، وتعسر ضبطه، ووثاقه.

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ضبط اللسان في الخصومة على حدّ الاعتدال متعذر»[2].

وقيل لحاتم الأصم: أنت رجل أعجمي لا تفصح، وما ناظرت أحداً إلا قطعته، فبأي شيء تغلب خصمك؟

---

(١) أعلام الموقعين: ٢٠٨/٤.
(٢) الكبائر ص٢٢٢.

قال: «بثلاث، أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ لساني أن أقول له ما يسوؤه»[(١)].

١٣ ـ نسيان العلوم: اللجاج قد يُحرم بسببه العبد بركة العلم والانتفاع به، فهذا النبي ﷺ خرج ليُخبر أصحابه بليلة القدر فتلاحى رجلان فرُفعت[(٢)].

قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله: «وأما الملاحاة فهي التشاجر ورفع الأصوات والمراجعة بالقول الذي لا يصلح على حال الغضب، وذلك شؤم»[(٣)].

١٤ ـ تتبع العورات: من أعظم آفات المناظرات أنها تبعث في بعض الفجار من المناظرين تتبع عورات مخالفه، طلباً لقهره وتشفياً لنفسه.

قال ابن فرحون المالكي رحمه الله «اعلم وفقنا الله وإياك أن المراء والجدال يُورث العداوة والبغضاء، ويبعث على كشف العورات والحمية»[(٤)].

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «وليحذر أهل العلم من الاشتغال بالتفتيش عن أحوال الناس وعيبهم، فإنه مع أن صاحبه مستحق للعقوبة، فإنه يُشغل عن العلم، ويصدّ عن كل أمر نافع»[(٥)].

(١) الحكم الجديرة بالإذاعة ص٣٥.
(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما يُنهى من السباب واللعن (ص١٠٥٦ ـ رقم ٦٠٤٩).
(٣) التمهيد: ٢/ ٢٠١.
(٤) الزاهر ص٣٤٥.
(٥) نور البصائر والألباب ص٧٨.

١٥ ـ الحرمان من الاهتداء إلى الحق: من صار في مناظراته لجوجاً ممارياً قصده الظهور وقهر خصمه فإنه يُحرم التوفيق إلى الحق والهداية إليه إلا ما شاء الله، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لعله إذا ردّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ قلبه فيهلكه».

وقال ابن عقيل الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن خاض في الشغب تعوّده، ومن تعوَّده حُرم الإصابة واستروح إليه، ومن عُرف به سقط سقوط الذرة»[(١)].

١٦ ـ إحداث البدع: المناظر إذا كان قصده الغلبة لعله يدفع بسبب ذلك قول مناظره باختراع قول جديد ليُفرّج به مضايق وإلزامات مخالفه، ثم يأتي الأتباع فيتابعونه على بدعته.

قال عمرو بن قيس للحكم بن عتيبة: «ما اضطر المرجئة إلى رأيهم؟ قال: الخصومات»[(٢)].



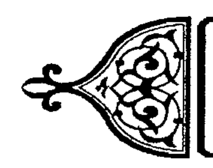
(١) الواضح في أصول الفقه: ٣/ ١٤٥٤.
(٢) ذم الكلام: ٥/ ٦٢.



الدرس السادس والعشرون



التوبـــة



عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر**»(١).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه**»، وفيهما أيضاً من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «**من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه**».

فرمضان مدرسة في التوبة، وهذه النصوص التي ذكرتها تدلّ دلالة واضحة على أن الأعمال الصالحة تُكفر السيئات، وأن حسنات الصيام والقيام تُكفر السيئات، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤]، وعن

(١) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إليّ الجمعة ورمضان إليّ رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر (ص١١٧ ـ رقم ٥٥٠).

أبي ذر ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «**اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن**»(١).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ثم حسنة أخرى فانفكت أخرى حتى تخرج إلى الأرض**»(٢).

فالله عز وجل يريد منا أن نتعرض لرحمته وأسباب عفوه ورضاه، لأننا بشر وورثنا طبيعة أبينا آدم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، وقال النبي ﷺ: «**فعصى آدم فعصت ذريته**».

وفي حديث أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**»(٣).

فالله عز وجل يريد منا أن نستغفر ونتوب إليه ونتودد إليه بمرضاته ومحابه وهي الطاعات، قال شعيب عليه السلام داعياً إلى الاستغفار والتوبة إلى الله: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

ومن علم أن ربه رحيم ودود غفور فلا شك أنه يبادر إلى التوبة إليه، بل الله عز وجل يحب التوبة من عباده، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس (ص٤٦٠ ـ رقم ١٩٨٧)، وقال: حسن صحيح.

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٤٥)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢٨٤)، وابن أبي الدنيا في «التوبة» (٣/ ٤١٤ ـ مجموع رسائل ابن أبي الدنيا).

(٣) رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب في استعظام المؤمن ذنوبه (ص٥٦٨ ـ رقم ٢٤٩٩)، وابن ماجة، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة (ص٦١٩ ـ رقم ٤٢٥١).

يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ويفرح الله عز وجل إذا تاب عبده إليه، فأي ترغيب في التوبة أعظم من هذا، فعن عبد الله ابن مسعود ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دوية ـ مفازة ـ مهلكة، معه راحلة عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتدّ عليه الحر والعطش أو ما شاء الله قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده، فلله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته»[١].

بل إن الله عز وجل أخبر أن العبد لو جاء بملء الدنيا ذنوباً ثم أقبل إلى الله تائباً صادقاً مستغفراً منيباً فإن الله يغفر له، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة»[٢].

بل إن الله عز وجل أخبر أنه يقبل توبة المشرك والكافر إن انتهى، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة (ص١٠٩٧ ـ رقم ٦٣٠٩)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة (ص١١٨٩ ـ رقم ٦٩٥٣).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب الحديث القدسي: «يا ابن آدم إنك ما دعوتني...» (ص٨٠٧ ـ رقم ٣٥٤٠). وقال: حديث حسن غريب.

بل إن الله عز وجل ورسوله ذكرا قصص الأنبياء والصالحين ومقاماتهم في توباتهم وإناباتهم لنتعرض لرحمة الله ونبتغي عفوه ورضوانه ومغفرته وإحسانه، كما ذكر الله في قصة يونس عليه السلام ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]، والنبي ﷺ كذلك ذكر قصة الذي قتل تسعةً وتسعين نفساً فغفر الله له، وفيه قال المفتي العالم: «ومن يحول بينك وبين التوبة»[١].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يبسط يده ليتوب مُسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها**»[٢].

ولا أحد يستغني عن التوبة، فإن الله عز وجل ذكر الأنبياء ومقاماتهم في تكميل عبوديتهم بعد توبتهم، وكذلك السابقون الأولون، فمن هذا الذي هو فوقهم حتى يستغني عن التوبة.

قال الإمام الشافعي رحمه الله: «لا أعلم أحداً أُعطي طاعة الله حتى لم يخلطها بمعصية إلا يحيى بن زكريا عليه السلام»[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وينبغي أن يُعرف أن التوبة لا بدّ منها لكل مؤمن، ولا يكمل أحد ويحصل له كمال القرب من الله، ويزول عنه كل ما يكره إلا بها»[٤].

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء (ص٥٨٥ ـ رقم ٣٤٧٠)، ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل (ص١١٩٩ ـ رقم ٧٠٠٨).
(٢) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب (ص١١٩٦ ـ رقم ٦٩٨٩).
(٣) رواه الخطيب في الكفاية: ١/ ٢٧٠ ـ رقم٢١٥، وإسناده صحيح.
(٤) مجموع الفتاوى: ١٥/ ٥٥.

والله عز وجل له حكمة بالغة فيما يُقدره على عباده من الذنوب، فإنه سبحانه يريد أن يجعل عباده بعد التوبة أكمل منهم قبل مقارفة الذنب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والله تعالى يبتلي عبده المؤمن بما يتوب منه: ليحصل له بذلك من تكميل العبودية والتضرع، والخشوع لله والإنابة إليه، وكمال الحذر في المستقبل والاجتهاد في العبادة ما لم يحصل بدون التوبة كمن ذاق الجوع والعطش، والمرض والفقر والخوف، ثم ذاق الشبع والري والعافية والغنى والأمن، فإنه يحصل له من المحبة لذلك وحلاوته ولذته، والرغبة فيه وشكر نعمة الله عليه، والحذر أن يقع فيما حصل أولاً ما لم يحصل بدون ذلك»(١).

وقال أيضاً: «الذنب الذي يضرّ صاحبه هو ما لم يحصل منه توبة، فأما ما حصل منه توبة فقد يكون صاحبه بعد التوبة أفضل منه قبل الخطيئة، كما قال بعض السلف: كان داود بعد التوبة أحسن منه حالاً قبل الخطيئة»(٢).

وقال أيضاً: «فالعبد المؤمن إذا تاب وبدّل الله سيئاته حسنات انقلب ما كان يضره من السيئات بسبب توبته حسنات ينفعه الله بها، فلم تبق الذنوب بعد التوبة مضرة له، بل كانت توبته منها من أنفع الأمور له، والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية»(٣).

والعبد مركوز فيه حب الشهوات كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ

(١) مجموع الفتاوى: ١٥/ ٥٥.
(٢) مجموع الفتاوى: ١٥/ ٥٤.
(٣) مجموع الفتاوى: ١٥/ ٥٥.

﴿حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤]، وتعتريه كذلك الغفلة، فإذا غفل وسوس له الشيطان، ووردت خواطر المعاصي على قلبه، ثم تصير الخواطر إرادات فتؤزه الشياطين إلى المعاصي أزاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾ [النور: ٢١] ولذلك أمرنا الله بالتعوّذ من وسوسة الشيطان، قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١ ـ ٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن العبد إذا غفل عن ذكر الله جثم على قلبه الشيطان، وانبسط عليه، وبذر فيه أنواع الوساوس التي هي أصل الذنوب كلها، فإذا ذكر العبد ربه واستعاذ به، انخنس وانقبض، كما ينخنس الشيء ليتوارى وذلك الانخناس والانقباض: هو أيضاً تجمُّع ورجوع، وتأخر عن القلب إلى خارج، فهو تأخر ورجوع مع اختفاء»[1].

وقال أيضاً: «فإن ذكر الله هو مقمعته التي يُقمع بها، كما يقمع المفسد والشرير بالمقامع التي تردعه من سياط وحديد وعِصيّ ونحوها.

فذكر الله يقمع الشيطان ويؤلمه ويؤذيه، كالسياط والمقامع التي تؤذي من يضرب بها، ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيلاً ضئيلاً مُضنى، مما يعذبه المؤمن ويقمعه به من ذكر الله وطاعته.

وفي أثر عن بعض السلف: أن المؤمن يُنضى شيطانه كما يُنضي الرجل بعيره في السفر، لأنه كلما اعترضه صبّ عليه سياط الذكر،

---

(١) بدائع التفسير: ٥/٤٤٩.

والتوجه والاستغفار والطاعة، فشيطانه معه في عذاب شديد، ليس بمنزلة شيطان الفاجر الذي هو معه في راحة ودعة، ولهذا يكون قوياً عاتياً شديداً.

فمن لم يعذب شيطانه في هذه الدار بذكر الله تعالى وتوحيده واستغفاره وطاعته عذّبه شيطانه في الآخرة بعذاب النار، فلا بد لكل أحد أن يعذب شيطانه أو يعذبه شيطانه»(١).

وهنا لا بد من بيان وتوضيح ما يكون حاجزاً يحجز العبد عن الوقوع في المحرمات ومقارفة السيئات:

أولاً: أن يعلم العبد أن الحرب مع الشيطان مستمرة، وأن الشيطان عدو يبتغي أذيتك منذ ولادتك، فكن منه على حذر دائم، واصرعه قبل أن يصرعك، وتأسى بالسلف الصالح فإنهم وأرواحهم في النزع يرون أن الحرب مع عدو الله إبليس لم تنته بعد.

فهذا الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله يقول عنه ابنه عبد الله: لما حضرت أبي الوفاة جلستُ عنده وبيدي الخرقة لأشد بها لحييه، فجعل يغرق ثم يفيق، ثم يفتح عينيه، ويقول بيده هكذا: لا بَعْدُ لا بَعْدُ، ثلاث مرات، فلما كان في الثالثة، قلت: يا أبةِ، أي شيء هذا الذي لهجتَ به في هذا الوقت؟ فقال: يا بُني، ما تدري؟ قلت: لا، قال: إبليس لعنه الله قام بحذائي، وهو عاض على أنامله، يقول: يا أحمد فُتَّنى، وأنا أقول: لا، بَعْدُ حتى أموت»(٢).

ثانياً: الالتجاء إلى الله أن يعصمك من الزلل ويجنبك الفتن، فالقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، وإذا كان

---

(١) بدائع التفسير: ٥/ ٤٥٠.
(٢) سير أعلام النبلاء: ١١/ ٣٤١.

النبي ﷺ المعصوم والمسدد بالوحي أكثر دعاءه يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك كما في صحيح البخاري فنحن أحوج.

وقد ذكر محمد بن أحمد الواعظ عن أحد الأشياخ وهو يودع طالب علم خراساني بعد انقضاء رحلته من العراق أنه قال له: من أين أنت؟ قال: من خراسان، قال: هل يكون هناك شيطان؟ قلت: نعم، الشيطان في كل موضع، قال: فما يصنع أحدكم إذا قصده الشيطان ليفتنه ويضله؟ قلت يردّه بالجدّ والاجتهاد وبالمحاربة، قال: فإن عاد؟ قلت: يعود، قال: إذاً يذهب عمرك في مكايدة الشيطان ولا تتفرغ للعبادة والخدمة، أرأيت إذا مررت براعي غنم وله كلب عقور يقصد من أقبل وأدبر؟ فإذا أردت أن تحاربه وتدفعه عن نفسك: لم تتفرغ لشيء، قلت: فما أصنع، قال: تنادي صاحب الكلب فيدفعه عنك ويمنع كلبه إذ ذاك بفضل سلطانه(١).

ثالثاً: تذكر عواقب الأمور: فالعاقل يعرف أنه سيوافي ربه، وأن أعماله محصاة عليه، وأن الحساب والعقاب آت لا محالة، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧ ـ ٨]، والنبي ﷺ قال: «**كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له**، فقالوا: يا رسول الله، كيف نقول؟ قال: **قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا**»(٢).

وكذلك ينبغي على العبد أن يتذكر سوء عاقبة الذنوب والمعاصي في الدنيا قبل الآخرة، فإنها والله تحجزه عن الطاعات إن كان يعقل ذلك.

---

(١) ملتقط الحكايات لابن الجوزي ص٢٤٢.

(٢) رواه أحمد (١/ ٣٢٦)، وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٧١): «وهو حديث جيد». وقال البغوي في شرح السُّنَّة (١٥/ ١٠٣): «حديث حسن».

قال مالك بن دينار رحمه الله: «إن لله عقوبات في القلوب والأبدان، ضنك في المعيشة، ووهن في العبادة، وما ضُرب العبد بعقوبة أعظم من قسوة القلوب»[(١)].

وقال ابن خيرة وهو من أصحاب علي رضي الله عنه: «جزاء المعصية الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والتعسر في اللذة، قيل: وما التعسر في اللذة؟ قال: لا يصادف لذة حلال إلا جاء من يُنغصه إياها»[(٢)].

وفي الإنسان عدة بواعث تحجزه عن المعاصي والذنوب، فأولها: باعث الفطرة: فإن النبي ﷺ لما أُسري به إلى بيت المقدس، فقُدم له قدح من لبن وقدح من خمر، فاختار اللبن، فقال له جبريل: أصبت الفطرة[(٣)].

ثانيها: باعث الغيرة، فإن النبي ﷺ لما صلى الكسوف وعظ الناس بعد الصلاة وقال: «**لا أحد أغير من الله أن يزني عبده، أو تزني أمته**»[(٤)].

قال ابن القيم رحمه الله: «فالغيور قد وافق ربه سبحانه في صفة من صفاته، ومن وافق الله في صفة من صفاته قادته تلك الصفة إليه بزمامها»[(٥)].

---

(١) سير السلف الصالح: ٣/ ٩٨٧.
(٢) تفسير ابن كثير: ٦/ ٥٠٨.
(٣) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب كيف فُرضت الصلاة (ص٦٢ ـ رقم ٣٤٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء (ص٨٢ ـ رقم ٤١١).
(٤) رواه البخاري، كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف (ص١٦٧ ـ رقم ١٠٤٤)، ومسلم، كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف (ص٣٦١ ـ رقم ٢٠٨٩).
(٥) الجواب الكافي ص٩٤.

ثالثها: باعث الحياء والمروءة، فذو المروءة يستحي أن يسيء في حق من أحسن إليه، قال يوسف عليه السلام لامرأة العزيز لما راودته عن نفسه: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَاىَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣]، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أي: إن بعلك ربي أحسن مثواي، أي: منزلي وأحسن إلي، فلا أقابله بالفاحشة في أهله»[١].

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «أي أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح، لأنه مما يسخط الله ويبعد منه، ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي، فلا يليق بي أن أقابله في أهله بأقبح مقابلة، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لا يفلح»[٢].

وفي حديث سيد الاستغفار «أبوء بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[٣].

وقال ابن سمعون البغدادي رحمه الله: «رأيت المعاصي نذالة فتركتها مروءة، فاستحالت ديانة»[٤].

وقال الوزير ابن هبيرة رحمه الله: «زيادة النّعم تستدعي زيادة الطاعة»[٥].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وإن مقابلة العظيم به ـ أي بالذنوب ـ العظيم الذي لا شيء أكبر منه، الجليل الذي لا أجلّ منه ولا أجمل،

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤/٣٧٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٣٧٢.
(٣) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار (ص١٠٩٧ ـ رقم ٦٣٠٦) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.
(٤) فتح الباري لابن رجب: ١/١٠٣.
(٥) الآداب الشرعية: ١/١٢٧.

المنعم بجميع أنواع النعم دقيقها وجليلها يعدّ من أقبح الأمور وأفظعها وأشنعها، فإن مقابلة العظماء والأجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر، وأرذل الناس وأسقطهم مروءة من قابلهم بالرذائل، فكيف بعظيم السموات والأرض؟ وملك السموات والأرض؟ وإله أهل السموات والأرض؟»(١).

رابعها: باعث العقل: فالعاقل يعرف أن الذنوب تقطع عن السفر إلى الدار الآخرة، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال بعض السلف: ما عصى الله أحد حتى يغيب عقله، وهذا ظاهر، فإنه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية، وهو في قبضة الرب تعالى، وتحت قهره، وهو مطلع عليه، وفي داره على بساطه، وملائكته شهود عليه، ناظرون إليه؟ وواعظ القرآن ينهاه، وواعظ الإيمان ينهاه، وواعظ الموت ينهاه، وواعظ النار ينهاه، والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها، فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله والاستخفاف به ذو عقل سليم؟!»(٢).

والصبر عن الشهوات المحرمة هو الطريق للتوبة والخلاص من الذنوب، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ: «يا شبان التوبة، لا ترجعوا إلى ارتفاع ثدي الهوى من بعد الفطام، فالرضاع إنما يصلح للأطفال لا للرجال. ولكن لا بد من الصبر على مرارة الفطام، فإن صبرتم تعوضتم عن لذة الهوى بحلاوة الإيمان في القلوب، من ترك لله شيئاً لم يجد فقده، عوضه الله خيراً منه ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠].

(١) الجواب الكافي ص١١٨.
(٢) الجواب الكافي ص٨٤.

وفي الحديث «النظر سهم مسموم من سهام إبليس، من تركه من خوف الله أعطاه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه»[١].

فالنفس إذا لم تشغلها بطاعة الله شغلتك بمعصيته، وضاعت عليك أيام حياتك، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «وبالجملة إذا أعرض العبد عن الله واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التي يجد غب إضاعتها يوم يقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤] فلا يخلو، إما أن يكون له مع ذلك تطلع إلى مصالحه الدنيوية والأخروية أو لا، فإن لم يكن له تطلع إلى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله، وذهبت حياته باطلاً، وإن كان له تطلع إلى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق، وتعسّرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضدادها، وذلك نقصان حقيقي من عمره.

وسر المسألة: أن عمر الإنسان مدة حياته، ولا حياة له إلّا بإقباله على ربه والتنعم بحبه وذكره، وإيثار مرضاته».

فإذا ألممت بذنب فبادر إلى التوبة، ولو تكرر منك ذلك فتب إرغاماً للشيطان وطاعة للرحمن، والواجب على أهل العلم أن يدلوا الناس إلى أسباب التوبة ومحو السيئات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن الفقيه كُلّ الفقه الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله عز وجل، ولا يجرئهم على معاصي الله تعالى.

---

(١) لطائف المعارف ص٤٢٤ ـ ط ـ بيت الأفكار.
(٢) الجواب الكافي ص٧٩.

وجميع النفوس لا بد أن تذنب، فتعريف النفوس ما يخلصها من الذنوب من التوبة والحسنات الماحيات كالكفارات والعقوبات هو من أعظم فوائد الشريعة»[١].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: «**أن عبداً أذنب ذنباً، فقال: رب أذنبت ذنباً فاغفر لي، قال الله تعالى: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به، غفرتُ لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنباً آخر، فذكر مثل الأوَّل مرتين أخريين**». وفي رواية لمسلم: أنه قال في الثالثة: «**قد غفرت لعبدي، فليعمل ما شاء**».

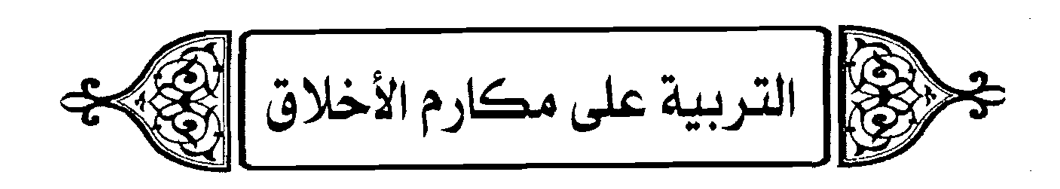
قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «والمعنى: ما دام على هذه الحال كلَّما أذنب استغفر، والظاهر أن مراده الاستغفار المقرون بعدم الإصرار، ولهذا في حديث أبي بكر الصديق ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**ما أصرّ من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة**». خرَّجه أبو داود والترمذي، وأما استغفار اللسان مع إصرار القلب على الذنب، فهو دعاء مجرد إن شاء الله أجابه، وإن شاء ردّه»[٢].



(١) الآداب الشرعية: ١/ ٧٧ ـ ٧٨.
(٢) جامع العلوم والحكم ص٤٦٨ ـ ٤٦٩، ط ـ الرسالة ـ الأولى.



الدرس السابع والعشرون



التربية على مكارم الأخلاق

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله عز وجل: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابَّه أحد أو قاتله فليقل: إني صائم**»(١).

فهذا الحديث فيه تربية على مكارم الأخلاق وتهيئة النفوس لاحتمال الأذى، والشريعة جاءت لتكميل مكارم الأخلاق وتتميم الفضائل كما قال النبي ﷺ: «**بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»(٢).

والشرائع كلها متفقة على تتميم مكارم الأخلاق وتزكية النفوس والتحذير من الأخلاق الردية، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فافعل ما شئت**»(٣).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقول: أنا صائم (ص٣٠٦ ـ رقم ١٩٠٤).
(٢) رواه الحاكم (٢/٦١٣).
(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت (ص١٠٦٧ ـ رقم ٦١٢٠).

والعقلاء كلهم وحتى العرب في جاهليتهم وسائر الأمم متفقون على استحسان مكارم الأخلاق ورعايتها، فهذا أبو سفيان لما سأله هرقل عن صفات نبينا ﷺ صدق في أجوبته مع أنه وقتها كان كافراً عدواً للنبي ﷺ، وقال: «**فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذباً لكذبت عليه**»[١].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله[٢]: «حسن الخلق هذا هو مادة الأخلاق الجميلة كلها، وقد اتفق الشرع والعقل على حسنه، ورفعة قدره، .وعلو مرتبته».

وكان النبي ﷺ يفرح بمن تجمل بالأخلاق الجميلة أو طبعه الله عليها، فقد قال النبي ﷺ لأشج عبد القيس رضي الله عنه: «**فيك خصلتان يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة**»[٣].

وبيّن النبي ﷺ أن حسن الخلق والسمت هي من أجزاء النبوة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن الهدي الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة»[٤].

وحسن الخلق جماع الخير كله، فإنه يحمل الإنسان على أن يلزم حسن الخلق مع الله، ومع الناس، لذلك قال النبي ﷺ: «**البر حسن**

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي (ص٢ ـ رقم ٧).
(٢) فتح الرحيم الملك العلام ص١١٣.
(٣) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان (ص١٢ ـ رقم ٥٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان (ص٣٠ ـ رقم ١١٨).
(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد (٢/ ٤٢٤ ـ رقم ٧٩١)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في الوقار (ص٦٧٧ ـ رقم ٤٧٧٦)، وحسَّنه الألباني رحمه الله.

الخلق»(١)، فكأنه حصر «البر» في حسن الخلق، لأن قوله عليه السلام **«البر حسن الخلق»** جملة اسمية طرفاها معرفتان، تفيد الحصر، مع أن وجوه البر كثيرة جداً، كما قال الله عز وجل: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فأراد النبي ﷺ في الحصر في قوله: **«البر حسن الخلق»** بيان مكانة حسن الخلق في الدين.

وبيّن النبي ﷺ التلازم بين كمال الإيمان وحسن الخلق فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»**(٢). وحسن الخلق من أجلّ الطاعات، وهو من أسباب رفعة الدرجات في الآخرة، قال عليه الصلاة والسلام: **«ما من شيء يُوضع في الميزان أثقل من حسن الخُلق، وإن صاحب حُسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم، والصلاة»**(٣).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **«ألا أخبركم بأحبكم إلى الله سبحانه وتعالى، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة، قالوا: بلى، قال: أحسنكم خلقاً»**(٤).

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تفسير البر والإثم (١١٢٠ ـ رقم ٦٥١٦).
(٢) رواه أحمد (٢/ ٤٧٢)، وأبو داود، كتاب السُّنَّة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (ص٦٦١ ـ رقم ٤٦٨٢) وصحّحه ابن حبان (١/ ٣٥٠ ـ رقم ٤٧٩).
(٣) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق (ص٦٧٩ ـ رقم ٤٧٩٩)، والترمذي، كتاب البر والصلة (ص٤٦٢ ـ رقم ٢٠٠٣).
(٤) رواه أحمد (١١/ ٣٤٧ ـ رقم ٦٧٣٥) وصحّحه ابن حبان (١/ ٣٥٢ ـ رقم ٤٨٥).

فحسن الخلق جمال وزينة، وحلية ما تجمل أحد بمثل ما تجمل بحسن الخلق، قال أبو حاتم ابن حبان رحمه الله[1]: «لا زينة أحسن من زينة الحسب، كما أن من أجمل الجمال استعمال الأدب، ولا حسب لمن لا أدب له[2]، ومن كان من أهل الأدب ممن لا حسب له يبلغ به أدبه مراتب أهل الإحسان، لأن حسن الأدب خَلَف من الحسب».

والنبي ﷺ ذكر أن الإيمان ذو شعب، وذكر أعلاه وأدناه، وذكر من شعب الإيمان الحياء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان بضع وستون شعبة أعلاها: قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[3].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله[4]: «ولعل ذكر الحياء لأنه السبب الأقوى للقيام بجميع شعب الإيمان، فإن من استحيى من الله لتواتر نعمه، وسوابغ كرمه، وتجليه عليه بأسمائه الحسنى، والعبد ـ مع هذا كثير التقصير مع هذا الرب الجليل الكبير يظلم نفسه ويجني عليها ـ أوجب له هذا الحياء التوقي من الجرائم، والقيام بالواجبات والمستحبات».

وقد تكلّم العلماء في عبارات جامعة تجمع معاني حسن الخلق

---

(١) روضة العقلاء ص٢٢٢.

(٢) عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «يا أبا ذر، لا عقل كالتدبير، ولا ورعَ كالكف، ولا حسب كحُسْن الخلق» رواه ابن حبان (١/ ٢٨٩ ـ رقم ٣٦٢).

(٣) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان (ص٥ ـ رقم ٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان (ص٣٨ ـ رقم ١٥٢).

(٤) بهجة قلوب الأبرار ص١٤٥.

ومكارم الأخلاق، فمن أجمع ما قيل في ذلك ما قاله عبد الله ابن المبارك رحمه الله[١]: «بسط الوجه، وبذل المعروف، وكفّ الأذى».

وقال الحسن البصري رحمه الله[٢]: «حسن الخلق: الكرم، والبذلة، والاحتمال».

وأجمع من ذلك ما قاله ابن شيخ الحزاميين رحمه الله[٣]: «تبديل الصفات المذمومة من الجبلة بأضدادها من الصفات المحمودة».

وأما وجوه التحلي بالأخلاق الجميلة، فهي:

١ ـ الالتجاء إلى الله وسؤاله أن يطبعك على أحسن الأخلاق، ويجنبك منكراتها: فالله عز وجل هو الذي يهدي إلى أحسن الأخلاق، ويصرف عن سيئها، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم حَسَّنْتَ خلقي فحسِّن خُلقي**»[٤].

وعن زياد بن علاقة عن عمه قال: كان النبي ﷺ يقول: «**اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأهواء والأسواء والأدواء**»[٥].

قال الشوكاني رحمه الله[٦]: «استعاذ ﷺ من منكرات الأخلاق: لأن الأخلاق المنكرة تكون سبباً لجلب كل شر، ودفع كل خير، واستعاذ ﷺ من منكرات الأعمال: لأنها إذا كانت منكرة فهي ذنوب،

---

(١) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق (ص٤٦٣ ـ رقم ٢٠٠٥).
(٢) شرح منظومة الآداب ص٢٠١.
(٣) مدخل أهل الفقه واللسان إلى ميدان المحبة والعرفان ص٧١ ـ ٧٢.
(٤) رواه ابن حبان (٢/ ١٥٤ ـ رقم٩٥٥).
(٥) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب دعاء أم سلمة رضي الله عنها (ص٨١٨ ـ رقم ٣٥٩١)، وقال: حسن صحيح غريب، وابن حبان (٢/ ١٤٥ ـ رقم ٩٥٦).
(٦) تحفة الذاكرين ص٢٨٣.

واستعاذ ﷺ من الأهواء: لأنها هي التي تُوقع في الشر ويتأثر عنها من معاصي الله سبحانه كما قال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وإذا كان الهوى يصيّر صاحبه باتباعه كالعابد له فكأنه إلهه: فلا شيء في الشر أزيد من ذلك، ولا أكثر منه، واستعاذ من الأدواء: وهي جمع داء، وهو السقم الذي عرّض له الإنسان، وقد يُراد بذلك أدواء الدين والدنيا من جميع ما يضرّ بالبدن والدين».

٢ ـ خلطة أهل الفضل والمروءات والمكارم: فإن الإنسان بطبعه يتأسى بما يشاهده من أخلاق غيره، ويتطبع بطباعهم، قال أبو محمد ابن حزم رحمه الله(١): «ومن طلب الفضائل لم يساير إلا أهلها، ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكرم صديق، أهل المواساة والبرّ، والصدق، وكرم العشيرة، والصبر والوفاء، والأمانة، والحلم، وصفاء الضمائر، وصحة المودة».

ومن هنا صارت قريش خيار العرب بسبب اختيارهم أحسن أخلاق سائر العرب إذا اختلطوا بهم في الحج، قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله(٢): «بلغني عن بعض العلماء أنه سُئل عن قريش: كيف صارت أفضل العرب قاطبة، وإنما هي قبيلة من مضر، فقال: لأن دار قريش لم تزل موسم الناس ومنسك الحاج، وكانت العرب تقصدها في كل عام لحجهم، وتردها لقضاء نُسكهم، فهم لا يزالون يتأملون أحوالهم ويراعونها، فيختارون منها أحسن ما يشاهدونه، ويتكلمون بأفصح ما يسمعون من كلامهم، ويتخلّقون بأحسن ما يرونه من شمائلهم، فصاروا أفضل العرب من قِبَلِ حُسن الاختيار الذي هو ثمرة

---

(١) مداواة النفوس ص١٨.
(٢) العزلة ص١٤٤.

العقل، فلما ابتعث الله تعالى نبيه ﷺ منهم، تمّت لهم الفضيلة وكملت لهم به السيادة».

وقال سهل بن عبد الله التستري رَحِمَهُ اللهُ: «انظر ما استحسنت من غيرك فالزمه، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه»[(١)].

٣ ـ القرآن: فالقرآن الذي أنزله الله فيه كل هداية وخير، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللهُ وهو يتحدث عن أوصاف القرآن[(٢)]: «ووُصف بأنه كله صلاح ويهدي إلى الإصلاح، وإلى أقوم الأمور وأرشدها في كل شيء من دون استثناء، وهذا الوصف المحيط لا يخرج عنه شيء، فهو إصلاح للعقائد والقلوب، وللأخلاق والأعمال، ويهدي إلى كل صلاح ديني ودنيوي بحيث تُقوّم به الأمور، وتعتدل به الأحوال، ويحصل به الكمال المتنوع من كل وجه بالإرشاد إلى كل وسيلة نافعة تؤدي إلى المقاصد والغايات المطلوبة، فلا سبيل إلى الهداية والصلاح والإصلاح لجميع الأمور إلا بسلوك الطرق التي أرشد إليها القرآن، وحثّ العباد عليها».

وهذه عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تصف أخلاق النبي ﷺ وتقول: «كان خلقه القرآن»[(٣)]، قال أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ اللهُ[(٤)]: «أي كان موافقاً لما نزل به القرآن».

---

(١) الفوائد والحكايات ص١٤٤.
(٢) تيسير اللطيف المنان ص٨.
(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل (ص٣٠١ ـ رقم ١٧٣٩).
(٤) تفسير القرآن (٦/١٨).

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللهُ[١]: «أنه تأدب بآدابه، وتخلّق بأخلاقه».

وقال الأوزاعي رَحِمَهُ اللهُ[٢]: «لم يزل الله نصّاحاً من خلقه في أرضه، يعرضون أعمال العباد على القرآن، فبالقرآن يعرفون هدي من اهتدى، وضلالة من ضلّ، أولئك خلفاء الله عز وجل في أرضه».

فالقرآن إذا التزم العبد بما فيه من أوامر واجتنب ما فيه من زواجر فإنه يكون بذلك من خيار عباد الله خلقاً وسمتاً وهدياً وأدباً، فالقرآن يزرع كل خلق فاضل.

قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ[٣]: «يا حملة القرآن، ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع المؤمن، كما أن الغيث ربيع الأرض، وقد ينزل الغيث من السماء فيصيب الحش فيكون فيه الحبة فلا يمنعها نتن موضعها أن تهتز وتخضر وتحسن، فيا حملة القرآن: ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟».

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ[٤]: «فمن أولى بحسن الخلق من قارىء القرآن، ومن أولى بالنصفة من نفسه من قارىء القرآن، ومن أولى ببر الوالدين من قارىء القرآن، ومن أولى بأداء الفرائض كلها من قارىء القرآن؟ لأن الدليل معه، فإن قبل منه لم يخطئه باب الجنة، ويُوشك أن لا يفعل لأن الله عز وجل يقول: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، قال: هذا أريد، أنظر إلى هذا أزدري به،

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٧٠).
(٢) الحجة على تارك المحجة (٢/ ٥١٠).
(٣) سير السلف الصالح (٣/ ٩٣٤).
(٤) الحجة على تارك المحجة (٢/ ٥٠٩).

وأنظر إلى هذا أستعظمه، وأنظر إلى محارم المسلمين فأتلذذ بالنظر، فإذا فعل فقد عصى الدليل».

٤ ـ الجبلة: وهو أن يُطبع العبد بكريم الأخلاق، كما قال النبي ﷺ لأشج عبد القيس رضي الله عنه: **«فيك خصلتان يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة»**[(١)].

وما لم يُطبع عليه العبد من الأخلاق الجميلة فليجتهد في تحصيلها، فإنها بالممارسة مع الاستعانة بالله يتطبع العبد بها، لذلك قال النبي ﷺ: **«من يتصبّر يصبّره الله، ومن يستعف يعفه الله»**[(٢)].

وجاء رجل وسأل النبي ﷺ أن يُوصيه، قال له: **«لا تغضب»**[(٣)]، وهذا يدلّ على أنه في مقدور المكلف اكتساب الأخلاق الحميدة، وإلا كان خطابه بذلك من التكليف بما لا يطاق[(٤)].

قال أبو بكر رحمه الله ابن الدنيا[(٥)]: «وليس ينبغي لذي الفهم إن قُصّر به في هذه الخصال عن جمعها أن يُنافس في بعضها، ويتمسك بصالح ما وُهب له منها، فقد قال النبي ﷺ: إذا أحب الله عبداً منحه منها خُلقاً».

فالشريعة شريعة يسر، وهذا دال على سهولة تحصيل أوامره سواء ما يتعلق بالأخلاق والمعاملات أو العبادات، قال العلامة ابن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان (ص١٢ ـ رقم ٥٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان (ص٣٠ ـ رقم ١١٨).
(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله (ص١١٢٢ ـ رقم ٦٤٧٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب (ص١٠٦٦ ـ رقم ٦١١٦).
(٤) المعين على تفهم الأربعين، لابن الملقن ص١٦٩.
(٥) مكارم الأخلاق، ص٤٣٦.

الوزير رحمه الله[١]: «إن النفوس الخبيثة تستعسر السهل من الخير لنفرتها عنه وعدم رياضتها عليه، لا لصعوبته في نفسه، ولهذا نجد أهل الصلاح يستسهلون كثيراً مما يستعسره غيرهم، فلو كان العسر في نفس الأمر المشروع لكان عسيراً على كل أحد، وفي كل حال، وقد نصّ الله تعالى على هذا المعنى فقال في الصلاة: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، فدلّ على أن العسر والحرج لا يكون في أفعال الخير، وإنما يكون في النفوس السوء، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فمدار المشقة التي في الطاعات على الدواعي والصوارف، ولهذا تجد قاطع الصلاة يقوم نشطاً إلى أعمال كثيرة أشقّ من الصلاة، وقد يكون العسر الموهوم في أعمال الخير من قساوة القلب، وكثرة الذنوب، وعدم الرياضة، وملازمة البطالة، ألا ترى ما في قيام الليل وإحيائه بالعبادة من المشقة على النفوس، وهو يسهل عليها سهره في كثير من الأحوال في العرسات، والأسمار، والسروات في الأسفار، فإذا عرفت هذا فاعلم أن من الناس من يحصل له من شدة الرغبة في العلم وسائر الفضائل ما يسهل عليه عسيرها، ويُقرب إليه بعيدها، فلا يتعنى لتعسير الأمر الشرعي في نفسه، لأن ذلك يخالف كلام الله وكلام رسوله ﷺ».

ثم قال[٢]: «أما علمت أن حب المعالي يرخّص الغوالي، ويقوي ضعف الصدور على الصبر للعوالي»، وقال: «فإياك والاستبعاد لكل ما عزّ عليك، والاستنكار لوجود ما خرج من يديك»[٣].

---

(١) الروض الباسم ص١٣ ـ ١٤.
(٢) الروض الباسم ص١٤.
(٣) الروض الباسم ص١٥.

نعم إنما يستبعد التخلق بالفضائل من حُرمها، قال العلامة الشوكاني رحمه الله: «وأما مجرد استبعاد أن يهب الله سبحانه لبعض عباده أمراً عظيماً، ويعطيه ما تتقاصر عنه قوى غيره من المنح الجليلة، والتفضلات الجزيلة فليس مرادات المتصفين بالإنصاف، وكثيراً ما ترى الجبان إذا حُكيت له أفعال الأفراد من أهل الشجاعة من مقارعة الأبطال، وملابسة الأهوال، ومنازلة العدد الكثير من الرجال يستبعد عقله ذلك، ويضيق ذهنه عن تصوره، ويظنه باطلاً، ولا سبب لذلك إلا أن غريزته المجبولة على الجبن الخالع تقصر عن أقل قليل من ذلك، وتعجز عن الملابسة لأحقر منه.

وهكذا البخيل إذا سمع ما يُحكى عن الأجواد من الجود بالموجود، والسماحة بالكثير الذي تشحّ منه نفوس من لم يهب الله له غريزة الكرم المحمودة بعشر معشاره ظن أن تلك الحكايات من كذب الوراقين، ومن مخرقة الممخرقين استبعد عقله، ونبا فهمه عن قبول ما منح الله به أكابر علماء هذه الأمة من التوسع في المعارف والاستكثار من العلوم المختلفة، وفهمها كما ينبغي، وحفظها حق الحفظ، والتصرف الكامل في كل ما يرد عليه منها، فيورده موارده، ويصدره مصادره».

ولا شك أن استبعاد وجود الفضائل لمن فاته الاتصاف بها قبيح، وأقبح منه من نزّل الفضائل والرذائل منزلة سواء، قال أبو الحسن الماوردي رحمه الله (ت: ٤٥٠هـ)[1]: «وقد قال بعض البلغاء: أخبث الناس المُسَاوي بين المحاسن والمساوئ، وعلة هذا: أنهم ربما رأوا عاقلاً غير محظوظ، وعالماً غير مرزوق، فظنوا أن العلم والعقل هما

(١) أدب الدنيا والدين ص٣٠.

السبب في قلة حظه ورزقه، وقد انصرفت عيونهم عن حرمان أكثر النوكى، وإدبار أكثر الجُهَّال، لأن في العقلاء والعلماء قلة، وعليهم من فضلهم سمة، ولذلك قيل: العلماء غرباء، لكثرة الجهال، فإذا ظهرت سمة فضلهم، وصادف ذلك قلة حظ بعضهم، تنوَّهوا بالتمييز، واشتهروا بالتعيين، فصاروا مقصودين بإشارة المتعنِّتين، ملحوظين بإيماء الشامتين. والجهال والحمقى لما كثروا ولم يتخصصوا، انصرفت عنهم النفوس: فلم يُلحظ المحروم منهم بطَرْفِ شامت، ولا قُصد المحدود منهم بإشارة عائب، فلذلك ظن الجاهل المرزوق: أن الفقر والضيق مختصان بالعلم والعقل، دون الجهل والحمق، ولو فتشت أحوال العلماء والعقلاء مع قلتهم، لوجدت الإقبال في أكثرهم، ولو اختبرت أمور الجهال والحمقى مع كثرتهم، لوجدت الحرمان في أكثرهم، وإنما يصير ذو الحال الواسعة منهم ملحوظاً مشتهراً، لأن حظّه عجب، وإقباله مستغرب، كما أن حرمان العاقل العالم غريب، وإقلاله عجيب».

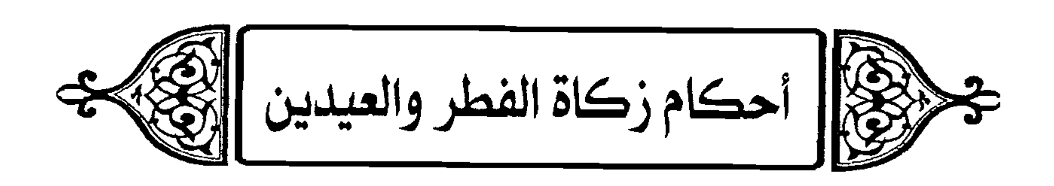
ثم قال[1]: «على أن العلم والعقل سعادة وإقبال، وإن قلّ معهما المال، وضاقت معهما الحال، والجهل والحمق حرمان وإدبار، وإن كثر معهما المال، واتسعت معهما الحال، لأن السعادة ليست بكثرة المال، فكم من مكثر شقي، ومقل سعيد، وكيف يكون الجاهل الغني سعيداً والجهل يضعه؟! أم كيف يكون العالم الفقير شقياً والعلم يرفعه؟!».

❋ ❋ ❋

(١) أدب الدنيا والدين ص٣١.



الدرس الثامن والعشرون



أحكام زكاة الفطر والعيدين

زكاة الفطر أضيفت إلى الفطر لأنها تجب بالفطر، وزكاة الفطر يُراد بها الصدقة عن البدن والنفس، ويُراد بها جبر الخلل في صيام العبد، وإغناء فقراء المسلمين عن الحاجة للطعام في يوم عيد المسلمين ليشاركوا المسلمين أفراحهم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طُهرةً للصائم من اللغو، والرفث، وطعمة للمساكين(١).

وحكى إسحاق وابن المنذر وابن قدامة الإجماع على فرضيتها ووجوبها، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان على الناس صاعاً من تمر، أو صاعاً من شعير، على كل حر وعبد ذكر وأنثى من المسلمين. متفق عليه.

وأما من تجب عليه صدقة الفطر فهو الواجد لها الذي له قوت

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الزكاة، باب زكاة الفكرة (ص٢٣٨ ـ رقم ١٦٠٩)، ورواه ابن ماجة، كتاب الزكاة، باب صدقة الفطر (ص٢٦١ ـ رقم ١٨٢٧)، ورواه الحاكم (١/ ٤٠٩)، ورواه الدارقطني وقال: ليس في رواته مجروح، وصحّحه ابن الملقن في البدر المنير (٥/ ٦١٨)، وحسّن إسناده المنذري كذلك، وابن قدامة في المغني (٤/ ٢٨٤)، والنووي في شرح المهذب (٦/ ١٢٦).

يوم العيد، وهذا واضح من قوله ﷺ: «**أغنوهم عن السؤال في هذا اليوم**»، فمن ليس له غناء ليلة العيد ويومه فهو محتاج أن تُبذل له زكاة الفطر لا أن يتكلف مفقوداً ليعطيه غيره، قال الإمام مالك رحمه الله: «من جاز له أخذ صدقة الفطر لم تلزمه»(١).

وقال ابن الحافظ العراقي رحمه الله: «لم يُقيد في الحديث افتراض زكاة الفطر باليسار، لكن لا بد من القدرة على ذلك لما عُلم من القواعد العامة، وقد قال ابن المنذر: أجمعوا على أن لا شيء على من لا شيء له»(٢).

وأما اليتيم فعامة أهل العلم يُوجبون زكاة الفطر عليه، ويخرجها عنه وليه من ماله، لم يخالف في ذلك إلا محمد بن الحسن حيث قال: «ليس في مال الصغير من المسلمين صدقة»، وقد ردّ عليه العلماء قوله، قال ابن قدامة رحمه الله: «وعموم قوله فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر على كل حر وعبد، والذكر والأنثى، والصغير والكبير من المسلمين يقتضي وجوبها على اليتيم، ولأنه مسلم فوجبت فطرته كما لو كان له أب»(٣).

وزكاة الفطر يُستحب إخراجها يوم الفطر قبل صلاة العيد لأن النبي ﷺ أمر بها أن تُؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة. متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

والصحابة كانوا يعجلون إخراج الزكاة قبل العيد بيوم أو يومين، ففي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كانوا يُعطون قبل الفطر بيوم أو يومين»، وتوسع بعض الفقهاء وجوّز تعجيل زكاة الفطر بعد دخول شهر رمضان، وهذا قول خلف بن أيوب من أصحاب

---

(١) الاستذكار: ٣/ ٥٨٨.
(٢) طرح التثريب: ٤/ ٦٥.
(٣) المغني: ٤/ ٢٨٣.

محمد بن الحسن وهو قول الشافعي، وقال نوح بن أبي مريم يجوز تعجيلها في النصف الأخير من رمضان، وقال بعضهم في العشر الأخير، وهذا توسع غير محمود، والصواب أن الرخصة إنما تكون قبل الفطر بيوم أو يومين، وهو قول أحمد ومالك، وذلك لعدة أدلة:

١ ـ قول النبي ﷺ: «**من أدّاها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات**»(١).

٢ ـ إجماع الصحابة، فقد حكى ابن عمر رضي الله عنهما فعل الصحابة رضي الله عنهم فقال: «وكانوا يعطون قبل الفطر بيوم أو يومين»(٢).

قال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: «وهذا إشارة إلى جميعهم فيشبه الإجماع»(٣).

٣ ـ مقتضى التعليل والقياس، لأن النبي ﷺ قال: «**أغنوهم عن السؤال في هذا اليوم**»، قال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: «يعني السؤال يوم الفطر، والفطر وإن كان شرطاً لكنه في قوة السبب، لأنها تضاف إليه، يقال: صدقة الفطر ويتكرر بتكرره وذلك أمارة السببية.

والمعنى المقصود منها إغناء الفقير عن السؤال يوم العيد، وهذا لا يحصل بالصدقة قبله بزمان طويل، ولا بالصدقة بعده، وإن كانت القربة فيها معقولة المعنى، وهي سدّ خلة المحتاج فالمراد إغناؤه عن السؤال يوم العيد»(٤).

وزكاة الفطر واجبة على الإنسان بنفسه، ولو أخرجها الإنسان عمن يمونهم وبرضاهم وأعلمهم بذلك فلا بأس.

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر (ص٢٣٨ ـ رقم ١٦٠٩).
(٢) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب صدقة الفطر على الحر والمملوك (ص٢٤٥ ـ رقم ١٥١١).
(٣) التنبيه على مشكلات الهداية: ٢/ ٨٨٨.
(٤) التنبيه على مشكلات الهداية: ٢/ ٨٨٩.

ويستحب إخراج زكاة الفطر عن الجنين بعد الشهر الرابع لأنه نُفخت فيه الروح، وهو فعل الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ حيث كان يُعطي صدقة الفطر عن الصغير والكبير والحمل[(١)].

وعلى هذا مضى الصحابة كما حكاه عنهم التابعون، قال أبو قلابة رحمه الله: «كان يعجبهم أن يعطوا زكاة الفطر عن الصغير والكبير حتى يعطوا عن الحبل في بطن أمه»[(٢)].

وابن حزم رحمه الله يرى أن الجنين يقع عليه اسم الصغير في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ فرض زكاة الفطر صاعاً من طعام على كل حرّ وعبد وذكر وأنثى وصغير وكبير من المسلمين»[(٣)].

والواجب في زكاة الفطر صاع نبوي من غالب قوت أهل البلد، وهذا واضح من قول أبي سعيد الخدري رضي الله عنه «وكان طعامنا يومئذ التمر والزبيب والشعير والأقط»[(٤)].

وزكاة الفطر مصرفها للفقراء فقط لأنها زكاة عن البدن وليست زكاة مال ينمو، قال عليه السلام في زكاة الفطر: «طُعمة للمساكين»، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في فوائده: «نصّ في أن ذلك حق للمساكين»، وقال: «صدقة الفطر وجبت طعاماً للأكل لا للاستنماء»[(٥)].

ولا يحسن إخراج زكاة الفطر نقداً، لعدة أمور:

١ ـ إن العبادات توقيفية.

٢ ـ إنه عمل ليس عليه أمر الله ورسوله، وفي صحيح مسلم من

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (٣/ ٢١٩)، وابن حزم في المحلى (٦/ ١٣٢).
(٢) رواه عبد الرزاق (٣/ ٣١٩ ـ رقم ٥٧٨٨)، وابن حزم في المحلى (٦/ ١٣٢).
(٣) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب فرض صدقة الفطر (ص٢٤٤ ـ رقم ١٥٠٣)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين (ص٣٩٥ ـ رقم ٢٢٧٨).
(٤) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة قبل العيد (ص٢٤٥ ـ رقم ١٥١٠).
(٥) مجموع الفتاوى: ٢٥/ ٧٥.

حديث عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

٣ ـ إن زكاة الفطر شعيرة ظاهرة، وإخراجها نقداً يفضي إلى تضييع هذه الشعيرة الظاهرة التي فرضها الشارع لحكمة.

٤ ـ إن النبي ﷺ قال في زكاة الفطر: «**طُعمة للمساكين**»، وإذا أُخرجت نقداً فقد يتمولها الفقير في غير الطعام فيضيع المعنى الذي من أجله فرض الشارع هذه الشعيرة.

٥ ـ إن زكاة الفطر تختلف عن زكاة المال، فزكاة الفطر طُهرة للبدن، وزكاة المال تجب عن القيمة ونصابها خمس وثمانون غراماً من الذهب، فلا يمكن إلغاء الفارق بين زكاة البدن وزكاة القيمة بإخراج زكاة الفطر نقداً، قال ابن قدامة ﵀: «وزكاة التجارة تجب عن القيمة، ولذلك تجب في سائر الحيوانات وسائر الأموال، وهذه طُهرة للبدن، ولهذا اختص بها الآدميون، بخلاف زكاة التجارة»[١].

٦ ـ إن الصحابة أهل تيسير وتوسعة في الأحكام ومراعاة الأحظ للفقراء، قال أبو سعيد الخدري ﵁: «كنا نُطعم الصدقة صاعاً من طعام»[٢].

فإذا كان الصحابة لا يخرجون زكاة الفطر إلا طعاماً، فليسعنا ما وسعهم.

٧ ـ الشارع نصّ على الطعام وإخراج القيمة عدول عن المنصوص عليه، قال ابن قدامة ﵀: «إن النبي ﷺ فرض صدقة الفطر أجناساً معدودة، فلم يجز العدول عنها، كما لو أخرج القيمة، وذلك لأن ذكر

---

(١) المغني: ٤/ ٢٨٤.

(٢) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب صدقة الفطر صاعٌ من شعير (ص٢٤٥ ـ رقم ١٥٠٥).

الأجناس بعد ذكر الفرض تفسير للمفروض، فما أُضيف إلى المُفَسَّر يتعلق بالتفسير، فتكون هذه الأجناس مفروضة، فيتعين الإخراج منها، ولأنه إذا أخرج غيرها عدل عن المنصوص عليه، فلم يجز، كإخراج القيمة، وكما لو أخرج عن زكاة المال من غير جنسه»(١).

٨ ـ إن إخراجها طعاماً هو مقتضى القياس، فإن أبا سعيد الخدري ﷺ قال: «كنا نُخرج في عهد رسول الله ﷺ يوم الفطر صاعاً من طعام، وكان طعامنا الشعير والزبيب والأقط والتمر»(٢).

فقول أبي سعيد ﷺ «وكان طعامنا. . .» له دلالة واضحة في حصر زكاة الفطر في قوت البلد، فمقتضى القياس أن يُلحق بالشعير والزبيب والأقط والتمر ما كان قوتاً كالقمح والأرز لا النقد، قال ابن قدامة رحمه الله: «وأقيسهما أنه لا يجوز غير الخمسة، إلا أن يُعدمها، فيُعطي ما قام مقامها. وقال مالك رحمه الله: يُخرج من غالب قوت البلد، وقال الشافعي رحمه الله: أيُّ قوتٍ كان الأغلب على الرجل، أدَّى الرجل زكاة الفطر منه»(٣).

٩ ـ إن إخراج زكاة الفطر صاعاً من طعام من غالب قوت أهل البلد مجزىء في قول جميع العلماء، وإن إخراجها نقداً مجزىء في قول نفر يسير من الفقهاء كالحسن، وعمر بن عبد العزيز، وأبي حنيفة رحمهم الله، والمسلم يستبرأ لدينه.

قال أبو داود: قيل لأحمد وأنا أسمع: أُعطي دراهم ـ يعني في صدقة الفطر ـ قال: أخاف أن لا يُجزئه خلاف سُنَّة رسول الله ﷺ. وقال أبو طالب: قال لي أحمد بن حنبل: لا يُعطي قيمته، قيل له: قوم يقولون: عمر بن عبد العزيز كان يأخذ بالقيمة، قال: يَدَعون

(١) المغني: ٤/٢٩٣.
(٢) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب صدقة الفطر صاع من طعام (ص٢٤٥ ـ رقم ١٥٠٦).
(٣) المغني: ٤/٢٩٢.

قول رسول الله ﷺ، ويقولون: قال فلان[١]!

على أنه ينبغي تحرير مذهب عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فإنه كان يرى أن زكاة الفطر سُنَّة نُسخت بالزكاة المفروضة، كما حكاه عنه ابن الفرس الأندلسي رحمه الله»[٢].

١٠ ـ تحديد قيمة موحّدة في زكاة الفكر مع اختلاف أثمان كل صاع من أنواعه من بر، وزبيب، وتمر أو شعير تحكّم بدون مستند شرعي، قال ابن الفرس الأندلسي رحمه الله: «إيجاب الصاع في زكاة الفطر من التمر والزبيب والبرّ والشعير مع تفاوت قيمتها غالباً، فهذا من أقوى الحجج على إبطال القيمة»[٣].

صلاة العيد

يُسنّ أن يتجمل للعيد وأن يلبس أحسن الثياب لأن عمر رضي الله عنه أخذ جُبة من استبرق وقال للنبي ﷺ ابتَعْ هذه تجمَّل بها للعيد والوفود، وأقرّه النبي ﷺ في التجمل للعيد بأحسن الثياب، وإنما أنكر نوع الثوب وهو كونه حريراً[٤].

وهذا يوم يُشرع فيه التوسعة على العيال وإظهار الفرح والسرور خصوصاً للنساء والصبيان، لأن النبي ﷺ أقام عائشة وراءه وجعل خدها على خده وجعلها تنظر لأهل الحبشة وهم يلعبون[٥].

---

(١) المغني (٤/ ٢٩٥).
(٢) أحكام القرآن (٣/ ٦١٦).
(٣) أحكام القرآن (٢/ ٤٦٦).
(٤) رواه البخاري، كتاب العيدين، باب في العيدين والتجمّل فيه (ص١٥٣ ـ رقم ٩٤٨).
(٥) رواه البخاري، كتاب العيدين، باب الحراب والدَّرَق يوم العيد (ص١٥٣ ـ رقم ٩٤٩، ٩٥٠)، ومسلم، كتاب العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه (ص٣٥٦ ـ رقم ٢٠٦١).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «إظهار السرور في الأعياد من شعار الدين»[(١)].

والسُّنة أن يفطر يوم عيد الفطر قبل أن يذهب للمُصلى فعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل تمرات ويأكلهن وتراً[(٢)].

وكل هذا من المبادرة إلى الفطر استجابة لأمر الله حيث حرّم صوم يوم العيد إجماعاً.

وتستحب التهنئة بالعيد بين المسلمين، ففي المحامليات عن جبير بن نفير رضي الله عنه قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقوا يوم العيد يقول بعضهم لبعض: تقبّل الله منا ومنك. قال ابن حجر«إسناد حسن»[(٣)].

ولا ينبغي للمسلم أن يشتغل يوم العيد بشيء غير التأهب للصلاة والخروج إليها لأن النبي ﷺ قال: «**إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا - يوم عيد - أن نُصلي**»[(٤)].

ويُسنّ التكبير من غروب الشمس ليلة العيد إلى خروج الإمام لخطبة العيد لقوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقالت أم عطية رضي الله عنها: «كنا نُؤمر أن نَخرُج يوم العيد، حتى نُخرِج البِكرَ من خدرها، حتى نُخرج الحُيَّض فيكنَّ خلف الناس

---

(١) فتح الباري: ٢/ ٥٧١.
(٢) رواه البخاري، كتاب العيدين، باب الأكل يوم الفطر قبل الخروج (ص١٥٣ ـ رقم ٩٥٣).
(٣) الفتح: ٢/ ٥٧٥.
(٤) رواه البخاري، كتاب العيدين، باب سُنَّة العيدين لأهل الإسلام (ص١٥٣ ـ رقم ٩٥١) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

فيُكبِّرن بتكبيرهم ويَدْعون بدُعائهم، يرجون بركة ذلك اليوم وطُهرته»[١].

ووقت صلاة العيد بعد طلوع الشمس وارتفاعها قيد رمح وذهاب وقت الكراهية، وصلاة العيد ليس لها سُنّة قبلها ولا بعدها فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ خرج يوم الفطر فصلَّى ركعتين لم يُصلِّ قبلها ولا بعدها[٢].

وصلاة العيد تُصلى جماعة بلا أذان ولا إقامة ولا قول «الصلاة جامعة»، تُصلى الصلاة ركعتين ثم يخطب الإمام خطبتي العيد، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «خرجت مع النبي ﷺ يوم فطر، فصلى ثم خطب ثم أتى النساء فوعظهنَّ وذكَّرهن، وأمرهنَّ بالصدقة»[٣].

وهناك تكبيرات زوائد في ركعتي صلاة العيد سوى تكبيرة الإحرام وتكبيرات الانتقال، فيكبر سبعاً في الأولى سوى تكبيرة الافتتاح والركوع، وخمساً في الثانية سوى تكبيرة النهوض وتكبيرة الركوع، قال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: «وهذا هو مذهب فقهاء المدينة السبعة، وعمر بن عبد العزيز، ومالك، وأحمد، ويحيى الأنصاري، والزهري، وإسحاق، والأوزاعي، والليث، وهو مروي عن أبي هريرة وابن عباس، وأبي سعيد الخدري، وابن عمر رضي الله عنهم، حكاه عنهم ابن المنذر في الإشراف، وابن قدامة في المغني، يزيد أحدهما على الآخر، إلا أن مالكاً وأحمد قالا: سبعاً في الأولى بتكبيرة الإحرام»[٤].

---

(١) رواه البخاري، كتاب العيدين، باب إذا لم يكن لها جلباب في العيد (ص١٥٧ ـ رقم ٩٨٠)
(٢) رواه البخاري، كتاب العيدين، باب الصلاة قبل العيد وبعدها (ص١٥٩ ـ رقم ٩٨٦)، ومسلم، كتاب العيدين (ص٣٥٦ ـ رقم ٢٠٥٧).
(٣) رواه البخاري، كتاب العيدين، باب موعظة الإمام النساء يوم العيد (ص١٥٧ ـ رقم ٩٧٩)، ومسلم، كتاب صلاة العيدين، باب كتاب صلاة العيدين (ص٣٥٤ ـ رقم ٢٠٤٥).
(٤) التنبيه على مشكلات الهداية: ٢/ ٧٦٠.

والعمدة في ذلك حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كبّر في العيدين في الأولى سبعاً قبل القراءة، وفي الآخرة خمساً قبل القراءة. رواه الترمذي، وقال البخاري «ليس في هذا الباب شيء أصحّ من هذا، وبه أقول».

ويُسن أن يذهب لصلاة العيد من طريق ويرجع من طريق آخر، وذلك لإظهار شعائر الإسلام، وليشهد له الطريقان، وليتصدق على من فيهما، ولغيره من المعاني، فعن جابر رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا كان يومُ عيد خالف الطريق»[(١)].

ويُسنّ الاغتسال لصلاة العيد، قال ابن القيم رحمه الله «صحّ الحديث فيه»[(٢)].

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يغتسل لصلاة العيد. وكان النبي ﷺ يخطب في صلاة العيد قائماً على الأرض، ولم يكن هنالك منبر يرقى عليه[(٣)].

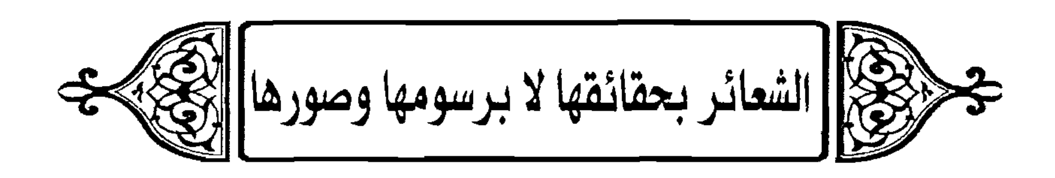
---

(١) رواه البخاري، كتاب العيدين، باب مَن خالف الطريق إذا رجع يوم العيد (ص١٥٨ ـ رقم ٩٨٦).

(٢) زاد المعاد: ١/ ٤٤١.

(٣) زاد المعاد: ١/ ٤٤٥.

الدرس التاسع والعشرون



الشعائر بحقائقها لا برسومها وصورها

نحن على وشك أن نودع هذه العبادة العظيمة التي هي أحد أركان الإسلام الخمسة، هذه العبادة التي لا تعود إلا مرةً واحدة كل عام.

نودع هذه العبادة ونرى حقاً علينا أن نتأمل في معانيها وأسرارها العظيمة، ومقاصدها الكبيرة، وحقائقها التي يستشعرها من يعرف أن أحكام الله وعباداته إنما فرضها الله لحكمة.

فمن أعظم حكم هذه العبادة امتحان المكلف في فعلها ولزومها، لذلك نجد أن الصوم من فروض الأعيان، فالمقصود فيها فعل العبد.

ومن أعظم مقاصد الصوم تحقيق التقوى، هذا الوصف الذي متى ما قام بالعبد فقد أخذ الله بناصيته لكل خير، ذلك أن التقوى تحمل على امتثال المأمور واجتناب المحظور، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٢]، فمن أدى هذه العبادة على أساس إبراء الذمة فقط دون تلمح معانيها وأسرارها وحكمها فهذا مغبون، والسعيد من

وقف على مقاصد الشريعة وأسرارها، ونظر هل قام بالعبادات على الوجه الذي تتحقق معه مقاصد الشريعة في هذه العبادات.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لما كان المقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات، وفطامها عن المألوفات، وتعديل قوتها الشهوانية، لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها، وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية، ويكسر الجوع والظمأ من حدَّتها وسَوْرتها، ويذكِّرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين، وتضيق مجاري الشيطان من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب، وتحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرُّها في معاشها ومعادها، ويُسكّنُ كُلَّ عضو منها وكُلَّ قوةٍ عن جماحه، وتُلجم بلجامه، فهو لجام المتقين، وجُنَّة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقرَّبين، وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال، فإن الصائم لا يفعلُ شيئاً، وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها إيثاراً لمحبة الله ومرضاته، وهو سِرٌّ بين العبد وربه لا يطَّلعُ عليه سواه، والعباد قد يطَّلعُون منه على ترك المفطرات الظاهرة، وأما كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده، فهو أمرٌ لا يطَّلعُ عليه بشر، وذلك حقيقة الصوم.

وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة، والقوى الباطنة، وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولت عليها أفسدتها، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحتها، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويعيدُ إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات، فهو من أكبر العون على التقوى كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ

مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقال النبي ﷺ: «**الصوم جنة**»، وأمر من اشتدت عليه شهوة النكاح ولا قُدرة له عليه بالصيام، وجعله وجاء هذه الشهوة.

والمقصود أن مصالح الصوم لمَّا كانت مشهودةً بالعقول السليمة، والفطر المستقيمة، شرعه الله لعباده رحمةً بهم، وإحساناً إليهم، وحميةً لهم وجُنَّة.

وكان هدي رسول الله ﷺ فيه أكمل الهدي، وأعظم تحصيل للمقصود، وأسهله على النفوس.

ولما كان فطمُ النفوس عن مألوفاتها وشهواتها من أشقّ الأمور وأصعبها، تأخر فرضه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة، لما توطَّنت النفوس على التوحيد والصلاة، وألفت أوامر القرآن، فنُقلت إليه بالتدريج»[1].

فالمقصود هنا أن ننظر في أحوالنا ونحن نودع شهر الصوم، هل زاد إيماننا؟!

هل زادت طاعاتنا، وعباداتنا؟!

هل انفطمنا عن الشهوات المحرمة؟!

هل سلم المسلمون من شرورنا؟!

هل انفطمنا عن فضول الطعام والنظر والكلام والنوم؟!

فهذه وغيرها مما هو من آثار الإيمان والصلاح والبر والتقوى.
فلكل شيء حقيقة، والدعاوى لا بد لها من بينات ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

---

(١) زاد المعاد: ٢/ ٢٨ ـ ٣٠.

وقد قال النبي ﷺ لحارثة: «**كيف أصبحت يا حارث؟** قال: أصبحت مؤمناً بالله عز وجل، قال: **انظر ما تقول! فإن لكل قول حقيقة**، قال: يا رسول الله! عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني بعرش ربي عز وجل بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون، وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها، قال: **أبصرت فالزم، عبدٌ نوّر الله الإيمان في قلبه**»(١).

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «اعلم أنه لا يتمّ التقرب إلى الله تعالى بترك هذه الشهوات إلا بعد التقرب إليه بترك ما حرم الله في كل حال من الكذب والظلم والعدوان على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ولهذا قال النبي ﷺ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**»(٢).

وفي حديث آخر: «**ليس الصيام من الطعام والشراب، إنما الصيام من اللغو والرفث**»، وقال الحافظ أبو موسى المديني: على شرط مسلم.

قال بعض السلف: أهون الصيام ترك الشراب والطعام.

وقال جابر: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم، ودع أذى الجار، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صومك، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء»(٣).

إذاً حقيقة الصيام هو تحقيق التقوى، فتصوم الجوارح وتنكفّ عن

(١) رواه البزار (١/ ٢٦ ـ رقم ٣٢ ـ كشف الأستار)، والطبراني في الكبير (٣/ ٣٠٢)، وقد أفاض الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في ذكر طرقه في معرفة الصحابة (٢/ ٧٧٧ ـ ٧٧٨).
(٢) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب مَن لم يدع قول الزور (ص٣٠٦ ـ رقم ١٩٠٣).
(٣) لطائف المعارف ص١٦٣ ـ ١٦٤.

المعاصي وتنبعث الجوارح لطاعة الله، قال الخليفة الراشد عمر ابن عبد العزيز رحمه الله: «ليس تقوى الله بصيام النهار، ولا بقيام الليل، والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله ترك ما حرَّم الله، وأداء ما افترض الله، فمن رُزق بعد ذلك خيراً، فهو خير إلى خير»(١).

نعم حقيقة التقوى هو حفظ الجوارح عما حرم الله ولزومها طاعته، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه المرفوع: «**الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، وتحفظ البطن وما حوى**»(٢).

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله(٣): «وحفظ الرأس وما وعى يدخل فيه حفظ السمع والبصر واللسان من المحرمات، وحفظ البطن وما حوى يتضمن حفظ القلب عن الإصرار على محرم، قال الله عز وجل: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقد جمع الله ذلك كله في قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

ويتضمن أيضاً حفظ البطن من إدخال الحرام إليه من المآكل والمشارب. ومن أعظم ما يجب حفظه من نواهي الله عز وجل: اللسانُ والفرج، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**من حفظ ما بين لحييه وما بين رجليه دخل الجنة**»(٤).

(١) جامع العلوم والحكم: ١/ ٤٠٠.

(٢) رواه أحمد (١/ ٣٨٧)، والترمذي، كتاب صفة القيامة، باب في بيان ما يقتضيه الاستحياء من الله حتى الحياء (ص٥٦٠ ـ رقم ٢٤٥٨)، وقال: غريب.

(٣) جامع العلوم والحكم: ١/ ٤٦٣ ـ ٤٦٤.

(٤) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان (ص٥٤٨ ـ رقم ٢٤٠٩)، ورواه البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان (ص١١٢٣ ـ رقم ٦٤٧٤) من حديث سهل بن سعد عن رسول الله قال: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة.

فالمقصود من العبادات والطاعات حقائقها وروحها وليس صورها، قال الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «وهكذا سائر العبادات إن لم يقترن بها الإخلاص وتقوى الله كانت كالقشور الذي لا لبَّ فيه، والجسد الذي لا روح فيه»(١).

وقال ابن القيم رحمه الله مبيّناً ما في وعظ النبي ﷺ من الحقائق وما في خطب غيره من الرسوم دون الحقائق: «ومن تأمل خطب النبي ﷺ وخطب أصحابه وجدها كفيلة ببيان الهدى والتوحيد، وذكر صفات الرب جل جلاله، وأصول الإيمان الكلية، والدعوة إلى الله، وذكر آلائه تعالى التي تُحبِّبه إلى خلقه وأيامه التي تُخوِّفهم من بأسه، والأمر بذكره وشكره الذي يُحبِّبهم إليه، فيذكرون من عظمة الله وصفاته وأسمائه، ما يُحبِّبه إلى خلقه، ويأمرون من طاعته وشكره، وذكره ما يُحبِّبهم إليه، فينصرف السامعون وقد أحبُّوه وأحبهم، ثم طال العهد، وخفي نور النبوة، وصارت الشرائع والأوامر رسوماً تُقام من غير مراعاة حقائقها ومقاصدها، فأعطوها صورها، وزيّنوها بما زينوها به فجعلوا الرسوم والأوضاع سنناً لا ينبغي الإخلال بها، وأخلُّوا بالمقاصد التي لا ينبغي الإخلال بها، فرصَّعوا الخطب بالتسجيع والفِقر، وعلم البديع، فنقص بل عَدِمَ حظُّ القلوب منها، وفات المقصود بها»(٢).

والآن أنت يا عبد الله ارتاضت نفسك على طاعة الله وعبادته من صيام وقيام وتلاوة قرآن واعتكاف وعمرة وصدقة وزكاة، فاستصحب

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٦٢٦.
(٢) زاد المعاد: (١/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤).

هذه الطاعات بعد رمضان، فإن مقصود الصيام أن تلين وتخبت لله عز وجل وأن تترك فضول الكلام والطعام والنظر والنوم الذي يثقل البدن ويصيبه بالخمول والكسل ويصرفه عن استباق الخيرات وفعل الطاعات. فلا تكن من أهل التعبد المقيد، الذي يكون عبداً شكوراً في رمضان، فإذا انقضى رمضان أسرف وضيّع وودع بعض أو كل الطاعات، بل كن ربانياً تلتزم طاعة الله على الدوام.

قال ابن القيم رحمه الله: «وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد، فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلّق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته، فهو يعبد الله على وجه واحد. وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت، فمدار تعبده عليها، فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى.

فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره، فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العُبّاد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم. فهذا هو العبد المطلق، الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيّده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات، بل هو على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه.

فهذا هو المتحقق بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حقاً، القائم بهما صدقاً، ملبسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خالياً، لا

تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولي عليه رسم، حرّ مجرد، دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أنى توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه، يأنس به كل محق، ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلها منفعة حتى شوكها.

وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله، فهو لله وبالله ومع الله، قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناس بلا نفس، بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين، وتخلى عنهم. وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها. فواهاً له! ما أغربه بين الناس! وما أشد وحشته منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه!! والله المستعان، وعليه التكلان»[1].

الحقيقة الكبرى التي لا تغيب عن العارفين بالله هو سرعة زوال الدنيا ومفارقة أهلها لها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ * أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ [البقرة: ١٨٣ ـ ١٨٤]، فالعارف بالله هو الذي عمّر وقته بطاعة الله وفي الأيام المعدودات، ولم يُقدم عليها لذات المعاصي والمحرمات، فهذه اللذات أشبه ما تكون بالطعام المسموم التي تُهلك من تعاطاها.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن لذات الذنوب لا نسبة لها إلى ما فيها من الآلام والمفاسد البتة، فإن لذاتها سريعة الانقضاء، وعقوباتها وآلامها أضعاف ذلك، ولهذا قيل: «إن الصبر عن المعاصي أهون من الصبر على عذاب الله».

---

(١) مدارج السالكين: ١/٧٨ ـ ٧٩.

وقيل رب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً، وما في الذنوب من اللذات كما في الطعام الطيب المسموم من اللذة، فهي مغمورة بما فيه، مغمورة بما فيه المفسدة، ومؤثر لذة الذنب كمؤثر لذة الطعام المسموم الذي فيه من السموم ما يمرض أو يقتل.

ومن ها هنا يعلم: أنه لا يؤثر لذات الذنوب إلا من هو جاهل بحقيقة عواقبها كما لا يؤثر أكل الطعام المسموم للذته إلا من هو جاهل بحاله، أو غير عاقل، ورجاؤه التخلص من شرها بتوبة أو عفو، أو غير ذلك، كرجاء آكل الطعام المسموم الطيب الخلاص من شر سمِّه بعلاج أو بغيره، وهو في غاية الحمق والجهل، فقد لا يتمكن من التخلص منه بالكلية فيقتله سمه، وقد لا يتخلص منه تخلصاً تاماً فيطول مرضه، وكذلك المذنب قد لا يتمكن من التوبة، فإن من وقع في ذنب تجرأ على غيره، وهان عليه خوض الذنوب، وعسر عليه الخلاص منها، ولهذا قيل: من عقوبة الذنب الذنب بعده، وقد دلّ على ذلك القرآن في غير موضع، وإذا قُدر أنه تاب منه فقد لا يتمكن من التوبة النصوح التي تمحو أثره بالكلية، وإن قُدِّر أنه تمكّن من ذلك، فلا يقاوم اللذة الحاصلة بالمعصية ما في التوبة النصوح المشتملة على الندم والحزن والخوف والبكاء وتجشم الأعمال الصالحة من الألم والمشقة، ولهذا قال الحسن: ترك الذنب أيسر من طلب التوبة.

ويكفي المذنب ما فاته في حال اشتغاله بالذنوب من الأعمال الصالحة التي كان يمكنه تحصيل الدرجات بها»[1].

---

(١) مجموع رسائل ابن رجب: ٢/ ٧٩٦.

والتنبيه على الحقائق الكبرى منهج نبوي كان يقوم به النبي ﷺ ليكون إسلامنا حقيقياً لا مجرد التوسم به.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**»[١].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «ذكر في هذا الحديث كمال هذه الأسماء الجليلة، التي رتب الله ورسوله عليها سعادة الدنيا والآخرة، وهي الإسلام والإيمان، والهجرة والجهاد، ذكر حدودها بكلام جامع شامل، وأن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

وذلك أن الإسلام الحقيقي: هو الاستسلام لله، وتكميل عبوديته والقيام بحقوقه، وحقوق المسلمين، ولا يتم الإسلام حتى يُحب للمسلمين ما يحب لنفسه. ولا يتحقق ذلك إلا بسلامتهم من شرّ لسانه وشرّ يده، فإن هذا أصل هذا الفرض الذي عليه للمسلمين. فمن لم يسلم المسلمون من لسانه أو يده كيف يكون قائماً بالفرض الذي عليه لإخوانه المسلمين؟ فسلامتهم من شره القولي والفعلي عنوان على كمال إسلامه.

وفسر المؤمن بأنه الذي يأمنه الناس على دمائهم وأموالهم، فإن الإيمان إذا دار في القلب وامتلأ به، أوجب لصاحبه القيام بحقوق الإيمان التي من أهمها: رعاية الأمانات، والصدق في المعاملات، والورع عن ظلم الناس في دمائهم وأموالهم. ومن كان كذلك عرف الناس هذا منه، وأمنوه على دمائهم وأموالهم، ووثقوا به، لما يعلمون

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب المسلم من سَلِمَ من لسانه ويده (ص٥ ـ رقم ١٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام، (ص٤٠ ـ رقم ١٦٢).

منه من مراعاة الأمانات، فإن رعاية الأمانة من أخصّ واجبات الإيمان، كما قال ﷺ: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**».

وفسّر ﷺ الهجرة التي هي فرض عين على كل مسلم بأنها هجرة الذنوب والمعاصي، وهذا الفرض لا يسقط عن كل مكلف في كل حال من أحواله، فإن الله حرم على عباده انتهاك المحرمات، والإقدام على المعاصي، والهجرة الخاصة التي هي الانتقال من بلد الكفر أو البدع إلى بلد الإسلام، والسُّنة جزء من هذه الهجرة، وليست واجبة على كل أحد، وإنما تجب بوجود أسبابها المعروفة.

وفُسر المجاهد بأنه الذي جاهد نفسه على طاعة الله، فإن النفس ميَّالة إلى الكسل عن الخيرات، أمّارة بالسوء، سريعة التأثر عند المصائب، وتحتاج إلى صبر وجهاد في إلزامها طاعة الله، وثباتها عليها، ومجاهدتها عن معاصي الله، وردعها عنها، وجهادها على الصبر عند المصائب، وهذه هي الطاعات: امتثال المأمور، واجتناب المحظور، والصبر على المقدور.

فالمجاهد حقيقة: من جاهدها على هذه الأمور، لتقوم بواجبها ووظيفتها. ومن أشرف هذا النوع وأجلِّه: مجاهدتها على قتال الأعداء، ومجاهدتهم بالقول والفعل، فإن الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الدين.

فهذا الحديث من قام بما دل عليه فقد قام بالدين كله: «**من سلم المسلمون من لسانه ويده، وأمنه الناس على دمائهم وأموالهم، وهجر ما نهى الله عنه، وجاهد نفسه على طاعة الله**»، فإنه لم يبق من الخير الديني والدنيوي الظاهري والباطني شيئاً إلا فعله، ولا من الشر شيئاً إلا تركه، والله الموفق وحده»[١].

---

(١) بهجة قلوب الأبرار ص١٤ ـ ١٦.

وكذلك قوله ﷺ: «**ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ، ولكنَّ الغنى غنى النفس**»[١].

وكذلك قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وكذلك الحج، فالحج مقاصده عظيمة ليس هو مجرد السير بالراحلة والوقوف بالمشاعر وقوفاً مجرداً عن سير القلب إلى الله، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله[٢]: «ما الشأن فيمن سار ببدنه، إنما الشأن فيمن قعد بدنه وسار بقلبه حتى سبق الركب».

وقال بعض العارفين[٣]: «سير القلوب أبلغ من سير الأبدان، كم من واصل ببدنه إلى البيت وقلبه منقطع عن رب البيت؟! وكم من قاعد على فراشه في بيته وقلبه متصل بالمحل الأعلى».

ومن انقطع قلبه عن ربه فذاك المبخوس المحروم الذي أضاع أسباب نجاته وسعادته، قال ابن القيم رحمه الله[٤]: «وأعظم العقوبات

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب الغنى غنى رضى النفس (ص١١١٩ ـ رقم ٦٤٤٦)، ورواه مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل القناعة (ص٤٢٢ ـ رقم ٢٤٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) لطائف المعارف ص٤٤٩، ط ـ بيت الأفكار.

(٣) لطائف المعارف ص٤٧٣.

(٤) الجواب الكافي ص١٠٨، ط ـ مكتبة المعارف.

نسيان العبد لنفسه، وإهماله لها، وإضاعتها حظها ونصيبها من الله، وبيعه ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن، فضيع من لا غنى له عنه، ولا عوض له منه، واستبدل به من عنه كل الغنى أو منه كل العوض:

من كل شيء إذا ضيّعته عوض   وما من الله إن ضيّعته عوض

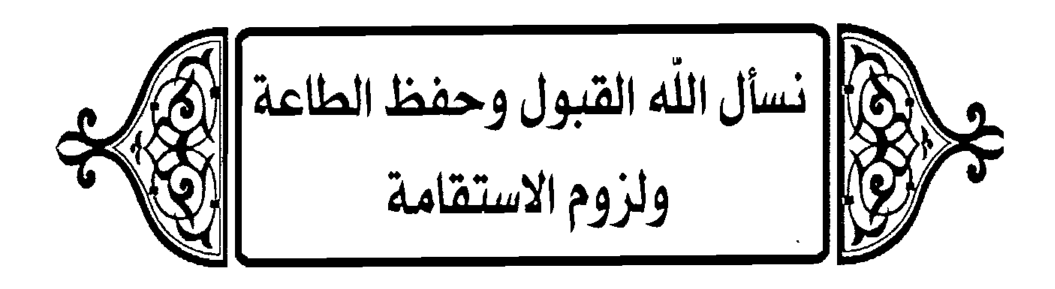
فالله سبحانه وتعالى يُعوِّض عن كل ما سواه ولا يعوّض منه شيء، ويغني عن كل شيء ولا يغني عنه شيء، ويجير من كل شيء ولا يجير منه شيء، ويمنع من كل شيء، ولا يمنع منه شيء، فكيف يستغني العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين، وكيف ينسى ذكره، ويضيع أمره حتى يُنسيه نفسه، فيخسرها ويظلمها أعظم الظلم؟

فما ظلم العبد ربه ولكن ظلم نفسه، وما ظلمه ربه ولكن هو الذي ظلم نفسه».





الدرس الثلاثون



نسأل الله القبول وحفظ الطاعة ولزوم الاستقامة

ها نحن أوشكنا على وداع رمضان، هذا الشهر الذي كان ينتظره أهل الخير والطاعة والعبادة لما يعلمون حقيقة ما فيه من نزول الرحمات وما يسّره الله فيه لأهل الخير من الإقبال عليه والتأله له بأنواع العبادات والطاعات.

هذا الشهر الذي نسأل الله أن يتقبل منا صيامنا وقيامنا وتلاوتنا للقرآن وصدقاتنا وزكاتنا وسائر طاعاتنا، فالمؤمن مشفق ولو أحسن العمل فكيف إذا قصّر وفرّط؟!!.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً»(١).

---

(١) ابن كثير: ٥/ ٤٨٠.

فهذا شأن المؤمن يُحسن العمل ويُحسن الظن بربه أن يتقبل أعماله الصالحة ويتجاوز عن سيئاته، أما المغرورون فيسيئون العمل ويمنّون أنفسهم بالأماني الكاذبة، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه، فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أن يجازيه على أعماله، ويثيبه عليها ويتقبلها منه، فالذي حمله على العمل حسن الظن، فكلما حسن ظنه حسن عمله، وإلَّا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز، كما في الترمذي والمسند من حديث شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال: «**الكيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على نفسه**»[(١)].

فالمؤمنون جاهدوا أنفسهم في شهر الطاعة لما يرجونه من الثواب، فهذا من الثقة بالله الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ملاحظة حسن الجزاء، وعلى حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته يخفّ حمل البلاء، لشهود العوض، وهذا كما يخفّ على كل متحمل مشقة عظيمة حملها، لما يلاحظه من لذة عاقبتها وظفره بها، ولولا ذلك لتعطلت مصالح الدنيا والآخرة، وما أقدم أحد على تحمل مشقة عاجلة لثمرة مؤجلة، فالنفس موكلة بحب العاجل، وإنما خاصة العقل: تلمح العواقب، ومطالعة الغايات»[(٢)].

وهذا الكلام من ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بذكر الثمرة المؤجلة ليس على سبيل الحصر كما هو معلوم من سائر كلامه، وإنما أراد الثمرة الكبرى

(١) الجواب الكافي ص٣٧.
(٢) مدارج السالكين: ٢/ ١٣٨.

والراحة العظمى، وإلا فإن المؤمن يجد ثمرات عاجلة في دنياه لعباداته وطاعاته كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهي الحياة الطيبة التي وعدها الله لمن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن»[١].

ومن أعظم ما يكون من الثمرات العاجلة التي يجتنيها المسلم من طاعاته وعبادته هو الاستلذاذ بحلاوة الإيمان، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فوجد المؤمن حلاوة الإيمان في قلبه وذوق طعمه أمر يعرفه من حصل له هذا الوجد وهذا الذوق. فالذي يحصل لأهل الإيمان عند تجريد التوحيد يجذب قلوبهم إلى الله إقبالهم عليه دون ما سواه، بحيث يكونون حنفاء لله مخلصين له الدين، وهذا حقيقة الإسلام الذي بعث الله به الرسل، وأنزل به الكتب، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه، والله أعلم»[٢].

ودعنا رمضان وكلنا وجلون، خائفون لا ندري ما الذي قبله الله عز وجل من أعمالنا كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي يعطون العطاء وهم خائفون ألا يتقبل منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط كما قال الإمام أحمد: حدثنا

(١) مجموع رسائل ابن رجب: ١/ ٩١.
(٢) الآداب الشرعية: ١/ ٦٢٥.

يحيى بن آدم حدثنا مالك بن مغول حدثنا عبد الرحمن بن سعيد بن وهب عن عائشة ﵂ أنها قالت: يا رسول الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «**لا: يا بنت أبي بكر، يا بنت الصديق، ولكنه الذي يُصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل**».

وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم من حديث مالك بن مغول به بنحوه، وقال: «**لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يُصلون ويصومون ويتصدقون، وهم يخافون ألا يُقبل منهم**»[١].

والشأن بعد انقضاء رمضان في أمرين مهمين:

الأول: حفظ الطاعة، فأنت يا عبد الله قد جهدت نفسك وأسهرت ليلك فاحفظ أجر هذه الطاعات عن أن تذهب لغيرك، فلا تضرب هذا ولا تشتم هذا، ولا تغتب هذا، فحسنات أتت بجهد كبير فلا تهديها ولا تهدرها بسهولة لغيرك، كن عاقلاً وإلجم نفسك واحترز من رعونات النفس وفلتات اللسان والجهل والسفه بغير الحق.

كذلك احذر الذنوب والمعاصي مطلقاً حتى لا تأكل حسنات أعمالك الصالحة، فإنه كما أن الحسنات يذهبن السيئات كذلك السيئات تأكل الحسنات، قال ابن القيم ﵀: «ومحبطات العمل ومفسداتها أكثر من أن تُحصر، وليس الشأن في العمل، إنما الشأن في حفظ العمل مما يُفسده ويُحبطه»[٢].

الثاني: المحافظة على ما اعتدته من الخير: فأنت يا عبد الله،

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٥/ ٤٨٠.
(٢) الوابل الصيب ص٢٠.

وفقك الله لأنواع من الطاعات كالصيام والقيام وتلاوة القرآن فداوم على فعلها وحافظ عليها ولا تضيّع هذا الخير، لأي شيء تتركه وتضيعه؟!!

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ [النحل: ٩٢]، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله: «لأن الإنسان إذا اعتاد الخير وعمل به ثم تركه، فإن هذا يؤدي إلى الرغبة عن الخير، لأن الرجوع بعد الإقدام شر من عدم الإقدام»[١].

فلزوم الطاعة والمداومة عليها هو من شكر الله الذي يسر لك فعلها وأداءها، وتركها وتضييعها هو كفران لهذه النعمة، قال النبي ﷺ: «**من تعلم الرمي ثم نسيه فليس منا**»[٢]، وفي رواية «**فهي نعمة جحدها**»[٣].

وتضييع الطاعات بعد الاهتداء إليها ولزومها هو من مشابهة أهل الكتاب الذين ملّوا الطريق وفتروا عما يرجوه المؤمنون من لقاء الله، قال تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «أي: ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التامّ، ثم لم يدوموا عليه، ولا ثبتوا، بل طال عليهم الزمان، واستمرت بهم الغفلة، فاضمحلّ إيمانهم وزال إيقانهم»[٤].

---

(١) شرح رياض الصالحين: ٤/ ٥٦.
(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي (ص٨٥٧ ـ رقم ٤٩٤٩).
(٣) رواه الطبراني في الأوسط.
(٤) تيسير الكريم الرحمن ص١٠٠٠.

فالمقصود الاستقامة، وقد عرّفها ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تعريفاً جامعاً فقال: «هي السداد والإصابة في النيات والأقوال والأعمال»، وقال أيضاً في معناها: «الاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد، والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال والنيات، فالاستقامة فيها: وقوعها لله، وبالله، وعلى أمر الله»(١).

وانظر إلى نصيحة النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «**لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل ثم تركه**».

فإن قلت: كيف ذمّ الرجل على ترك قيام الليل مع أنه ليس بفرض أصلاً؟ فالجواب أنه بشروعه فيه ولزومه ودوامه عليه أخذ مأخذ الالتزام، فتركه هكذا بعد ذلك بدون عذر قبيح، لذلك قال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ: «. . .أن تؤخذ مأخذ الملتزمات، كالرجل يتخذ لنفسه وظيفة راتبة من عمل صالح في وقت من الأوقات، كالتزام قيام حظ من الليل مثلاً، أو صيام يوم بعينه لفضل ثبت به على الخصوص، كعاشوراء، أو عرفة، أو يتخذ وظيفة من ذكر الله بالغداة والعشي. . . . وما أشبه ذلك.

فهذا الوجه أُخذت فيه التطوعات مأخذ الواجبات من وجه، لأنه لما نوى الدُّؤُبَ عليها في الاستطاعة، أشبهت الواجبات أو السنن الرَّاتبة، كما أنه لما كان ذلك الإيجاب غير لازم بالشرع، لم يصر واجباً، إذ تركُهُ أصلاً لا حرج فيه في الجملة، أعني: ترك الالتزام،

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٨٨.

ونظيره ـ عندنا ـ النوافل الراتبة بعد الصلوات، فإنها مستحبة في الأصل، ومن حيث صارت رواتب، أشبهت السنن والواجبات»[١].

فالله عز وجل أمر بلزوم طاعته وإجابة داعيه إلى حين الوفاة ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود:١١٢]، وعن سفيان بن عبد الله الثقفي ﷺ قال: قلت يا رسول! قلْ لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال: «**قل: آمنت بالله، ثم استقم**»[٢].

فسلعة الله غالية، سلعة الله الجنة، تحتاج إلى عمل، وصبر على العمل حتى نوافي الله عز وجل وهو راضٍ عنا قال: محمد بن المنكدر رحمه الله: «كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت»[٣]. فالنفس تحتاج إلى إخلاص العمل لله، وتجريد المتابعة للنبي ﷺ، قال ابن القيم رحمه الله: «فإن الصراط المستقيم يتضمن علوماً وإرادات وأعمالاً وتروكاً ظاهرة وباطنة تجري عليه كل وقت، فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد، وقد لا يعلمها، وقد يكون ما لا يعلمه أكثر مما يعلمه، وما يعلمه قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه، وهو الصراط المستقيم وإن عجز عنه، وما يقدر عليه قد تريده وقد لا تريده، كسلاً وتهاوناً، أو لقيام وغير ذلك، وما تريده قد يفعله، وقد لا يفعله، وما يفعله قد يقوم فيه بشرط الإخلاص وقد لا يقوم.

---

(١) الاعتصام: ٢/ ١٣٩.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب جامعأوصاف الإسلام (ص٣٩ ـ رقم ١٥٩).

(٣) سير السلف (٣/ ٩٢٦).

وما يقوم فيه بشرط الإخلاص قد يقوم فيه بكمال المتابعة وقد لا يقوم، وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه وقد يصرف قلبه عنه، وهذا كله واقع سارٍ في الخلق، فمستقل ومستكثر، وليس في طباع العبد الهداية إلى ذلك، بل متى وُكل إلى طباعه حيل بينه وبين ذلك كله، وهذا هو الإركاس الذي أركس الله به المنافقين بذنوبهم فأعادهم إلى طباعهم وما خلقت عليه نفوسهم من الجهل والظلم»[(١)].

فالسعيد من لزم الطاعة حتى يوافي ربه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والحمد لله رب العالمين

❁ ❁ ❁

(١) الجواب الكافي ص١٨٢.





الخاتمة

تلك هي أهم الدروس المستفادة من شهر رمضان شهر الصيام، والسعيد والموفّق من قدر المواسم حقّ قدرها، والمغبون من استوت عنده الأيام، وأعظم الناس غبناً وخسراناً من كانت أحواله ردية في الأيام المرضية.

والدنيا حرث الآخرة، وكل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها، وبائع نفسه فموبقها كما قال النبي ﷺ(١).

والإنسان على نفسه بصيرة فهو يعرف من أي طبقة كان ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

فهنيئاً لمن استبق الخيرات في رمضان، وهنيئاً لمن لزم ما ارتاضت جوارحه من صيام وقيام وتلاوة قرآن وسائر الطاعات في

---

(١) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء (ص١١٤ ـ رقم ٥٣٤) من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ.

سائر أيام السنة، وهنيئاً لمن زاد في الهدى والتقوى، وهنيئاً لمن بالغ في الاجتهاد في تحقيق وصف العبودية.

فالحمد لله وحده على توفيقه وتيسيره لكل خير وطاعة، وأسأله سبحانه القبول، واستغفره من التقصير والخلل والزلل.

والحمد لله رب العالمين



الفهرس




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com